

مترجمة

الدكتور سامي الدروبي

محمد ديب

الكتاب



روايات الهلال

روايات الهلال

Riwayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٣ - نوفمبر ١٩٧٠ - ١٢٩٠

263 — November 1970

رئيس مجلس الإدارة: أحمد ميماء الدين

رئيس التحرير: رجاء النعش

بيانات إدارية

توزيع في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم - عن الكميات المرسلة
بالتفصيل في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الأردن والعراق ١٥٠ قرشا

قيمة التوزيع السنوي : ١٢ عدداً في الجمهورية العربية المتحدة
وبلاد الشرق العربي والأفريقي ١٠٠ قرش صاغ - في مناطق
العالم وتحت تصرفات أو ٤٠ شلن والقيمة تسدد مقدماً لتقسم الاشتراكات
بدار الهلال في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية - في
الخارج بتحويل أو بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » - والاشتراكات
الموضحة تحلها بالجملة العادية - وتضاف رسوم البريد الجوي والمساعي
على الأسعار المحددة عند الطلب

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عن العرب - القاهرة
تليفون : ٣٠٠٠ - عشرة خطوط

مكتبة
مكتبات



روایت
وفاقی

مجله شهریه انوارالعلم ص العالمی

www.library4arab.com

الحكاية العبرية

حكايات

الفلاف بريشة
الفنان هبة عنایت

www.library4arab.com

الحرب العربية

بقلم

ممدديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الفيل

مكتبة

العربية

www.library4arab.com

سحر الحجاب
حكاية حكاية
حكايات

www.library4arab.com

تمهيد

ان وصل الى امام « بيت النور » حتى اضع راسي على
منحوتة حجرية مهدتها الرياح . ان نواحي منحوتة من نبات
الدين تنطق تنعش بها قدمك وتنزلق عليها . هدمنى الطريق
الوعلى الى سلكها بنو اريد مع حميرهم الصغيرة . سلك هو السور
الجنوبى من اسوار « المنصورة » التى لم يبق منها الا جوانب ابراج .
الارض عذبة . وتلك ضوضاء مبهمه ترقى اليك من السهل . حتى
اذا بلغت من سعيدك رابية يقال لها « عطار » اطلت من تحتك على
ارجاء فلسطين . ففي المشرق ، ترى « شرفة الغراب » التى تنصب
برأسها المخروطى فوق ما يحف بها من ذرى . وفي الشمال يمتد
المشهد الى ما وراء طريق « وهران » والسكة الحديدية ، فيشمل
اراضى « صفصفا » و « حنايا » و « عين الحوت » ، التى فيها
اشجار الكرم وحقول القمح . وتلك جبال « طارا » الزرقاء الخفيفة
المتوجة تقرب عند آخر المدى حاجزا بين البحر الابيض المتوهم
والسهول الداخلية العالية . وعلى مسافة اقرب ، يقع بصرك على
سهول « امام » و « الكيفان » و « بريا » . ان اواخر موجات البحر
المتسارعة من الافق لم تفنى هنا ، على سلسلة جبال بنى بوبل
ووراءها فوران تهب ط ارض خلاء تناثرت عليها جبال حزينة
انك لتدرك ان الشوارع القوي الذى تعانیه فى هذه الاماكن ،
اجتازت حدودا . وتنفذ الى عزلة . انك تتقدم الآن فى ارض
تهدم فيها الرياح بين افلاك الشائكة من زعانف النخيل . وكانت
تضيئها باقات من اشجار الزم المنورة . وتنظر الى الشمال ، فترى
ظهر جبل « السطح » مقلوحا ومزروعا قبل ان ينخفض امام الاراضى
البكر ، كأنه عماد يساند ذلك الجزء (اعنى الجزء الادنى كله) الذى
يحمله الفلاحون من جبال بنى بوبلان ، ان هؤلاء الناس يعيشون على
أطراف الوهدان الصالحة للفلاحة ، المعلقة فى الجبل ، النائية الآن
عن العالم ، رغم أن المزارعة التى تفصلها عن تلمسان لا تزيد على ثلاثة
كيلومترات .
ان حياتهم تنقضى ايام زراعة ورعى لدى المستوطنين الفرنسيين .

في حياة تبلغ من طابع القدم ، ويبلغ اصحابها من بساطة العيش
وتحسبهم معها آتين من قارة منسية . ان الارض هناك في الاعالي
صعبة المراس لأماء فيها ، قاحلة تختنق ظمأ ، ولا تكاد تستطيع سكة
البركات القديم ان تحزها .

والفلاحون كثيرا ما تلم بهم المجاعة . يهبط الليل ، فيبتلع
الظلام تلك الاكواخ الحقيرة التي يسكنها هؤلاء الفلاحون ، تنطلق بنات
الوحل في الأرجاء ناعبة . غير ان هذا الوجه القاسي الذي للجبل
في بعض الاحيان جمالا خاطفا . وذلك حين توضع بصره على
الغارمة من اطفال ناحلين يرتدون اسم النعنة ، ويضطربون

لرؤية الحضارة قط . ما يظن حضارة فهو باطل . ان مصير
الظلم على هذه الروابي هو الشقاء . أشباح القادح جاله تهوم
فوق الاراضي الظلماء وامام اطيان عظيمة تختنق المأساة السود التي
تأوى الفلاحين .

في عام ١٩٣٩ ، في صيف عام ١٩٣٩ .
تقد التقى بمر هنالك باطفال اشقى منه ، اطفال كثر الجراد من
فرط الجوع ونحوهم . ان ملابسهم لاتعدو ان تكون خرقا مجمعة .
اما اقدارهم فتعجزها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال الحلفاء ،
وربما راضيا . عادة بغير شيء في الاقدام اكثر الاحيان . ان أعينهم
الكبيرة التي يلمع في حدقتها الاشهب والاخضر تبث غراما
في هذه الاوضاع المجدبة التي تركت لهم . ان ما يلوح فيهم من حزن
وصرامة قد تلاشت شيئا غريبا عجيبا . العابهم ليست هي حقا
المألوفة عند اطفال المسان . الحيوانات هي رفاقهم ، لا زواجرهم
سواها . وهم يخفون ، يحسنون الصمت ، ويحتقرون كل من ليس
من الريف .

كان اطفال هذا العالم الحزين مبكرين في نموهم مثل عمر . ان
ادراكهم للشقاء يلمع في أعينهم مثلما يلمع في عيني عمر ، وان يكن
قد حصل لهم علم نحو آخر .

على انهم يختلفون عن عمر في ان احاديثهم تشتمل على تعبيرات
ولهجة لا تلاحظ لدى اهل المدن في مثل هذه السن . وهم يصرون
على جدهم اصرارا . انها الرصانة المعهودة في الفلاحين . كان
عمر يحس بينهم انه طفل مسفر جدا . انهم ليرعبونه بهذا الاندفاع
العارم الذي يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الاهداف : قتلا

الطيور أو قيادة القطعان أو تحدى الأوروبيين . وقد اكتشف بين هؤلاء الصبيان من أبناء الفلاحين رفاقا له لم يمانعوا في قبوله بينهم البتة . غير أنهم استغربوا أن يعرف القراءة وأن يقول كلاما بالفرنسية . وفوجئوا بما يعرفه من معلومات خاصة . أنه يقول مثلا بأن الأرض كروية ، وأنهم جميع الأطفال ، يدورون حولها مع الأرض ، وهو يقول بأن الشمس ثابتة ، وهذا مخالف للبداهة . وهو يقول بأن الشمس أشياء كثيرة عن البلاد البعيدة . وقد شرح لهم كذلك كيف تكون المطر ، فلما لبث الفلاحون عندئذ أن استنكروا كلامه قال لهم : فقه . ولشد ما استعجبوا من قام أمامهم ببعض العمليات الحسابية . غير أن القرويين لا يظفون شيئا جهله ، فهو لا يعرف شيئا عن الاتساع والنباتات ولا يعرف شيئا عن الحيوانات والزراعات وأعمال الحقول .

وفي أثناء ذلك كانت تنبثق في نفسه معرفة حياة الأرض الشريفة اللاشعورية . أن طاقة عجيبة ، دفاقة قوية ، غمرته في بني مومن . هناك في أعلى الجبل ، عرف حياة العالم الكبرى بصوت الشجر العجوز كومناد .

- ١ -

الظلام يطفح من الفجاج ساكنا . وهذه بضعة أصوات تشق طريقها في الهواء الرقيق ثم تضع في الصمت . أن رجالا يضطربون هنالك تحت ، وثم حيوانات يختلط صراخها في الأعماق ، وما تنفك تتحرك وتغيب في ظل أرغب يتموج بين الأشجار . لقد أحس عمر بطراوة نافذة تهب على وجهه وعلى ذراعيه العاريتين .
وضم عمر راحتيه أمام فمه بوقا ، وصاح بصوت قوى :
- هيه ، زهور ، أنظري أين أنا .

أن الأرض منبسطة من جهة واحدة ثم تنخفض فجأة . كان عمر رائفا في وهدة الحقول يتأمل بيت أسرة محمد ، وهو قشرة من الأرض جافة بيضاء . وكانت زهور تجهد على الطريق الضيقة متسدرة (بحايكها) ، دائرة حول المزرعة .

الحقول تدخل في الليل على قدر تراجع خط من البياض يشتعل في آخر الأرض . وعلى مقربة من ذلك يقوم السهل المرتفع الواسع ، سهل لالا ستي الذي لا ترى منه إلا جبهته الثقيلة الهائلة الحادة . أن غابة الصنوبر تبدو إلى جانبه ملفعة بنعومة ريش كبير ، رغم أنها أعلى منه .

وسطعت الشمس لحظة أخيرة ، وأحاط الهواء الحار بالذرى . أن ضوء النهار يصعد على الجبل شيئا فشيئا نحو القمصر . وما لبث الغسق أن خيم . أن شعورا بالسكينة يرين على قلب عمر . وما انفك الظلام يزداد كثافة في المشرق . أن موقدا بلا شعلة كان يحرق الاراضي والجبال في الشرق ، ثم هو الآن يتجمع على نفسه كورقة تحترق .

لم يمض عمر مع زهور إلا حين سمحت عيني لابنها بذلك . أصبحت عيني لا تطلب من ابنها أن يبقى في البيت . لاشك أن الصبي أخذ منذ تلك اللحظة يعد الدقائق ، ولا يطيق على الانتظار صبورا . أنه ليتفق له الآن كثيرا أن يصعد إلى بني بوبلان في صحبة زهور . وأن هذه الرحلات لتورى في قلبه مشاعل من الفرج .
كان يقفز ويرقص . وكان ضحكه ينفجر صاحبا . والسيارات

يتلاحق بعضها وراء بعض في الطريق ، فإذا خطرت واحدة منها أخذ يتوالتب على ألف صورة وصورة ، ويصيح مقلدا أصوات زماراتها .
فإذا مرت سيارة كبيرة من سيارات النقل التي تلهت من فسط ما حملت ، أخذ ينفخ نفخا شديدا ليقلدها حتى تكاد تتحطم أضلاعه من شدة النفخ . وكان عمر يتمسك بها أحيانا فيقطع مسافة طويلة من الطريق . وكانت زهور في مثل هذه الأحوال تخلع عنها حجابها ، فتطويه حتى يصير أشبه بكرة ، وتأخذ تركض في أثر الصبي . أنها تركض بلا حايك . . يا ويلها إذا علمت أمها أنها تسير بلا حايك ، ولو في هذا الطريق المقفر . . .

كانت تنبعث في عمر حياة جديدة . وكانت دار سبيطار تبدو له في هذه اللحظة أشبه بسجن رهيب ، وتلك النسوة اللاتي تقلبن الدار أثناء فورانها المألوف رأسا على عقب ، يدون له غيلانا لا تحتمل ولا تطاق . انهن أقرب الى بهائم متعجرفة منهن الى البشر . كان يحس حين يلاحظهن في بعض اللحظات بانزعاج شديد يخنقه خنقا ، وكان يشعر في لحظات أخرى بفيض من الحزن والمرارة في قلبه : لاشك أن ظروف السجن التي تحيط بهن تزيد من غرابته وشذوذا .

أخذ عمر يدفع الباب ذا المصراع الواحد ، الذي لا يفتح الا في بركة فلما رأت (ماما) الصبيين يدخلان ، صاحت صيحات صغيرة في دهشة :

- هه . . . هذه زهور . . . هذا عمر .
وأقبلت على الصبي فقبلته ، ثم قبلت أختها .
ان (قره علي) وامرأته لا يزالان الى هذه الساعة يقومان ببعض الاعمال . ان شغل النهار يشارف على النهاية .
لم يمسخ عمر اللعاب الذي يخضل خديه . انه أشبه بزهرة طرية تتفتح على جلده ويتعشها هواء المساء .
- أأنت جائع ؟

- نعم .
وقادته ماما الى الغرفة التي فيها المؤونة (وهي حجرة ضيقة رطبة) فتناولت قبضة من التين الجاف وضعتها في يده مع قطعة من فطير .
وسألتها ماما عن سكان (دار سبيطار) ، ثم استأذنت . كانت تنهى كنس الأرض بمقشة من سعف النخل . تستطيع الاختمان أن تتحدثا على مهل فيما بعد .
ان فناء البيت ، وهو من قراب مههد ، يشكل مستطيلا كبيرا .

فعلى الضلعين الطويلين من هذا المستطيل تقوم مساكن من حجر ولبن
مطلية بالكلس . وما يرمى الى خارج الفناء من بحر وزبل يصبح ملتقى
صاخبا للدجاج وسائر الطيور .

وهبت نسائم من الهواء فبعثرت كل شيء .
قال قره :

- ما ينبغي أن يضيع شيء ، حتى ولا هذا .
قال ذلك وهو يشير بيده الى الروث الذي كانت ماما ترميه ،
وأضاف :

- من الممكن أن نتخذه وقودا .

وعادت المرأة الشابة تثرثر مع أختها .

لقد اقتيدت ماما بنت قدرى من دار سبطار ذات يوم الى بنى
بوبلان فى زفة كبيرة . حدث ذلك منذ عدة سنين . . وليست الآن
سعيدة ، ولا هى فى حقيقة الامر شقية ، ما دامت قد تزوجت . كانت
فى ذلك اليوم ، على لطفها ودمائها ، ذات أبهة وعظمة ، يرتبها الذهب
ويكسو وجهها الطلاء . ان غرفة كبيرة ستكون غرفتها ، وستكون
المؤونة كلها لاشرافها . وقد غرقت حياتها الآن فى الجبل . ان المرء
يعيش فى بنى بوبلان ساعات هادئة . ليس هناك الا اربعة بيوت ،
وقد حفرت الايام حول كل بيت هوة من صمت . ليست بنو بوبلان
قرية ، حتى ولا كفرا صغيرا .

بنو بوبلان تجرى الايام الجميلة فيها هادئة ، والضياء يتأرجح
فيها مضطربا . .

هذه الحياة ، هذه الارض . . كان لا يعرفهما عمر الا قليلا ، وذلك
منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذى يسمى كومندار . والى هذا
الرجل انصرف ذهن الصبي حين وصل هذه المرة ، متسائلا عما
حل به . ولولا ان الفسق قد شمل الارض لهرع الى حيث يقوم كوخه .
ما من شك انه كان سيجده هناك ، جالسا عند حدود اراضى قره ،
تحت شجرة البطم الكبيرة ، يضفر خبال الحلفاء على عادته . ان ماواه
المصنوع من اوراق الشجر والاعصان يرتفع فوق متحدر خفيف ،
ويشرف على الطريق الكبير كله ، وعلى ما بعد الطريق الكبير ، يشرف
على «دشرة» الفلاحين ، وهى موضع يسمى ايضا بنو بوبلان .

ان عمر لم ير كومندار واقفا فى يوم من الايام . كان الشيخ العجوز
يلف ساقيه المتورتين عند الركبتين بخرق بالية يشد فوقها عصائب
من المطاط الاحمر . فاذا نظرت الى هذين الجدلين رأيتهما يشبهان

بالسمك والمظهر قطعتين من عمود . لقد بترت ساقا كومنندار ابان الحرب القديمة . والى جانبه لا تزال ترقد عصوان صغيرتان . ان عمر لم ير هذا الرجل ماشيا فى يوم من الايام .

ان كومنندار ينتمى الى هذه الارض ، كهذه الاشجار المتفرقة التى حوله سواء بسواء . وحين اصبح قره صاحب هذه الارض ، فعثر عليه فى هذا الموضع نفسه ، لم يعرف ماذا يقول له . حتى اذا قرر بعد ذلك ان يطرده كان الاوان قد فات . لقد أدرك قره أنه لا سبيل له الى طرده .

وقد جاء للرجل هذا الاسم ، اسم كومنندار ، من حياة عسكرية طويلة كلفته بتر ساقيه آخر الامر . ومنذ أصبح الناس يطلقون عليه اسم كومنندار ضاع اسمه الحقيقى من ذاكرتهم . ان كومنندار قدرائى النار من قرب فى الحرب القديمة . وظل ثلاثة أيام بلياليها تحت كومة من الجثث . لقد صارع ، وظل يئن ويعول ثلاثة أيام . ثم استطاع بالرحف ان يخرج من كداسة الموتى . وهكذا انتصر على الموت . الا أنه فقد ساقيه . فلما عاد الى بنى بوبلان لم يكلم الناس والبهائم بعد ذلك الا بصوت مرتجف . ان الفلاحين يحيونه التحية العسكرية ، ويسمونه كومنندار .

لقد كان كومنندار يشبه شجرة من حديد حين كان عمر يقترب منه ، كان الشيخ يحدثه طويلا عن العالم . انه لا يحمل لهذا العالم الا الصداقة والاحترام . انه ، وهو جالس وحده تحت شجرته وسط الارض ، لا ينفك يساعد المخلوقات التى تملأ هذه الارض . لقد سمع فى الحرب القديمة نداء الرجال الذين كانوا يريدون ان يعيشوا . وظل هو نفسه ثلاثة أيام بلياليها مع الجثث ، وأحس بالتفسخ يصل اليه .

لا ، ان الشيخ لم يكن يأنف من التوجه بالكلام الى عمر . وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين عمر وهذا الرجل الذى تنصت لضوضاء الارض ويفهمها . كان الصبى يترك النساء والرجال ليلحق بالحياة الكبرى التى يحياها العالم . كان الشيخ كومنندار يعلمه الكلام الذى يجب ان يعلمه عن الخليفة .

قال له ذات يوم :

— لا بأس .. سياتى ان تفهم والأ تفهم فى هذه اللحظة يابنى . فانما المهم ان تفتح الآن اذنك وان تحفظ ما اقوله لك ، حتى اذا اشتد ساعدك ونضج عقلك فى المستقبل ، أفدت منه وعرفت كيف تنفق حياتك .. نعم ، فى المستقبل .. حين تصير رجلا ..

اشتعلت نيران في الطرف الآخر . ان نساء لا يرين ، يشترن في
الظلام . ان السنتهن تشحذ على مسن الهواء . وهذه أصوات اخشن
تختلط بأصواتهن . انها أصوات رجال . ولكن ، مامن صوت من هذه
الأصوات ، سواء أكان صوت رجل أم صوت امرأة ، يستطيع ان
يقطى ذلك الصوت الآخر الابح ، الذي كان يبدو أنه يجهل كل ما في
العالم من ضوضاء كان هذا الصوت يترنم بأغنية ، تتردد فيها
نقمة عالية علوا غريبا ، نقمة تفيض حزنا وأسى .
صاح واحد من آخر القرية :
- انتظر قليلا .

قال (بادعدوش) هذا وهو يلوح مهددا بعصا نحو الجهة التي يأتي
منها الغناء . واستمر الصوت يغنى :
تسلل صوتي بين الشجر
فأصغ اليه يخبر البقر
- انتظر ان يصل الغم بادعدوش ، ليريك كيف يجعل البقر من
أمثالك تخور وتجار .
وراح (يا دعدوش) يطلق نداءات مدوية وقد نفذ صبره :
- سلي..مان . سلي..مان .

وظهر سليمان من الظلام ، عاقدا يديه وراء ظهره ، مدندنا أغنيته
بصوت خافت ، وفي وجهه الذي لا يكاد يبين في الظلام يشع تعب
عن فرح . كان يهتز في أعماق عينيه المزمومتين التمعاع ضعيف ،
وكانت هذه النسوة تختفي في لحيته تأكل وجهه كله تقريبا .
صمت سليمان . انه يكبح ابتسامة تلمع في نظراته القريبة . قال
يا دعدوش :

- أصبحت منذ مدة تكثر من الغناء يا سليمان
فاطلق سليمان ضحكة بلا صوت

ونظر الرجلان كلاهما الى الأراضى الممتدة امامهما . وبدون ان يقول
أحد منهما كلمة واحدة ، قعدا معا في آن واحد على المنحدر المعشب .
ان القرية التي أولياها ظهر بهما أشبه بصدفة من ظل . وعلى جنبها
تتموج نفحات دخان ذكي الرائحة من سوق الذرة .

الظلمات تكثف تحت ذرى جبال يبرز جانبها في سماء حزين بلا
ضوء ولا ظل ، ومخضوضر الى غير نهاية ، وفي آخر السهل ، على
بحيرة من حجر أشهب قاتم ، يطرف قبس صغير من ضياء . انها
مزرعة مسيو فيلار وبغدها تستريح في الضباب أضواء مدينته

تلمسان وقرأها .

قال الشيخ :

— حين تعوزنا الواجبات ينهشنا الضجر نهشا، فناخذ نفنى أغاني
حزينة ، ونحن لا نعرف متى نتوقف عن الفناء . لا حيلة لنا في هذا .
اننا ندلل ضجرنا ، ونحنو عليه . يستطيع الانسان بذلك ان يعمر
طويلا . ويأتى يوم نكتشف فيه هذا الامر . فاذا لم نستجل واجباتنا
في ذلك اليوم واضحة ، كنا نجر حياتنا جرا لا فائدة فيه ولا جدوى
منه ، الى أن .. الى أن يحين حين «البعث» . على اننى أحس أن
اللحظة التى سنفهم فيها واجباتنا الجديدة أصبحت قريبة فلن تلبث
ان تأتى .

كان (سليمان مسكين) يصفى دون ان يكف عن الدندنة وهو
مطبق فمه . كان يفكر فى اقوال العجوز . وزالت ابتسامة عن شفثيه
شيئا فشيئا .

حواشى الأرض غارقة وراء ضباب الصيف . الحقول اقلعت ، وقد
قطعت قلوبها . قرية بنى بوبلان الأدنى تبحر ، السماء متلألئة .
وكان العم بادعدوش ينتهز فرصة هذا الصمت هو ايضا ، ليتأمل
كلماته التى قالها . سأل :

— وقره على ؟ كيف أصبح حال هذا الرجل ؟

وما لبث أن أضاف يقول :

— لا أدري .. يظن المرء انه يكفيه ان ينظر اليه حتى يعرف طبيعه .
والحق ان المرء قد ينفق حياته كلها قبل أن يصل الى سبر نفسه
كاملة ، واعتقد ..
فقاطعه سليمان قائلا :

— عفوك .. اننى لاخشى الا تكفينى حياتى كلها من أجل ذلك !
ما لنا ولنفس قره .. حسبنا القمل الذى علينا ، فلا حاجة بنا الى
البحث عن قمل فى ردوس الناس . ليس يهمنى كثيرا ان أعرف كيف
تركبت نفس قره .

— على كل حال .. اقول لك ..

— دعنا من هذا . ولنحاول أغنية من الاغنيات ، أغنية صغيرة .
فذلك احرى بنا وخير لنا .

هذا ما قاله سليمان . فأجابه الآخر .

— أراك تسرف فى الفناء .. ما عسى يخرج من هذا كله ؟

— أغنية صغيرة . هيا . أغنية صغيرة فقط ، يا با دعدوش .

انتصب «سليمان مسكين» ورمى الشيخ بنظرة تواطؤ ، قائلا :
أغنية فقط .

ثم تغطى ورتج رأسه قليلا .
وأعاد سليمان عصايته إلى مكانها وقبب صدره ، ثم ألقى نظرة
أخرى على العم بادعدوش ، كاشفا عن أسنانه ، فهتف الرجل
العجوز يشجعه .

وأخذ سليمان يفنى ، عاقدا يديه وراء ظهره ، جاعلا كوعيه في
الهواء :

يا ياما يا دميمة

ودار على نفسه

فقاطعه با دعدوش ، قائلا بصوت معول :

— لا ، لا ، ما هذه ..

ولكن سليمان لم ينثن عن عزمه ، وتابع يفنى :

يا ياما يا دميمة

غنى لنا أغنية جميلة

فالقدر تغلى

والطعام طيب

ان تعبيرا عن حزن صادق عميق يرتسم الآن على قسَمات بادعدوش
وضحك سليمان . ثم دار على نفسه وهو يقرع الأرض بقدميه، وظل
يضحك ضحكا صاخبا في أنف الفلاح العجوز المحملق .

ان وجه با دعدوش يثير ضحك سليمان أكثر فأكثر . وسليمان
لا ينفك يدور على كعب قدمه بلا توقف ، وهو يردد لازمته :

القدر تغلى

والطعام طيب

ان الطعام طيب

وفجأة انفجر با دعدوش يضحك هو أيضا ضحكا قويا هز جسمه
هزا شديدا .

— هيه سليمان ، كفى .. هيه هيه هيه سليمان . كفى اذهب .

ثم صاح يقول وهو يشير إلى المزارع الراكمة في السهل المظلم :
— وأنتم هنالك .. أصمدوا ، أصمدوا ..

ان رائحة قوية تفوح من الحقول بينما الغلام يشتد في السماء
حلقة . ان ليلة باردة متألثة تطرد اهتزاز النهار الواسع ، وتحل
محلّه . وتحت النجوم تبدأ جولة في الزمان الكثيف وفي وسن الأرض .

وامتلا جو الليل بنبرات أسيانة عميقة : ان أغنية أخرى تصل
الى هذا المكان من بعيد :

ماذا جرى لك يا حصاني

يا حصاني ..

فانقطع سليمان فجأة عن حركاته . واخذ يصفى اصغاء شديدا
نهما ، نسي معه با دعدوش . ثم طرا على وجهه تغير . وكأنه يتذكر
امرا لا تظفر ذاكرته الضعيفة باستعادته . وانتظر . ولم يخرج خلال
كل ذلك الانتظار لا عن صمته ولا عن انتباهه .

دام ذلك بضع دقائق ، كان خلالها ذلك الصوت نفسه لا ينفك
بطلق شكاته القائمة الحزينة :

ايه حصاني .. ايه حصاني

انه الرجل الوحيد ، الذي لا امرأة له ولا اولاد ، انه كومنذار
الذي يغنى .

الارضى العالية غارقة الآن فى الظلام . وسرعان ما نشرت رطوبة
الارض اغطيتها ، فاذا الارض بحر من ضباب يتأرجح على هون .

ارتعش سليمان رغم ان الجو لم يكن باردا ، وانتصب قليلا ، وتمطى ،
ثم استرد هدوءه . ومرة أخرى ، راح ينصت مغمضا عينيه ، مستندا
بظهره الى جذع شجرة ، دافعا رأسه الى وراء . ان با دعدوش
يرى صدره يعلو ويهبط ، ويرى تفاحة آدم البارزة تتحرك فى عنقه .
وامسك سليمان بفص من الأغصان واهتزت شفتاه بارتعاشة
خفيفة .

كان الصوت البعيد يتموج خلال الليل ، وكأنه ينبع من قلب الجبل
ثم يظل يرتفع ويرتفع بلا توقف . واخذ سليمان يرافق الغناء
بدمدمة صماء جاعلا وجهه أمام با دعدوش ، وظهره الى السهل :

ماذا جرى لك يا حصاني ؟

ما الذى ينقصك ؟

ان الغناء يخنقه . فما ان وصل الى النغمة العليا حتى سكت ، وهز
رأسه يمئة ويسرة فى يأس ..

ان الانغام الاخيرة تنتهى بنبرة كأنها انتحاب . وكان با دعدوش
يلاحظ صاحبه الفلاح ، ففهم انه لا ينبغي له ان يخرج من حال
النشوة التى هو فيها .

شد سليمان على قلبه بكلتا يديه والها . ثم رفع عينيه الى السماء ،
وفتح ذراعيه الى آخر مدى كأنما يريد ان يحضن عالم الليل كله .

ثم انتصب في تحد ، ونشق الهواء في يأس ، وبلغه في غضب
رحميا ، ونفته في عنف . وظل يرتعش لحظة من الزمان ، وهو منحن
الى امام يستقبل ريح الليل التي أخذت تهب . وانطلق يقول بكل
ما أوتي من قوة :

نحن نرقب النهار

ومن أعماق الاعين

ننظر الى الليل وهو ينتشر على الجبال

حالكا لا يشتعل .

— نيران

نوقدها كل مساء

في مواقد منازلنا

نيران فرح بين الجبال

تصل الى حدود العالم .

ان سليمان يتأرجح الآن ، وحركات جسمه تسير تئيبات صوته .
لكن جسمه كله كان يفتى ، انه يترنح ترنح سكران أسرف في الشراب .
وهو يلتفت بوجهه تارة الى الظل المتناثر في الليل المضيء ، وتارة الى
الظلمة الحالكة في الروابي ، فاذا تعابير شتى تتعاقب على وجهه
واحد بعد آخر ، فهو متجمد القسمات ، أو مظلم العينين ، أو هاديء
النفس ، أو فرح مرح .

النجوم ذات الاسنان

ترمي الارض بنبالها .

ورجال يسرون في الليل

يجوبون هذه الذرى

الملاى العارية

ما غناؤهم الا دمدمات

كان بادعدوش مائلا برأسه على صدره وقد سرت فيه حمى غريبة .
ان ما يظهر في وجه سليمان من تعابير قد فتته عن نفسه ، فهو
لا يستطيع ان يتحول ببصره عنه .

وفجأة قام العم بادعدوش يسير في الظلام كعملاق متحديق ،
فتكفاه هابطتان ، وظهره مقبب . وكأنه حشرة ضخمة عجيبة تهم
أن تتجمع على نفسها . وقطع الخطوات القليلة التي كانت تفصله عن
سليمان ، قطعها في هدوء وبلا جلبة ، ثم انتصب بقامته العالية
علوها كله .

خملق سليمان مسكين بعينه اللتين ليس لهما قرار ، وتأمل
با دعدوش في رفق وعدوبة كما كان يتأمل من قبل ، واستمر يغنى
بصوت ازداد الآن اتساعا :

جميع اليمامات المحتشدة
جميع الكواكب المتلاحقة في السماء
المدينة كلها ، الشوارع والحقول ،
النساء اللاتي يلدن صائحات ،
هؤلاء جميعا يحيون السجن
والباب الذي يدخل منه السجين .

أن دوامة تلف الأرض لفا . نفس با دعدوش الخشنة الجافية تدرك
ذلك ، تدركه ادراكا حادا كل هذه الحدة لأنها خشنة جافية .

وركع العم با دعدوش . جرى هذا المشهد بسرعة محيرة . الليل
هاديء . الفلاح العجوز ينظر الى سليمان الذي وضع احدى يديه
على كتفه .

خر الشيخ با دعدوش ساجدا عند قدمي سليمان مسكين في
وضع خضوع ومذلة . وشملهما الليل الاخضر الذي كان يزداد
عمقا وشمولا .

ملاً صوت زهور فناء البيت ، كان القى الشمس يفرق مدخل
المغارة . لم يكده عمر يفتح عينيه بعد حتى رفت خيوط من ضوء
حقيقه . وتمطى . أن شعوراً بالراحة والرخاء يسرى في جسمه
كله . وكان لا يزال يتردد في تعرف تلك الامكنة . وارتفع صوت الفتاة
مرة أخرى . أنه ينضم الى صوت الحياة فيطيل فرحة الفتى . شعر
الصبي بأنه الكائن الداخلى لزهور : طيف وحشى يتحرك عند البثاق
النهار .

ووصل ، وهو يفرك عينيه ، الى المراتين اللتين كانتا جالستين تحت
شجرة التين في الخارج فشده زهور اليها ، وأحاطت بذراعيها
كتفيه . وصبت له ماما قهوة باللبن ، ووضعت الى جانب فتجانه قطعة
من الخبز . تملص الطفل من ذراع زهور .

قالت ماما لزهور :

- دعيه ، لا تضايقيه .

وقالت لعمر :

- هل تجيئنا بالذرة ؟

- حالا .

- لا ، لا داعى الى السرعة أيها الصغير . . اشرب قهوتك أولاً .

خرج عمر . ان القرية غارقة في طراوة الصباح . ان سياجا من
الذرة يحيط بحقل البطاطس الواسع الذي يمتد فوق البيت . سيقان
عالية ملفوفة بأوراق حادة قاطعة . ان هذه الكتلة من النبات تغطي
الأرض بنسغ أخضر . قطع الصبي يضع سبلات وهو يرضخ النباتات ،
وكان من أجل ان يثق بأنها ناضجة ، يريح القشر ويفحص الحيات ،
فاذا رأى ان بياضها قد حال وصارت صفراء كالعاج ، انزعها .

وعاد عمر الى البيت معتلىء الذراعين بالعرائيس مع أوراقها .
وكانت زهور قد أعدت فرنا . . فأخذوا يقشرون السبلات ، وينزعون
عنهما قزمها . لم يبق بالكائون الا بصوات ، فوضعت الذرة عليها لتشوى .
دمدمت ماما تقول للصبي :

- صفراء ذابلة تلفها غلف ، ماهيه ؟ ان حزرت حزوت ، وان لم

تحرز وقت . .
فصاح الفتى يقول قبل أن تكمل ماما كلامها :
- الذرة ، الذرة .
تلك أحجية معروفة .
وهتف الصبي مطالبا :
- واحدة أخرى .
- عندي بيت من حديد ، في داخله عبيد ، أن حررت أعطيتك ،
وأن لم تحرز بالسوط ضربتك . ما هو ؟
طفق الصبي يفكر ، والاختان ترقبانه . وعجز في آخر الأمر عن
الاجابة ، فقالت ماما تكشف عن الجواب :
- هو البطيخة يا مقفل .
وانفجرت ضاحكة .
قالت زهور امرأة :
- هاتوا السوط ، هاتوا السوط .
وتظاهرت بأنها تنهال عليه بالسوط ضربا . فكان الصبي الذي لم
يستطع أن يحزر ، ينظر اليها مقظبا حاجبيه .
قالت :
- نعم ، هو البطيخة .
- واحدة أخرى .
قالت الام :
- ولكن هل تعرف ماذا يقال ؟ يقال ان الذين يقصون حكايات اثناء
النهار يصاب اولادهم بالقراع .
قالت ذلك ووضعت اصبعها على فمها تطالبه بالسكوت .
ومضت المرأتان الى مشاغلها . وبقي عمر يراقب الذرة تشوي .
وتناول غطاء قدر من القدور ، فأخذ يهوي به النار . وكان من حين
الى حين يرفع سبلة من السبلات شويت من أحد جانبيها ، فيديرها
على الجانب الآخر ، والموقد يدوي بانفجارات من حين الى حين .
كانت ماما ترتب العرفة ، وكانت زهور تقشر الخضر . وما هي الا
لحظة ، حتى عادتا معا ، وتربعا امام الكانون .
- هات هات . أنت نائم . أنظر كيف يجب ان تفعل .
قالت زهور للصبي ذلك ، واخذت الغطاء من يديه ، وحرسته تحريكا
قويا فوق الموقد فتأججت النار ، واخذت الذرة تفرقع بسرعة .
غطست العرائس بعد ذلك في ماء مملح بضع لحظات ، ثم سحبت .

كانت حباتها متراصة كالاستان المصفوفة . واخذوا يعصونها فامتلات بحباتها أفواههم فورا . انهم يقضمونها ، فيحسون بمذاقها ملحاً ودقيقاً وشواء في آن معا .

ادهش عمر ان تكون الحياة جميلة بمثل هذه السهولة . وكان يحس هذه الدهشة في كل صباح يطلع على بني بوبلان الاعلى . ان قلبه يتفتح لأمواج الحياة التي تندفق على الريف . كان يلاحق بقطة الحشرات في العشب ، ويحصى حركاتها ، ويسحق أوراق النعناع البري بين أصابعه ، ويستنشق منها رائحة الارض المشبعة بالرطوبة . وكان يتقرب بقدميه مسير الندى من خلال أنشودة نغله المخضلة . وكانت الشمس تسطر سلطانها على الريف . لقد أنجز أهل البيت بسرعة حل العمل الذي كان عليهم أن ينجزوه في ذلك الصباح ، فقالت زهور لنفسها : « لعل خير ما فعله الآن هو أن أنزل الى الجارات اسلم عليهن » وكانت تفكر في ذلك ، ولكن قره ، زوج ماما ، وصل من الحقل في هذه اللحظة الى البيت . وبسرعة ودت زهور ان تنواري ، ولكنها أمسكت عن ذلك . انها لاتجرؤ الآن على أن تتحرك مادام قره في البيت وهي تشعر من جراء ذلك بنقمة لا تطاق فنهضت وقبلت يده حين مر بالقرب منها . كانت زهور تحس بخرج مضن حين يكون عليها ان تقترب من قره . وما هي ذي ماما على أنشغالها تبسادر الى أن تطلب اليها تقديم طعامه . هذا وقت تناوله فطور الصباح . انه يأتي الآن الى البيت ليأكل حتى اذا فرغ من طعامه عاد الى الحقل .

اتجهت الفتاة الى الغرفة المشتركة التي لم تكن في حقيقة الامر إلا مقصورة رفعوا امامها جدارا فاذا هي تبدو كأنها غرفة . كان قره جالسا هناك فوق مقعد صغير ، متكئا يظهره على صوان قديم مزين برسوم ازهار وأوراق . فدفعت زهور أمامه متضدة صغيرة مدورة وضعت عليها قرصا من فطير الشعير ، ووعاء مملوءا باللبن . ان قره على يرى في حقوله منذ مئيلج الفجر . انه يحب أن يعمل في الأرض حين يكون الليل لا يزال جائما فوقها .

وفيما كان قره يأكل ، جعلت الفتاة تتجول في الغرفة خلسة . انها تنظر الى وجه الرجل في بعض اللحظات ، فتشعر بصدمة خفيفة . انها لم تسمح لنفسها يوما ان تنفوس فيه صراحة ، ومع ذلك كانت تحس احساسا واضحا ان وجهه الاشقر وملامحه الثقيلة المسطحة وفمه الشاحب ، تلاحقها في هذه اللحظة أنى تحركت . طوف عمر بين الحقول طويلا ، وأحروف « معشو » يجري وراءه .

ذهب الى نبع شجرة التين ، وقصف العصافير هنالك بالقلع ، ان
الرياح في ذلك المكان تسري من ورقة الى ورقة تشيل الثقل المتوج
المتلاطم الذي تحمله الاشجار . ليس يدري عمر كيف يتم هذا .
ولكنه كان يفاجئ اللحظة التي يحصل فيها : ان الرياح تدور عندئذ
في غير توقف ، فيتجمد عمر في مكانه متصفا .

وتذكر عمر دار سبيطار ، فتخيلها قاسية شديدة على عهده بها .
انها ترتفع حوله فجأة في هذه الحقول ، وتأخذ تبحث عنه بكل ما فيها
من أيد ممدودة . ان الارواح الحبيثة التي تسكن الدار الكبيرة تحاصره
من جميع الجهات ، وترسل الى قلبه نفثاتها المسمومة . دام ذلك لحظة
قصيرة . لحظة تراهي له كل شيء في أنفائها أسود قائما .

ثم غاب الحلم الثقيل في هواء الصباح العليل . آه . . يجب على
عمر ان يشبع نفسه من هذه الحقول وهذه السماء . .

انه يعرف الآن أين تبدأ الأشياء على وجه الدقة ، يعرف الآن أين
يقع ذلك الخط الذي بعده لا يجوع الانسان ، والذي قبله يشعر بحرقه
في دمه وبشدة لا تقارقه . ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه في آن
واحد أمواج المزارع ، وأوراق الشجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط
المراعي .

اشتد الحر في الظهيرة . وحين عاد عمر الى البيت كانت المراتان
تعدان المائدة : انهما لا تنتظران الآن غيره . ان عمر ، وقد امتلأت
حيويه بالحجارة واللوز الأخضر والحشائش وتناثرت على شمعوه أوراق
الاشجار ، كان يبدو أشبه بجنى صغير . ومضى عمر رأسا الى صحفة
على المائدة فنقر منها بضع زيتونات سوداء طرية تلتهم بزيتها .

فلما انقضى الظهر مضى يلقي رفاقه . لم يكن أحد من رفاقه
هؤلاء من سكان بني بوبلان الأعلى ، وانما كانوا جميعا من بني بوبلان
الآخر ، بني بوبلان العمال الزراعيين . انه يؤثر ان يتجول معهم في
تلك الاراضي التي تفوح منها رائحة دافئة ، يلاحقون الحيوانات التي
تخاف ، ويرمون الكلاب بالحجارة فتهدج الكلاب ولكنها تهيب القذائف
المتساقطة فتظل بعيدة . وكان يحلو للصبيان أن يسمعوا من مسافة
بعيدة شتائم هاشمي ، الراعي الذي يرعى ماعزه خلال الجبل ،
تلك العزلة المتوحشة التي تربي على منطقتهم لاسسى . ان الصبيان
لا يرونه ولكنه يستطيع من مكانه ذاك العالي ان يرقب كل شيء .

لكن صوته في هذه اللحظة ينبع من السماء .
ومضى الصبية يتجولون في مكان آخر . قطفوا توتنا من الاسيجة

الشائكة وأكلوه وهم يرتعشون في ظل الحفر : ان هذه الثمار البرية تتقاطر على اللسان عصارة حامزة حريفة . وكان البرقوق الابيض ، والاحمر ، والضارب الى لون البنفسج ، يتساقط في وفرة غزيرة تحمل على الزهد فيه ، فكانوا يحملون مؤونتهم منه في اوراق عريضة من اوراق شجر التين .

أما ثمار الكرز الرائعة التي كانت تنوء بحملها أغصان الاشجار في بساتين المستوطنين ذات الاسيجة ، فقد أثارت شهوة الصبيان ، وأغرتهم بها ، فاقترح بعضهم أن يتجاوزوا الاسيجة ، ولكن عمر اعترض على ذلك . قال انه لا يسرق ، ويريد ألا يسرق في يوم من الايام . وأكثر من ذلك أن هذه البساتين للاوربيين ، وهو يحب ان يستطيع النظر الى هؤلاء الاوربيين وجها لوجه ، لا يفض طرفه حين يراهم : لا شك أن الاوربيين يشتمون أن يعرفوا ان العرب لصوص يسرقون . كان عمر يحوص على أن يسلك سلوك الرجال وعلى أن يتكلم كما يتكلم الرجال .

وتدورت أعين الصبيان حين سمعوا هذا الكلام ، ثم ابتعدوا وهم يدمدمون .

ابتعدوا يشنون بعضهم على ظهور بعض ، وثبة بعد وثبة ، لاعين لعبة « سميت سموت » . ولكنهم انقطعوا عن اللعب انقطاعا تاما على حين غرة : ان لقلاقا يسير في أحد الحقول باحثا عن ديدان أو ضفادع ، فما لبثوا أن انفجروا يصوتون جميعا في آن واحد قائلين :

بيقق شق شق شق شق

في البيار هيا تلعب ،

يا طاحونة ،

قمحا وشعيرا أعطيك .

يا نحلة يا قيثارة !

كان لعمر بين هذا الجمع صديق في مثل سنه اسمه سعيد . انه صبي اسمر صاحب عبقريّة مدهشة في تسلق الاشجار . فما من غصن من الاغصان مهما يكن نحيلًا الا ويبلغه في وثبة . انه يشب وثبته في مثل لمح البصر كالقروء ، وأصحابه من حوله قد تدورت أعينهم من فرط الدهشة . وما هي الا لحظة حتى يغيب بين الاوراق ، فما يسمع بعد ذلك الا زئير ضحكه . ثم يرى قفاه يتأرجح في أعلى الشجرة في المكان الذي تنفرع فيه الاغصان . انه يرقص في الهواء . ثم اذا هو في اللحظة التالية بهبط الى الارض .

كان عمر وسعيد على وفاق في مشربيهما . فما أكثر ما رآهما
الناس يظهران في بنى بوبلان الهادئة صاحبين لا يستقران على حال .
وحجرة الطين التي يسكنها أهل سعيد تقسّع في أول الممر الذي
يؤدى الى قرية الفلاحين ، فكانت خضرة ، أم سعيد ، تجلس امام باب
هذا الكوخ ، وبين سباقيهما المتباعدتين طاحونة ما تنفك تدبرها . ان
عمر لا يستطيع ان يتخيل هذه الام الا عاملة في تدوير هذه الرحى
الثقيلة بهذه الطواعية في جسمها . كانت الام تظل طوال النهار تطحن
شعيرا ، أو ذرة أو فلقلا أحمر جافا .

فحين وصلا اليها في أصيل ذلك اليوم ، كانت ممسكة بالقبضة
الخشبية المغروزة في الرحى ، تدبرها تارة بهذه اليد وتارة بتلك .
فوثب سعيد على كتفيها ، فأنحنت الى أمام ، دون أن تنقطع عن ادارة
الرحى . وشد الصبي عنق أمه بذراعيه ، فلم تكف عن العمل وظل
جسمها يتحرك مع يدها .

أخذ عمر ينظر في عينيها الغائرتين ، وقسماتها النحيلة . كانت
الرحى تطحن قوى هذه المرأة كما تطحن الحبوب التي تدس فيها .
ولكن خضرة ، وهى تتأرجح تأرجحها ذاك ، لم تنس ان تدندن لابنها
أغنية من أغنياتها ، بصوت مختنق ، بينما هو متشبث بظهرها كأنه
لا يزال رضيعا .

في حديقتي
بذرت بذور اليانسون ،
فاستهوى العصفير شذاها ،
فجاءت الى حديقتي .
هشيت على العصفير أطردھا
العصفير الحمر الحزينة
لن تهاجم بعد اليوم طفلى

وخارت قواها أخيرا ، فاستلقت على الأرض ، فشعر عمر ، حين
أراحت عظامها على هذا النحو ، شعر بحزن رهيب يملأ جوانب
نفسه . خيل الى عمر ، حين رأى هذه المرأة التي يشيع في وجهها
الأسى ، والتي تستلقى على الأرض مستسلمة هذا الاستسلام الكامل ،
خيال اليه أنه يرى ميتة .

كانت نار قريبة بيضاء تضيء الفضاء ، وكانت الحقول تتقبض
ووثب حصان ضخم نحو السماء وجعل يصهل . وصممت الأرض
القديمة . وانطلقت النار البيضاء .

الجداجد وحدها ما ثنى تثقب النهار بمثاقبها .
- هل رأيته ، الحصان الذى اجتاز السماء ؟

- لا يا كومنندار . ما من حصان يمكن أن يطير . أنت تعلم .
الشعل التى تتساقط من السماء ذهبت بليك ، فثروات لك أشياء .
- أنت لم تر شيئا . لذلك تقول هذا الكلام .

تمدد عمر فى الظل الممزق الذى تلقىه شجرة من أشجار الزيتون .
لماذا لم ير شيئا ؟

قص عليه كومنندار ما رآه الفلاحون ذات ليلة ، قال :

« كان قمر الصيف يزيد فوق الوهاد السوداء المنفجرة بين الجبال .
لم يعد الوقت ليلا . وكان الجو والأرض يتألقان ، وكان فى وسع المرء
أن يستبين كل حزمة من عشب ، وكل مدرة من تراب . وكان الجو
والأرض والليل تتنفس لهاثا غير ملحوظ . وفجأة ترجعت فى الأرجاء
أصوات خوافر تفرع الأرض . انتصب الفلاحون جميعا على أقيمتهم .
أزداد اقتراب وقع الخوافر . انه كالرعد يتدحرج من أقصى المقاطعة
الى أقصاها . لم تأخذ أحدا من الفلاحين سنة من النوم بعد ذلك .
استقر بعضهم أمام آكواخهم . فرأوا تحت أسوار المنصورة ،
حصانا أبيض بلا سرج ولا لجام ولا فارس ولا عدة ، يهتز عرقه بعدو
جنونى . . حصان بلا لجام ولا سرج ، بهرهم بياضه . وغار الحصان
العجيب فى الظلام .

« وما كادت تنقضى دقائق معدودات ، حتى دوى عدوه من جديد
يطرق الليل ، عاد الحصان يظهر تحت أسوار المنصورة » وعاد
التطواف بالمدينة القديمة المندثرة . كانت الأبراج الإسلامية التى
قاومت الفناء تلقى ظلالها الكثيفة فى الضوء المعتم .

« ودار الحصان بالمدينة القديمة مرة ثالثة . حتى اذا مر بالفلاحين
أحسوا زعوسهم جميعا ، وامتلات قلوبهم اضطرابا وحلقة لكنهم لم

يرتجفوا هلعاً . ففكروا فى النساء والاطفال . قالوا لانفسهم :
 « عدوا فى الليل يا حصان الشعب ، عدوا الى الشمس والى القمر ،
 فى ساعة النجس ونذير الشؤم » .
 كان عمر راقدا على العشب الحار ، فأخذته سنة . فلما رآه
 كومنندار غارقا فى نوم عميق ، صمت عن الكلام .
 ودمدم يردد لنفسه وحدها تلك الفكرة التى تلح عليه : « ومنذ
 ذلك الحين ، أصبح الذين يلتمسون لانفسهم مخرجا ، الذين يبحثون
 عن أرضهم مترددين ، الذين يريدون ان يتحرروا وان يحرروا
 أرضهم ، أصبحوا يستيقظون كل ليلة ويمدون آذانهم منصتين .
 ان جنون الحرية قد صعد الى رؤوسهم . من ذا يحررك يا جزائر ؟
 ان شعبك يمشى فى الطرقات يبحث عنك » .
 جرى الحروف « معشو » هنا وهناك ، فمن هنا عشبة ومن هناك
 زهرة . ثم اتجه نحو الصبى ، وأخذ يطوف عليه بمنخرية الاسوددين
 الرطبيين ، ثم قعد . ان رائحة دسمة قائمة تنتشر من الحروف غطاء
 ثقيل على المكان الذى قبع فيه الصبى والحيوان . وازداد الحر كثافة .
 واستيقظ عمر . فاليك ما قاله له كومنندار عن قرية بنى بوبلان
 وسكانها :

« قد لا تكون « بنى بوبلان » مكانا رائعا . ان سكان المدن لا يعرفون
 عنها شيئا ، رغم ما اشتهروا به من أنهم علماء بكل شيء . والحق
 ان علمهم ببنى بوبلان أقل من علمهم بما عداها ايضا . فى اقصى
 الشمال ، وفى أدنى الشرق ، وفى أى مكان من العالم لا يعرف الناس
 عن بنى بوبلان كبير شيء . من الذى يتكلم عن بنى بوبلان ؟ لا أحد .
 ذلك أن من يريد ان يتكلم عنها ، ينبغي له أن يعرفها . وكلما عرفها
 كلما تأملها ، لاح له أنها مكان يحلو العيش فيه ، ولا أقول انها مكان
 رائع . ان الانسان يتنسم هنا هواء الجبال . واذا شعرت هنا بالوحدة
 فهى وحدة غير التى تستولى عليك حين تعيش فى مدينة كبرى .

« هى وحدة أخرى . . وحدة الطرق المحصنة الغبراء التى تملأ
 البلاد . حقول الكرم ، التى تحف بها الاسيجة ، تمتد امامك ههنا
 على مدى البصر . ومن مسافة الى مسافة ، يظهر كوخ بائس من اكواح
 الفلاحين . هذه الاكواح كلها متشابهة . يلوح لك فيها شيء من الحزن
 يلاحقك بغير انقطاع . ان الفلاحين لا يتركون بنى بوبلان أبدا . واذا
 تركوها لم يصلحوا بعدها لشيء . فى اصواتهم حنين رائع ، وحنينهم
 تزخر بالحرارة . ولكن الاستعمار يجرح : عيونه خائفة لا سنبيل الى

خلاصها من هذا الخوف ، وعيون الرجال قاسية لا سبيل الى خلاصها من هذه القسوة . ذلك ان المستعمر المستوطن يرى أن عمل الفلاح من حقه تماما ، بل انه ليريد ان يكون الناس أنفسهم له . ولسكن الفلاح ، رغم انه ملكه اسما ، هو في حقيقة الامر سيد الارض الخصبة البهائم والمحاصيل والحياة في كل مكان ، من الجسابة . الارض امرأة . سر الاخصاب واحد ، في أخايد الارض وفي ارحام الامهات على السواء . والقوة التي تخرج من الارض ثمارا وسنايل هي بين يدي الفلاح .

« قوى مخيف هو . لا بد له يوما أن يحمى بالسلاح بيته وحقوقه . »

« أما النساء في بنى يوبلان فقد لوحتهن الشمس حتى صرن بلون العسل . انهن كالدعاب . ومع ذلك لا شيء من هذا يدوم لهن طويلا . ان اللعنة القديمة تلاحقهن . فما أسرع ما تصبح أجسامهن أجسام حمالين ، وما أسرع ما تتحفر أقدامهن التي تطفأ الارض ، فإذا هي ملأى بشقوق عميقة . جمالهن يذبل في مثل لمح البصر ، بطريقة أو بأخرى . ولا يبقى لهن من آثار الجمال الا صوتهن البطيء العذب الرخيم . غير ان جوعا رهيبا يسكن نظراتهن . »

« وفي بنى يوبلان يتفق للرجال ان يلتقوا جماعات صغيرة قرب القرية ، يتبادلون الأخبار بعد ان افتقدوا العمل بالمزارع . ان وجوههم تصبح صامئة خرساء . وهم في هذه اللحظات يخلون جميعا بالكلام ، ولا يديرون أنفسهم الا بجمليتين أو بثلاث :

« - نحن نعمل في الكروم . »

« - أنا أعمل في مزرعة ماركوس . »

« - لم يبق هنا عمل . . لم يبق عمل . »

« يمكن الذهاب الى منطقة أخرى . »

« - من يدري . . ربما كانت البطالة سائدة هناك أيضا . »

« وهم يتجولون في دروب الريف التي تعمي الاعين ، يتجولون في بغاء ، وأذرعهم تتواهب . انهم يتبادلون التحية في مودة . هذا واحد يصبح :

« كيف حالك يا قدور ؟ لا شك أن هذا الحر شديد عليك . »

فيجيب الرجل المدعو باسم قدور ، يجيب وهو يهز رأسه :

« الحر خائف والبطن خاو ، هذه حالى . »

قدورى في الفضاء ضحكة غير مألوفة :

« والله صحيح . . حلوة هذه . »

« ويضحك الرجل مرة أخرى بصوت أخف » . لم تعد أعينهم قادرة على أن تتلاقى . . .

« وتمضى أيام . فتأتيهم الأنباء في ذات صباح قائلة ان اثنين منهم أو ثلاثة أو أربعة معا ، قد قتل بعضهم بعضا بالمطارق ، عند حافة طريق أو حول عين . ليس هذا بالغريب . هواء الجبل خفيف ودم الرجال حار . وتظل أعينهم مجنونة أياما برمتها . فكذلك تجرى الأمور .

« ولست ترى على الجملة إلا أناسا خضعوا متواضعين ، لا ينزل أحد منهم نفسه في غير منزلتها . ان تلمسان لا تنجب الآن الا تجارا . فما هو موقف هؤلاء التجار ؟ انهم لا ينفكون يباهون بعظمة ماضية . ولكن ما هم الآن ؟ ان الفلاح يسعى الى شيء أقرب الى الجدة والرصانة ليس يجدى المرء في شيء أن يعرض على الناس مطامعه ودعاواه .

« اسمع مثلاً ما تستطيع الحائلة خدوجة أن ترويه لك عن الماضي ، بل اسمع ما ترويه الجدة أم الخير . ان حياة الجدة أم الخير يرجع عندها الى تلك الايام المتوحشة ، أيام الحرية ، التي سبقت مجيء الفرنسيين . ان أم الخير عليمة بما كان عليه ماضيها . فاذا تكلمت امتلأ الهواء بأطيايف لا ترى وبأصوات . فأنت يا من تسمع كلامها ، اعلم أن هذه الاصوات الاليفة هي أصوات ناس من عصر آخر .

ان ما تسره اقوال أم الخير : التي تتردد في الليل الواسع الهادئ ، انما هو ماضي الفلاحين ، ولكنه أيضا ماضي الجزائر الذي كان ماضيك . « ستقول لك أم الخير ان جدّها كان محارباً عظيماً ، فارساً كبيراً ، حكيماً أحكم من سائر الحكماء ، يعاود بعدله وخبره وبسالته خاصة على سائر رجال القبيلة . . غير أن هذا كله ليس شيئاً ذا بال . لقد كان جدّها أكثر من ذلك : كان انساناً ملكاً .

« ذلك عن ماضي الفلاحين . غير ان الفلاحين لن يدعوا أنهم كانت لهم في الماضي قيمة كبيرة . ان الفلاحين اناس صغار بسطاء . ذلك عن الماضي . . ولكن لنعد الى الحاضر .

هل « بنى بوبلان » أفضل ، لأنها من الريف ، ان المرء لا يدرك أحياناً ان انتماءه الى المدينة خير من انتمائه الى الريف . والحق ان انعزال الانسان في ريفه انعزال تاماً أمر لا قيمة له البتة . ولكن الاسراف في الانحياز بين جدران مدينة من المدن ، ليس خيراً من ذلك فانما المهم ان يعرف المرء ماذا يريد . فاذا وجد في الريف وفي المدينة على السواء ، رجال ينهضون ليشقوا الطريق الى حياة جديدة ، لم

يكن ثمة فرق بين المدينة والريف . ما ينبغي لاهل الريف أن يحترقوا
وأن يجفوا على الاراضي ، وما ينبغي لاهل المدن ، سجناء الجدران ، أن
يتفسخوا في ميعة العمر .

« قد تكون « بنى بوبلان » أفضل ، ولكن أهلها لا يعرفون اليقين . لم
يشعلوا النار في العالم بعد ، وليس في نيتهم أن يفعلوا . ولكنهم بدأوا
يتكلمون عن وطأة المظالم ، وبدأوا يفهمون أن الأجور التي يدفعها لهم
المستوطنون هي البؤس عينه . أنهم يتحدثون عن هذا في جميع
المناسبات ، أثناء العمل وفي استراحة الظهر ، حين يلتقون في الطرق ،
وحين يعودون الى بيوتهم وصفارهم عند المساء ، في السوق يوم
الاثنين ، وفي الايام الطويلة التي يقضونها بلا عمل مكرهين . والسخط
يكبر شيئا بعد شيء . الريف كله يعيش في جور لا يبشر بهدوء . ومن
الناس من يحلف بأغلظ الأيمان أن السجن خير من هذه الحياة .

« تم ان بنى بوبلان ليست بالشئ الذي تسر رؤيته الناظرين .
انك لا ترى هنا الا أكواخا وخصاصا ، وعددا قليلا من بيوت الحجر
يسكنها المزارعون ولا تكاد تختلف عن مساكن الفلاحين . ان الناس
لا يحرصون أن يتكلموا عن ماضيهم . في هذا المكان كانت تقوم في
الماضي مدينة « المنصورة » التي لا تزال ترى جدران سورها ، ولا
تزال ترى برجها الغربى . صحيح ان تلمسان مدينة قديمة :
فالبيوت فيها هرمة يرجع عهدها الى مئات السنين . ولكن الناس
ايضا همومون في تلمسان . الوجوه في بنى بوبلان بسيطة كل البساطة
مألوفة كل اللفة . الفلاحون يمشون الى اعمالهم دون أن يطلب منهم
ذلك . فلهذا خلقوا . وهم في أذواقهم وميولهم اغفاء قانعون معتدلون .
ولكن حذار ان تسألهم ان يحنوا ظهورهم صاغرين . ان سكان بنى
بوبلان اناس حلیمون بسطاء بطيئوا الكلام ، ولكن كل كلمة في افواههم
موزونة . والعمل عندنا دائم ، والفراغ قليل . ان بنى بوبلان منطقة
عادية ليس فيها ما يلفت النظر . قبضة من الناس لا يمتازون بشئ
خارق غير مألوف ، ولكنى أستطيع أن أقول على وجه التقريب أن
كل ما يصنع الجزائر قائم فيهم » .

كل شيء قد بدأ بذلك الاضراب الذي قام به العمال الزراعيون في شهر شباط الماضي . كان المزارعون في بني بوبلان الأعلى يشاهدون الاحداث التي تقوم في السهل كأنها لا تتصل بهم ولا تعنيهم . انهم مادئون صامتون لا يقولون شيئاً . ألوف الهكتارات من الأرض كانت تصبح ملكاً للمستوطن واحد من الفرنسيين . وهؤلاء المستوطنون جميعاً سواء : لقد وصلوا الى هذه البلاد بأخذية مثقبة نعالها . ان الناس هناك لا يزالون يذكرون الحالة التي كانوا عليها حين توافدوا الى هذه البلاد . وهاهم أولاء الان يملكون مساحات من الأرض لا تعد ولا تحصى . وسكان بني بوبلان في اثناء ذلك تقطر اجسامهم عرقاً ودما من أجل ان يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض ، جبلاً بعد جبل . فهذا يملك حماراً أو حمارين ، وربما ملك بطلاً ، وهذا يملك بقرة أو بقرتين . ورب مزارع من المزارعين مثل ، بن أيوب ، يضم اسطبله بقرتين كبيرتين من الأبقار النورمندية . ما من أحد من بني بوبلان الأعلى كان يتصور ان هذه الحياة سيطراً عليها تبدل .

ثم اذا بهذا العالم الصغير الراكن الساكن الهادئ يتحرك . لقد قام الفلاحون باضرابهم . ان البلاد تفيق ، تخرج عن ركودها ، فتسير في أول الأمر سيرا بطيئاً ، سير من صحا من نوم طويل ثقيل . انها تسير في طريق الحياة .

كان بن أيوب في بعض الايام ينظر طويلاً الى الأعماق البعيدة من السهل ، فيدرك الحقيقة واضحة : يدرك ان الثروة الحقيقية تتجمع في أيدي المستوطنين . اما هو فان أرضه لا تبدأ الا على الجنبات الوعرة من الجبل ، مثله في ذلك مثل سائر المزارعين في بني بوبلان . ولقد كانت الأرض تنتج ، ولكنها كالنساء الضاربات في الاعالي ، لا تدر الا قليلاً من اللبن . ان بني بوبلان وحقولها المعلقة فوق مجارى السيول وحقولها الوعرة المتصقة بالصخر ، تقع على عتبة الاراضي البور .

والمزارعون في بني بوبلان لا يكسبون شيئاً من اوراق النقد التي يصدرها « مصرف الجزائر » ، لا ولا يجمعون ذهباً أو فضة . انهم يقيمون أودهم لا اكثر من ذلك ولا اقل . لم يدخروا قرشاً في يوم من

الأيام ، وعليهم أن يعملوا عملا قاسيا مجهدا .
أما من أجل دفع الضرائب ، فلا بد لأحدهم من أن يبيع حلى
زوجته ، وأن يضيف إليها ملابس الشخصيه ، وأن ينتزع من الفراش
صوفه ، وأن يكمل المبلغ بثمن ما في بيته من جلود الخراف . كانوا
يبيعون كل ما في وسعهم أن يبيعوه ، اللهم الا الأرض .
وإذا استطاع أحدهم الآن أن يجنى ما يسد الرمق ، أن يكسب
كسرة الخبز التي تقيم الأود ، فذلك كل ما يتمناه . وحتى في هذا
كانوا يقتصدون بعض الاقتصاد .

ولكن الأرض مع ذلك ليست عاقبة . أنهم هناك في الأعلى لا يضنون
بالجهد ولا يعرف الجوع . وإذا استطاع أحدهم أن يدخر بضعة
قروش ، فإنما هو يأخذها من طعامه ، يقطعها من معدته ، ولا بد من
هذا . . كذلك هم الآن ، فهل يجب أن يظلوا على هذه الحال مدى
الحياة ؟ أنهم منذ الآن في عسر وضيق ، لا يكاد يستطيع أحدهم أن
يحرك كوعه قليلا . أن الحياة التي على هذا المنوال لا تستحق أن
يحيها الإنسان . متى احترمت الأرض احترمتك . أعطها العمل ، وترده
لك أضعافا مضاعفة . أما كنز الذهب فأشبهه بشرك العريسة والقبض
على الظل . كيف تستطيع أن تضع خير جزء من دمك ، ومن قوتك
التي لم تكف عن العمل يومها ، ومن أحلامك المضئئة ، كيف تستطيع أن
تضع هذا في ركن مظلم وأن تدعه يتخمر هنالك ويفسد ؟ أنك لو
فعلت ذلك لتأطخت نفسك ببقعة لا تسمى باسم ، ولا تبرا ولا تشفى
كمرض من أمراض البلاد الحارة . انظر أمامك كيف يسيل الثراء
الذي لا ينضب له معين ، على هذه الأراضي الشاسعة الخضراء . .
صحيح أن الأرض وما عليها من نبات وحيوان ، الأرض الواسعة
الرحبة ، هي ملك الله يعطيه من يشاء من عباده . ولكن الذي يملك
قطعة صغيرة من أرض يكون قد حظى برضا الله ، فملك اليسر ورغد
العيش والحرية . هناك إنما يجد الاستقلال الحق .

بهذا كان مزارعو بني يوبلان الأعلى يحدثون أنفسهم ساعات طويلة ،
وهم يبدرون بدورهم أو يقضون الأشجار أو يعنون بالبهائم ، وحتى
في أثناء النوم . كانت هذه الفكرة تنبض فيهم نبض الدم في الشرايين ،
وكانت تغذي في نفوسهم رغبات بطيئة كثيفة ، وشهوات لا تخطر ببال .
أنهم يمضون من عمل إلى عمل ، وقد لازمهم هذا الحنين إلى الأرض
التي كانت تصبغ إليها نفوسهم ، وتصور أمام أبصارهم سرايا يرونها
كل يوم .

وفي هذا الوقت كان الفلاحون لا يزالون يتحدثون عن الاضراب الذي قام في شهر شباط ولم يدم مدة طويلة ، وانتهى الى نهاية محزنة . ان اثنين من ذويهم قد اعتقلا أيامئذ ولا يزالان في السجن دون محاكمة ولم تعتقل السلطات هذين الاثنين فحسب ، وانما اعتقلت كذلك رجالا آخرين من المراكز المجاورة .

ان معمر الهادي ، ذلك الرجل الوقور ، لا يزال في هذا اليوم ايضا يسدى نصائح الاعتدال والهدوء الى الفلاحين الذين تجمعوا عند حدود القرية وكانوا مثله لا يعملون . قال معمر الهادي :

— ينبغي للانسان الا يتحول بفكره عن العمل ، وعن الجهاد في سبيل المعيشة ، هذا الجهاد الذي يستنفد وحده كل ما يملك من قوى . يجب على الانسان الا يفكر في مصيره وفي غده ، يجب عليه ان ينسى مصيره وغده ، فكذلك قال الاوائل بحق . هذان رجلان متناقضان انتهىا الى السجن . لماذا ؟ لأنهما وضعوا في ذهنيهما آراء وافكارا . أراد سيد علي ان يعترض ، ولكنه تفكر في الأمر ، فاحجم . انه لا يريد ان يقحم نفسه في مشاجرة لا معنى لها . ثم انه يعرف عقم مثل هذه المناقشات .

ومع ذلك أجاب معمر بقوله :

— واذا لم يكن في بيتك كسرة من خبز ، فهل المطالبة بهذه الكسرة من الخبز اشتغال بالسياسة ايضا ؟ كسرة خبز ، ماهي ، ما كسرة الخبز بالشئ الكثير ، ومع ذلك فان هذا الذي ليس بالشئ الكثير هو عندنا كل شيء . اذا قلت الخبز ، فقد قلت الحياة . من أجل ذلك كان الخبز كل شيء عند اناس مثلنا .

كان الآخرون مصيخين بأسماعهم .

فقال معمر :

— اذا كان هدفك ان تعيش فحسب ، فاخفض رأسك واعمل . هذه هي الوسيلة التي لا وسيلة سواها .

وهنا صاح علي بن رباح قائلاً له :

— عفوك . عفوك . . اعتقد ان علي أن أقول انني غير موافق على ما تقول . الناس في هذه البلاد طينة كريمة . قلوبهم لا تزال سليمة لم تشبها شائبة . كل ما كابدنا من يؤس ومن شقاء لم يفسدنا . اننا لم نخفض رؤوسنا في يوم من الأيام ، فلن نخفضها اليوم . كل رجل من هؤلاء الرجال الذين تراهم حولك هو الان أشبه بالبارود ، يكفي

أن تسقط عليه شرارة . .
قال بادعدوش العجوز :
- بارك الله فيك .

وتدخل سيد على قائلا :

- أنا نرى في هذه الأيام أمورا كثيرة خارقة . ولكن هذه الأمور ليست بالأمور التي يستحيل فهمها . أنها مرتبطة أتم الارتباط بالمظالم القديمة والجديدة التي تقع على الفلاحين .

قال هذا الكلام وهو يحدق الى معمر ، مع اتجاهه بالحديث الى الآخرين .

ثم صاح يقول :

- أن لكم عيونا نرى ، فانظروا حولكم . انكم مازلتُم شبيبا .
ولسوف تعلمكم الحياة أمورا كثيرة ، لسوف تدلكم على ما تغير في هذه البلاد .

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت بادعدوش ، وقال في همهمة كأنها هدير حجارة تتلاطم :

- أن أمورا غريبة تحدث لدى الفلاحين . أن تبدلات تطرا ، نحن القدامى نتذكر عهدا كان يستحيل فيه حتى أن نقصور أن شيئا من الأشياء يمكن أن يتغير . حين ينخفض بصر الشيخ العجوز ، فإن دماغه يزداد نشاطا ، فيظهره على كل شيء .
قال عزوز على :

- ولكن إذا ظل صرح المظالم قائما في مكانه ، فما من شيء يكون قد تغير .

فقال بادعدوش الشيخ الذي بدا أنه لم يسمع كلام عزوز على ، قال متهندا :

٥٢ - . . ليت واحدا فقط يعرف كيف يقص على الناس قصة الحياة الحزينة الشقية التي يعيشها الفلاحون . إلا ما أكثر ما يستطيع عندئذ أن يقوله . وليته بعد أن ينتهي من الكلام عن الفلاحين المساكين ، يتحدث عن حياة الأبهة التي يعيشها المستوطنون الفرنسيون ، ليسرى عن مستمعيه ويروح عنهم .

بالقرية جسر صغير كانت جماعة الرجال واقفة تحت افريزه . وكان عدد من النساء لا يزال الى هذه الساعة قرب العين ، ذلك ان الماء الساقط من العين في الشتاء والصيف معا خيط نحيل ، فالفلاحات يتلبثن بالمكان هنالك وقتا لا نهاية له . فيشرثن ويلقين

على الرجال نظرات سريعة مختلصة .
وهذا بعضهن عائد من العين . ان اجسامهن صلبة خشنة . انهن
يرتدين ثيابا من القطن . والمنديل الملون العريض الذى يحيط
برؤوسهن يحجب عن الناظر فروعهن . انهن يتقدمن بخطا بطيئة .
ان القادوس الملائن الذى تشده كل واحدة منهن الى كتفها بحبل ،
يقصم ظهرها . انهن يخطرن واحدة بعد اخرى ، على صف واحد ،
فى بطاء وصمت ، ثم يفبن فى الطريق الوعر المؤدى الى القرية . الا
ان احدهن انفصلت عن رفيقتها ، وتقدمت بضع خطوات نحو
الرجال ، ثم وقفت على مسافة منهم دون ان تنبس بكلمة واحدة .
- ما من اخبار جديدة يا زهرة . عودى الى البيت .
- اعود الى البيت ؟

وكان واضحا ان الرجل اراد ان يقول لها شيئا آخر . وانتظرت
المرأة . غير ان سيد على اشار بيده ، ولم يزد على ما قال كلمة
واحدة . فابتعدت المرأة ، وادركت رفيقتها التى كانت ننتظرها على
بعد ، واتجهت المراتان كلتاهما نحو القرية بتلك الخطا الهادئة
نفسها .

قال احد الفلاحين :

- هنا ، فى هذا المكان نفسه ، اعتقل زوجها .

وقال جاره :

- شهدت ذلك انا ايضا .

وقال بادعدوش فى همهمة بحاء :

- ما كان ابشعه من مشهد !

وسأل عيساني عيسى :

- ما الذى تفعله الآن ؟ اريد ان اقول : كيف تعيش ؟

ان عيساني عيسى لا يسكن بنى بوبلان . وانما هو عامل مستقر
فى مزرعة ماركوس ، فهو لا يعرف كيف كانت تسير الامور فى القرية .
فقال بن سالم عادة :

- انها لا تملك الا عينين تكيان . كان زوجها يعمل ، فيكسبه
ما يكفل حياة الاسرة . . اما الآن ، بعد غياب زوجها ، فان . . فان
الناس تساعدوا ، هى وصالحة . . ان لكل منهما اطفالا ، ثلاثة او
اربعة . ولكنهما تعرفان كيف تصبران على المحنة .
وعاد فلاح يقول :

- كان هنالك كثير من الناس فى ذلك اليوم .

فأجاب جاره :

— وكان سكان بنى بوبلان يرون ما يجرى .

فقال الأول :

— جميع من حضروا شهدوا الأمر

فأجاب الثانى :

— رأينا كيف عذبوهما .

— لم يكن اعتقالا عاديا كاعتقال اللصوص أو القتلة .

الواقع أنه لم يكن اعتقالا عاديا . كانت النساء عائدات من العين بعد أن ملأن منها . وكان الرجال ذاهبين يسقون البهائم . وكان العمال يضعون أكواما من السماد على صفوف الدوالي فى كرم مسبو فيار . وفجأة رأوا ذينك الفلاحين بين جنود الدرك ، يسرون بهما فى الطريق نحو المدينة .

تلقت النساء والرجال ليروا الجمع . قال عامل يسمى أحمد بن سماحة :

— غيبتهما طويلة .

وعاد الى عمله . انه بعد ان قال كلامه ذلك لا يريد ان ينتظر الى

السجينين . .

وقدر جميع العمال الزراعيين ما قدره أحمد بن سماحة من أن هذين الفلاحين اللذين يسيران فى الطريق المضيرة ، سيفيان غيبة طويلة .

وقد تجرأ أحد الناس فوجه كلمة الى السجينين من بعيد ، على سبيل التحية . ولكن الناس كانوا يقدرون ان السلطات أصبحت فى هذه الأيام الأخيرة لا تنتظر منهم الا اشارة واحدة حتى تقبض عليهم . كان هذا واضحا كل الوضوح . كان يقرر الإبصار . ان السلطات والشرطة والمستوطنين الفرنسيين لا يتمنون أكثر من أن يرفع أحد هؤلاء الفلاحين اصبعه بحركة يسيرة . . آ . . انهم لا يتمنون أكثر من هذا . أدرك الفلاحون ذلك وفهموه .

وظلوا هادئين لا يحركون ساكنا . ما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهم شيئا . ان الآخرين هم الذين يبحثون عنهم ، ويتحرشون بهم . كان الفلاحون يقولون بينهم وبين انفسهم : « لم نقل شيئا . هذه أفواهنا . ها نحن أولاء نضع أيدينا على أفواهنا فما تخرج منها كلمة واحدة . هذه أيدينا . هذه أيدينا مبسوطة . ليس فيها شيء . ايد مسالمة . اتنا لا نطلب الا أجورا أعدل . هل من الشر ان يطالب الانسان بما يسد رمقه ، لا أكثر ؟ هل من الشر ان يطالب الانسان

لأطفاله بطعام يقيم أودهم فحسب ؟ هل ذئبنا أن أطفالنا يسكنون كثيرا ؟ هل هذا ذئبنا ونحن نضع قوتنا تحت تصرف من يشاء ؟ أين الشر اذن ؟ من الذي يريد الشر ؟ من الذي يسعى الى الشر ؟ من الذي كان اول من أراد الشر ؟ هذه أفواهنا . انا نضع عليها أيدينا » وكان الفلاحون يعرفون ماذا يرون من رأى في هذه الاعتقالات ، وما الذي ينبغي لهم أن يفعلوه في مثل هذه الاحوال ؟ انهم لم يتحدثوا عن ذلك الى هذا اليوم ، ولكنهم يعرفونه كأنهم قد اجتمعوا قبل ذلك منذ مدة طويلة ، فانتبهوا اليه : وهو أن يكونوا يدا بيد . كلمة واحدة : الاتحاد .

لقد رأوا السجينين يذهبان ، فلم ينطقوا بحرف . ظلوا هادئين لا يحركون ساكنا ، وكانوا جميعا يعرفون — دون أن يقول أحد لأحد شيئا — ما الذي ينبغي لهم أن يفعلوه . بضع ثوان كانت كافية : لفتوا الدرس وحفظوه في الصدور .

والسجينان لم يردا كذلك تحية الذي حياهما في صداقة . يجب أن نفهم ماذا يعنى أن يكون المرء سجيناً . لو كنا في مكائيهما لما فعلنا غير ذلك . أن يسير المرء مكبل اليدين ب قيد ، فذلك أمر لا يقع كل يوم لشرفاء الناس . لم يردا التحية . هذا أمر يقع لهما أول مرة . انهما لا يعرفان كيف يفكران ولا ماذا يفعلان . لا يمكن أن تقول انهما كانا يشعران بالخجل والعار ، ولا انهما يفضان الطرف حياء . وانما كانت بهما دهشة كبيرة . لاحظ ان السلطات شديدة السخط اذا سخطت ، انها أشد سخطا من كل ما يمكن أن يخطر لك ببال . لا يعرف المرء ماذا يمكن أن تفعل اذا هي تار حنقها . لذلك كان الافضل ألا يردا التحية ، ولو استاء هؤلاء الاصدقاء . كان يكفي أن يتبادل رجلان كلمة مودة وصداقة حتى تهتاج السلطات سريعة التأذي .

كان السجينان يفهمان ذلك ، فذهبا دون أن يردا التحية . على انهما كانا يحسان أثناء مرورهما بما يشعر به الناس نحوهما من حب وعطف . ان الفلاحين الذين لم يتحركوا كانوا يشعرون نحوهما بشعور الصداقة ، حتى لقد بدأوا يشدون على أسنانهم من الغضب . ليس على السجينين أن يظننا فيهم الجبن ، فلو ظننا ذلك لالحقا بهم أهانة فظيعة ، أهانة لا تمحي مدى الحياة .

أما رجال الدرك فكانوا يسرون دون أن يلقوا نظرة واحدة على يمينهم أو شمالهم . كانوا يظنون أنهم يقودون رجلين الى مكان هم

السادة فيه . (ولكنهم في الواقع على خطأ) . ان الحقول ، والقرية ،
والمدينة ، وحتى السجن ، ان كل ذلك سواء . ان هذين الرجلين
يظلان في بلدهما . انهما ينقلان من مكان الى آخر ، ولكنهما يظلان
في بلدهما . واضح ان رجال الدرك كانوا لا يفهمون هذه الحقيقة .
ذلك انهم ليسوا من هذا البلد .

ربما كان هذا هو السبب في انهم كانوا يحسون انهم مضطرون
الى ان يسيروا على هذا النحو . لم يكونوا مزهوين . اليسوا هم
اصحاب القوة ؟ ولكن يالها من قوة ؟

حين زج بالرجلين في السجن ، كانت السلطات تشبه في جميع
سكان بنى بوبلان . كانت السلطات تحس ، وهي على حق في ذلك ،
الاحساس ، ان هذين الرجلين لا يعملان ولا يعكران صفو الأمن العام
وحدهما .

قال سيد على :

— طويل صبرنا .

فقال بادعدوش أيضا :

— لسوف تريككم الحياة ما تبدل من امرنا . اكنا نجىء الى هذا
المكان نتحدث عن هذه الشئون كلها ، لولا ان شيئا قد تبدل ؟
قولوا ...

فقال معمر الهادي في غيظ وحدة ، وهو ينظر الى المعجوز بعينه
المفمضتين نصف اغماض من وهج الشمس :

— نحن اناس نجيد الكلام . نحن جميعا نجيد الكلام ، حتى
بادعدوش . ولكن .. يجب ان نكون على حذر ..
قال بن سالم عادة :

— طفق الكيل ، لذلك نحن نقول هذا الكلام . كلام كل واحد منا
يخرج من اعماق قلبه ، ويعبر عن اصدق ما بنفسه .
قال معمر :

— نحن لا نعرف ما نقول . كلامنا لا يعبر عن اصدق ما بانفسنا ..
وانما نحن نتكلم ، ونتكلم . نحس ان الكلام يريحنا ، او نظن ذلك ..
قال عزوز على :

— هو كلام وكفى . كلام برىء . اغفروا لنا هذا العيب . نحن
نود لو نعمل . اننا نرى الشر أيضا . مثلك . وربما أكثر . ذلك
اننا ، جميعا في المواقع الاولى ، نعرف كل ما تكابد من آلام . ولكننا
نحب ان نتكلم . اهي جريمة ان نتكلم ؟ هو كلام وكفى . كلام برىء .
سامحنا ..

ولكن ماذا نفعل نحن عن الخير والشر ، نحن الفلاحين ؟ نظن أننا نفعل شيئا ، وأن لنا قيمة . هه اننا نحب الخطب الجميلة ، نحب الكلام الجميل ، وخاصة حين نكون نحن الناطقين بهذه الخطب الجميلة وهذا الكلام الجميل . وهذا بعينه هو ما يفقدنا ضوابطنا ، ويطيش لبنا . مع أننا لم يكن لنا في يوم من الايام أية قيمة انتفض بادعدوش حين سمع هذه الكلمات ، وقطع حديث معمر بقوله :

— هذه هي العادة عندنا في القرى : نزع دائما انه ليس لنا قيمة ، وما نفتأ نردد ذلك : متى فرغ الفلاح من اعمال الحقول ، قعد ولم يفعل بعد ذلك شيئا ، الى ان يأتي الموسم الجديد . هذا ما نقوله دائما عن أنفسنا . ونقول ايضا ان الذنب في هذا هو ذنبنا ، فنحن نكره العمل .

قال بادعدوش ذلك ثم التفت نحو الآخرين سائلا :
— اليس كذلك ؟

واذ لم يجبه أحد ، تابع كلامه :

— ما حياة الفلاح ؟ انه متى حل الشتاء ، اوى الى كوخه او الى مغارة مظلمة ، يرتجف من البرد هو وذووه . وأظن أن الامر هو كذلك في غير هذا المكان ، اظن انه كذلك حيثما يوجد فلاحون فقراء ، سواء في الشمال او في الجنوب ، في الشرق او في الغرب . ويقولون هذه قسمة الفلاح ، الا انكم لتهينون الحياة بهذا الكلام . يا أصحابي ، كفى اهانة للحياة .

وتنهى بادعدوش ثم صمت . انه يلقي على الناس حوله نظرات مهتاجة ، ولا يستطيع ان يكظم غيظه .

لم تبد على الفلاحين الآخرين رغبة في الكلام ، ذلك لانهم ليس في أذهانهم ما يقولونه ، أو لانهم كانوا يؤثرون الا يضيفوا الى ما قيل شيئا .

لاشك أن كل واحد من هؤلاء الرجال كان في حاجة الى التقدير . انهم يطلبون هذا التقدير من أنفسهم ، ولهم على ذويهم حق . كيف تريد من غريب ان يحترمك اذا كان أهلك لا يحترمونك ؟ وقطع بادعدوش الصمت وعاد يقول :

— ما أكثر ما يتجنون على هذا الفلاح . الفلاح تنبال كسلان . لكي يعمل يوما يجب أن يرتاح عشرة . متى كسب قوت ثلاثة أيام ترك العمل ، وراح يعيش كما يعيش الضب . الفلاح رائحته كريهة .

ما الفلاح الا بهيمة . الفلاح فظ غليظ . الفلاح كذا ، الفلاح كذا ..
والفلاح راض عن حاله ، راض بما قسم له . فان اردت ان تستبدل
بحيائه حياة أخرى نيرة سعيدة محترمة رفض ذلك . كذلك هو
الفلاح ، وكذلك سيظل . ثم ان كل ما يمكن ان تنفحه به من أمور
جميلة ، يتدهور بين يديه رأسا ويصير على صورته . انه لا يستطيع
العلو فوق هذا المستوى الذى يعيش فيه . ولكن المصيبة ان هؤلاء
الذين يقولون هذا الكلام لا يدعوننا أبدا نجرب تلك الحياة الجميلة .
ذلك انهم يعيشون على ظهورنا كالقمل . هذا هو السبب . ان كان
خبزنا أسود ، ان كانت حياتنا سوداء ، قالهم يرجع السبب في سواد
خبزنا وسواد حياتنا جميعا . ولكن هذا القمل في رأسه افكار
عظيمة . اظن انه في جميع البلاد على هذه الشاكلة . لابد انه يقول
في كل بلد فيه فلاحون يخصصون الارض : الفلاح راض بما قسم له .
أفحن أمة على حدة أم جنس على حدة ؟ . ألا ان هذا هو ما ينبغي
ان يعرف فاذا صح ان الفلاح راض عن حاله ، لم يكن علينا إلا ان
نسلم بذلك قائلين : تلك قسمة الفلاح ، سيظل طوال حياته يعيش
على هذه الارض نفسها ، تحف به هذه السماء نفسها ، وتحد نشاطه
هذه الجبال نفسها ، وتقوم اراضى المستوطن الفرنسى سورا من حوله
لا مخرج له منه ، يعانى الفقر ويستقبل بجسده الامطار ، ويتحمل
الحر الحرق ، ويكابد الوان القلق والخوف ، فكل ذلك قسمته ، كل
ذلك نصيبه الذى ورثه عن آبائه ، ولا سبيل له الى الخلاص منه
بالعمل الشريف ولو استمات فيه . وهكذا تصبح المظالم الطبيعية
كالمر والهواء والشمس ، سواء بسواء .

قال بادعدوش ذلك ، وقد أصبح صوته في آخر كلامه يقرقع قرعة
قائمة .

واستقبلت اقواله بصمت عام شامل . ولكن ماذا هناك ؟ ها ...
انه معمر الهادى .
قال معمر الهادى مدمدا :
— قد يترأى لكم اننى سمحت لنفسى بان أسبى القول فيكم .
ولكن ليس هذا ما اردت . لا ، ليس هذا ما اردت . عفوكم ..
قال ذلك دون ان يزيد عليه شيئا ، ومضى . لقد أحسن صنعنا .
ان له ان يذهب .



— انهم على الاقل يعرفون ماذا يريدون ؟

كذلك سال قره . ثم صمت . هذه عادته : يلقي اسئلة ، ثم يعتصم بالصبر . لم يجبه المزارعان الآخران .
ان الذين يملكون في أعلى بنى بويلان بضعة فدادين من الارض كانوا يتناقشون على هذا النحو . وقد جاء قره على الى جيرانه يحدثهم وفي نفسه نيات معينة .

— يقولون ان اجورهم ضئيلة . فلنسلم بهذا . أنا شخصيا ، كان يمكنني ان اوافقهم ، وكان يمكنني ان اعترف لهم بذلك لولا ...
وهنا توقف عن الكلام ، ومد عنقه ، وقرب وجهه من وجهي الرجلين حتى كاد يلامسهما ، وامعن النظر فيهما موسعا حدقتيه .
وأردف يقول ، وهما ساكنان لا يتحركان :

— ... لولا ان عدو الله هذا الذي يسمى حميد سراج يجر معه جميع فلاحينا . هذا هو الامر الخطير . لماذا تراهم متفقين جميعا ؟
لو كان كل ما يريدونه هو المطالبة بزيادة قليلة في الاجور لكان يمكن أن يكون ذلك حقا وعدلا ، ولما كان في ذلك شر كبير . ولكنهم يتجمعون ويعتصبون ، فذلك هو ما يجب ان نفكر فيه مليا ، ذلك هو الشيء الهام ، لا كونهم يطالبون بزيادة فرنك او فرنكين . وحميد سراج هو الذي القى في روعهم فكرة التجمع ، ولولاه مآدار في خطبهم هذا ، ولا خطر لهم على بال . لولاه ما اتحدوا هذا الاتحاد الذي نراه الآن .
ولكن ما الذي يؤمنونه ؟

قال بن ايوب :

— عفوا اذا قاطعتك ، فانما أريد أن أقول كلمة واحدة ، واحدة لا أكثر . اذا كان العمال يطلبون زيادة في الاجور ، أفلا يكون أمرا طبيعيا أن يتحدوا .

وقال بوشناق سائلا كذلك :

— فاي شر في هذا ؟

فقال قره :

— أي شر ؟ أي شر ؟

حقا أي شر في هذا ؟ اذا كان في هذا شر فابن هو الشر ؟ لماذا بعد ذلك شرا ؟ وماذا يعرف ، هو قره ، عن هذا الشر ؟ كيف يعرف ماهو شر وما ليس بشر ؟

ذلك ما جاد في خاطر الرجلين وهما صامتان .

— أي شر ؟ اتسألون : أي شر في هذا ؟

اذا كان يعرف الضرر من هذا ، فليقله . ولكن أتراد يعرفه ؟

أهو يعرفه ؟ إذا كان يعرفه فليتكلم .

لاشك أنه يرى شرا كثيرا حيثما اتجه ببصره . ولكن ماباله يظل صامتا كالأخرس لاينطق ؟ لقد كان يقلب في رأسه طائفة من الأفكار . وقال أخيرا :

— أي شر في هذا ؟ الشر فيه هو أنه قد لاترضى عنه السلطات .
ها ... السلطات ...

وظل الرجلان محتفظين بملامحهما الهادئة .

ان سؤالا يقوم في ذهن هذين الرجلين . وقد أوشكا أن يطرحاه عليه . ثم اكتشفا فجأة ان هذا السؤال لايطرح على قره ، بل يطرح عليهما . فقررا ألا يطرحاه ، كأنهما من ذلك على اتفاق سابق . وقال كل منهما بينه وبين نفسه :

ها ... إذن هي السلطات ؟

— والآن ماغساكما فاعلين إذا اضطررتما الى زيادة أجور عمالكما ؟

— نفعل ماقدّر عليه لمساعدتهم ، ما هو في وسعنا ، لا أكثر .

— فتزداد مطالبهم في المستقبل شططا ، ويكون الذنب في ذلك ذنبيكما . يكفي أن تزيد الأجور شعرة واحدة .

— ما تقوله لن يغير رأينا . وللمستوطنين الفرنسيين انما يجب

أن يقال هذا الكلام . أما نحن فلسنا نملك لا مئات ولا ألوف

الهكتارات من كروم العنب وحقول القمح . المستوطنون هم الذين يمكن

أن يهمهم هذا الأمر ، بل انه ليهمهم حتما . أما نحن ؟

— إذن أنتما مع الفلاحين ؟

— لسنا معهم

— ولستما ضدهم ؟

— ولسنا ضدهم في الحقيقة .

— فكأنكما إذن معهم .

— قلنا اننا لسنا معهم ، ولا نحن ضدهم .

قال أحد المزارعين يسأل :

— ماهي الاساءة التي نالونا بها ؟

ان بوشناق هو الذي سأل هذا السؤال . كان الدور دوره في

هذه المرة . وأضاف :

— يعملون عندنا يوما فيدفع لهم أجرهم . وإذا لم يعملوا لم

ندفع . لانهم لايسيئون إلينا البتة .

وتابع بن أيوب يقول :

— ولماذا ؟ اليسوا اخوتنا في حقيقة الامر . من ذا الذي يتعمى الشر لآخيه .. من حفر حفرة لآخيه وقع فيها .
قال قره :

— ولكن ماداموا يتحدون هذا الاتحاد ، فمعنى ذلك أنهم يبيتون امرا . لا أعرف ماذا يبيتون ، ولكننا لانستطيع أن نقول أنهم لا يبيتون شيئا . أنهم يريدون بنا شرا ، هذا كل ما أعرفه . أنهم يريدون وقوع مكروه ، وسيقع هذا المكروه أخيرا . ولو كان هذا المكروه واقعا على رعوسهم وحدهم ، لهان الامر ، غير أنه سيقع على أناس لاشان لهم بهم ، سيقع على رعوسنا نحن .
ونظر كل من مزارعى بولان الاعلى الى صاحبه .
فتشجع قره ، وتابع يقول :

— ماذا يريد هؤلاء الافراد ؟ أنهم ناقمون .. ناقمون على أحد ، بل ناقمون على الناس جميعا .. نعم ناقمون على الناس جميعا . أنهم جميعا جياع .. فهل ندعهم يفعلون ما يريدون على ما يشاء لهم هواهم ؟ لو تركناهم ، لاصبحنا في مأزق لانعرف كيف نخرج منه .

واحس قره بنشوة الظفر ، فأشرق وجهه ، وتابع يقول :
— نعم ، وليس هناك من سبيل الى حماية أنفسنا من هؤلاء الا أن يعتقلوا .. أو أن يعتقل بعضهم على الأقل ، أعنى اصحاب الرعوس الصلبة ، الذين يدفعونهم ، الذين يقودونهم ، أما الباقون فهم قطع يقاد وليس له رأى . خراف . وإنما المجرم الاكبر ، المجرم الرئيسى ، هو حميد سراج . ان حميد سراج هو الذى ألقى فى رعوسهم هذه الامور . أنهم أناس سذج أبرياء ، فلاحو بلادنا . لا يمكن أن يخطر الشر ببالهم من تلقاء أنفسهم . أنهم حملان يقودها حميد سراج الى المسلخ . هذه هى النتيجة التى سيصلون اليها .

ومرة أخرى نظر الرجلان أحدهما الى الآخر ، بو شناق وبين أيوب ، فابتسما ، فلاحظهما قره فابتسم هو أيضا ، ثم قال مؤكدا :
— أناس مثله يجب اعتقالهم . حقا .. رجال مثله ، اذا لم يعتقلوا قام جياع المدينة يضعون أيديهم فى أيدي جياع القرى ، فاتحدوا .
انى لأقول لكم ان هذا خطر علينا ، خطر كبير ، وما أراكم مدركين فداحة هذا الخطر . فمتى تستيقظون من نومكم ، متى تفيقون من أطمئنائكم ؟ انكم اذا لم تستيقظوا قبل قوات الاوان ، فستكون يقطتكم بعده اليمه موجهة . انا قره ، أقول لكم هذا .
قال ذلك وخذق اليهم . ثم أردف :

— ثقبوا أنهم لن يتورعوا عن شيء . لن يتورعوا عن السرقة ، وهذا واضح لا يحتاج الى دليل . لقد كانوا دائما لصوصا وسيظلون كذلك . تفو . . ولن يتورعوا عن استعمال المطرقة ، واستعمال غير المطرقة مما لا يعلمه الا الله . . . لاشك أنهم سيقتلون ، ولا شك أنهم سيرتكبون جرائم سياسية . بهذا صاح قره أخيرا .

وتبادل المزارعان النظرات مرة أخرى . لاحظ قره من ملامح وجهيهما أنهما مستعدان للاستماع اليه . فاستمر يتكلم . أصبح الآن لا يستطيع التوقف عن الكلام . اندفع يشرح مايعنيه بقوله : الجرائم السياسية . كان مزارعو بنى بوبلان الاعلى لا يعرفون لهذا التعبير أى معنى ، بل كانوا يجهلون وجوده أصلا . ففهموا من قره الآن أنه يعنى عدم احترام السلطة ، عدم اعتبارها .

ولاحظ قره تلك الابتسامة نفسها في وجه الرجلين كليهما . قال له أخيرا بن أيوب : — أنت ما الذى يهمك من هذا كله ؟ ماشائك وشأن السلطة حتى تقلق عليها هذا القلق كله ؟

وابتسم الرجلان ، وتبادلا النظرات . ولاحظ قره في أعينهما أنهما راضيعان ، وأنهما من شدة الرضا في انفعال . فعاد يردد اقواله بغير شراسة ، وفي حلقه غصة وانتحاب . أنه يتكلم الآن بصوت لا ينفك يزداد تملسا . ثم احتار وارثلك . كان الرجال الثلاثة واقفين لا يتحركون ، عند حافة حقل الطماطم الذى كان بن أيوب يرويه .

ان الماء ، الماء الذى من ذهب ، يسيل بين صفوف أشجار الزيتون بغير خرير . ومن مسافة الى مسافة ، ترى شجرة من أشجار الكرز فارشة أوراقها الخضراء الشاحبة ، أو سافرة عن خشبها الاملس اللماع . وهذه اصوات في مربعات الحقل تعكر الصمت من حين الى حين . انها اصوات صفادع تجذبها الرائحة التى تفوح من الماء الطرى . وكلما تقدم الماء ، ترامت الى الأذان اصوات جافة يابسة لا تدرى أهى طقطقة حطب يشتعل ، أم هى خشخشة عشب تدب عليه هامة من الهوام . انها اصوات الارض الظمأى تشرب الماء فى شراهة . غير أنك لا ترى الماء نفسه ، الماء الرائق الشفاف ، أنك لا ترى الا سمطا واسعة من رطوبة سوداء .

ومن عدة جهات ، من أعلى الاراضي المزروعة ، ومن منحدرات
السهل ، ومن الحقول الممتدة الى تحت ، كان المزارعون الآخرون
من سكان بنى بوبلان يرون هؤلاء الثلاثة وقد اجتمعوا يتحدثون .
كانوا يستطيعون ان يراقبوه من مسافة بعيدة دون ان يتحركوا
ودون ان يظهروا . قالوا يتحدثون انفسهم : بوشناق ، قره على ،
بن ايوب . . غريب انهم يتكلمون منذ ساعة على الاقل . فهل الامر
الذى يتكلمون فيه جد . هل يتسع وقتهم للحديث هذه المدة
الطويلة . وبين ايوب خاصة ، كيف يتسع وقته للكلام واليوم دوره
في السقاية . الآخرون ، طبعاً . . . عجيب على كل حال . الامر غير
مفهوم . وتوقف بابا عن حفر فدان الارض الذى كان يحفره بين
الصخور . ان دوره في السقاية يأتى بعد بن ايوب . قال يحدث
نفسه : ليتنى اعرف ماذا يدور هناك . لأذهبن اليهم .

وترك مكانه ، ومضى الى حيث الثلاثة يتحدثون .
- السلام عليكم يا رجال . كيف الحال ، ان شاء الله بخير ؟
أهى دردشة ؟

- وعليكم السلام ورحمة الله .
هكذا رد الرجال الثلاثة التحية معا وهم ينظرون الى القادم الجديد
واقترب منهم بابا .
ثم جاء دور عيسى .
- عافاكم الله .

- عافاك الله ويارك فى ابيك وأمك .
وقال بن ايوب لمن انضم اليهم اخيراً :
- أهلاً بالجار قدسى . انت لا تزال على قيد الحياة ؟ اننا لم
ترك منذ دهر . . .

- هى زوبعة الحياة تجرفنا وتدور معنا .
ووصل ايضا مزارعان آخريان . انهما الجاران بلقاسم نجار
ومحمد . لقد التأم شمل سكان بنى بوبلان الاعلى جميعاً .
مال بن ايوب فى هذه اللحظة على الارض ، وتناول قبضة من تراب
أحد الاخاديد ، ثم بسط راحة يده يرى الرجال الآخرين هذا التراب
الأسمر ، بسطها وطاف بها على ابصارهم بحركة دائرة من يده ،
وقال بصوت خافت ولهجة هادئة تفيض بالحنن :

- سيأتى وقت نحاسنا فيه أولادنا حساباً عسراً . سوف
يلعنونا . اننى لأنظر الى المستقبل فأرى احفادى قاضين حائقين

يصبون على أجدادهم اللعنات . اننى لاراهم يتقدمون الى : فماذا يقولون ؟ يارب يا قادر .

وبدا على الرجل الشيخ أن منظرا رهيبا قد تراءى له ، فهد نفسه هذا . عاد يقول بصوت أصم :

— اذا تركتم أرضكم ، فان أولادكم ، واحفادكم ، وأولاد احفادكم ، الى آخر جيل من أجيال ذرياتكم ، سوف يحاسبونكم حسابا عسيرا . اذا تركتم أرضكم فلن تكونوا جديرين بهم ، ولن تكونوا جديرين بهذه البلاد ، ولن تكونوا جديرين بالمستقبل .

قال ذلك أمام سائر مزارعى بنى بوبلان الأعلى مجتمعين .

— السننا كالأجانب في بلادنا ؟ والله اننى ، أيها الخيران ، لا أقول

الاما افكر فيه وأشعر به . كأننا نحن الأجانب ، وكأن الأجانب هم

أهل هذه البلاد . انهم بعد أن ملكوا كل شيء ، يريدون أن يملكونا

نحن أيضا دفعة واحدة . وانهم ، وقد اتخموا من ثروات أرضنا ،

يرون أن من واجبهم أن يحملوا لنا البفض والكراهية . صحيح انهم

يعرفون كيف يزرعون . لست امارى في هذا . ولكن ذلك لاينفى أن

هذه الاراضى اراضينا . لقد انتزعت منا سواء أكننا نفلحها بالمحراث

أم كنا لانفلحها البتة . وهم الآن بعد أن استولوا على هذه الاراضى ،

أراضينا ، يخنقوننا خنقا . الا تعتقدون أننا كمن أدخل الى سجن

وأمسك بخناقه ؟ أصبحنا لانستطيع أن نتنفس ، أيها الإخوة ،

لانستطيع أن نتنفس .

الا أن بن أيوب لرجل . انه رجل حقا . هو الآن شيخ هرم ،

ولكن ما من أحد هنا يستطيع أن ينكر انه كان طوال حياته رجلا ،

وانه لا يزال رجلا . انه رجل شهيم شجاع ، صريح اللسان ، صادق

القلب ، لا يداهن ولا يداجى . انه قاسى ، صلب . أن وجهه وجه

مقاتل قوى الشكيمة . لا شك أنه كان محاربا . أن شاربيه الطويلين

الابيضين يتهدلان على الجانبين تهدل جلد السوط . هذا مقاتل

أصبح فلاحا ، ولكنه اذا دعا الداعى يسترد كل ملامح المحارب ...

كل ملامح المحارب الفاقى تحت جلده .

لا يزال بن أيوب يعمل كثيرا . انه من أولئك الذين يضوون من

قرط مايدلون من جهد فى العمل . وما من أحد يستطيع أن يمنعه

من قول مايريد قوله . انه لا يستطيع أن يسكت عن الشر حين

يرى شرا .

وانك لتعرفه من بعيد فى أى وقت من الاوقات حين تنظر الى

الحقول ، فترى الحزام العريض الأحمر الذي يلفف به مزنرا اعلى سرواله ورفارف قفطانه الاشهب الضارب الى زرقة . انه لا يكاد يرتاح من العمل الا بضع دقائق من يوم الجمعة عند صلاة الظهر . ونظر بن أيوب الى جيرانه واحدا بعد آخر . انهم صامتون . ان عينيه لا تشتملان الآن على تلك الضحكة التي كانت تلتصع فيهما منذ قليل شرارات متوهجة .

— الذي لا يزال يستطيع ان يتنفس هنا منكم ، فليسمعنى صوته . من منكم يستطيع ان يتنفس ؟

قال ذلك وهو يطوف بنظره مع سؤاله على الحضور . لم ينبس احد منهم بكلمة . واظلم وجه بن أيوب ، وقال :

— فى كل يوم ينتزعون قطعة من لحم أجسادنا ، فما يبقى فى مكان اللحم المنتزع الا جرح عميق تنزف منه حياتنا . انهم يهيتوننا ببطء ، يفصدوننا عرقا عرقا . ايها الجيران ، لأن تموتوا خير من أن تتنازلوا عن أراضيكم ، لأن تموتوا خير من أن تتركوا شبرا من هذه الاراضى . اذا تركتم ارضكم تركتكم فعشتم انتم وابناؤكم يؤساء الى آخر الحياة .

كذلك قال بن أيوب فى نهاية ذلك النهار . وتفرق المزارعون وفى قلوبهم قلق وجزع .

ولم تفت قره كلمة واحدة من هذا الكلام .

وقيما كان كل منهم عائدا الى ارضه وحيدا مع نفسه ، كان يقلب في صدره الاقوال التي سمعها من بن ايوب ، وتذكروا عندئذ ما سبق أن قاله لهم احيرا .

« حياتنا هذه ليست حياة . حياتنا التي نعيشها من اقدم اسلافنا ليست الان حياة . اننا نعيش في ملل وصجر ، فاقدين القدرة على الحياة . آباؤنا وأجدادنا وآباء اجدادنا كانت عليهم جميعا واجبات . كانت الحياة عندهم لاتخلو يوما من الواجبات . يدفعني الى قول هذا الكلام ما تعرفه عنهم ، وما تراسى اليها من اخبار زمانهم ، وما كانوا يرونه من راي في الحياة . وشعورهم بتلك الواجبات هو الذي جعل منهم رجالا . اما نحن فاننا لم نجد خيرا من التحلل من واجباتنا : نأكل كالبهائم ، ولا نفكر في شيء البتة . لم يبق ثمة واجبات . نحن اناس اصبحوا بغير اعباء ينهضون بها . فالحياة تبدو لنا عقيما غير ذات جدوى وأعمالنا تبدو لنا عقيما غير ذات جدوى . نحن انفسنا نسير على هذه الارض بغير جدوى . أصبحنا لانجد في الاعمال التي نقوم بها أي فرح . أصبحت أعمالنا قديمة بالية . وأصبحنا لانجد في صداقاتنا أي فرح كذلك . لا ولا فرح فيما يتبادل به بعضنا مع بعض من كلام ، ولا في رؤية اولادنا يكبرون ، ولا في النظر الى الارض التي تملكها وهي تثمر وتعطي خيراتها . ذلك كله دليل على أننا في حاجة الى اعباء جديدة . اننا لانعيش ولا نعمل الا بحكم الضرورة ، من أجل ألا تنطفئ الشعلة ، منتظرين أن تقبل أيام أفضل من هذه الايام . أما الفرح ، فلا . . . وستعود اليها الحياة بفرحها متى اكتشفنا أعمالا جديدة تقوم بها . »

هل الجار بن ايوب على صواب ؟ هل هو على خطأ ؟
ستبدى الايام لنا ذلك .

هذا ما كان مزارعو بني بويلان يقلبونه في اذهانهم في ذلك المساء الهادي .

وانقضت بضعة أيام . وفرغ صبر عيسى وبوشناق ومحمد ونجار ، فمضوا مجتمعين الى بن ايوب .

- قالوا له :
- أذكر لنا ولو عملاً واحداً من الأعمال الجديدة التي طالما حدثتنا عنها .
- خذوا هذا المثال . ان معظم فلاحينا يحثرون الأرض عمق إبهام . ويتبقي لهم الآن أن يحثروها عمق ذراع .
- قال بن أيوب ذلك ، وحدق إلى الرجال الأربعة .
- هل تفهمونني الآن ؟
- طيب طيب ، وغير ذلك ؟
- هذا كل شيء ..
- نصاح محمد :
- آ ... نعم
- وقال بوشناق :
- ماتقوله يدور في ذهني .
- أما أنا فأقوله لجميع الناس ، لجميع الناس .
- هو إذن كذلك .. يجب أن نأخذ جميعاً في حث الأرض عمق ذراع .
- نعم : نحفر أخاديد عمقها ذراع .
- وعاد بوشناق يقول :
- ذلك عمل يحتاج إلى رجال جدد .
- ووافقته نجار بقوله :
- لن يفهم هذا إلا رجال جدد والحق يقال ..
- وقال عيسى سائلاً ، بعد أن لم ينطق بحرف :
- هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟ قل لي : هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟
- فأسرع بن أيوب يقول :
- قد يكونون عندنا ، وقد لا يكونون . انظرت حقاً فيما حولك لنرى اليس عندنا هؤلاء الرجال ؟
- نظرت حولي ؟
- يجب أن ننظر إلى أنفسنا ، وأن ننظر حولنا . فلاشك أننا واجدون رجالاً سيدهشون العالم ، وسيدهشوننا .
- قال بن أيوب ذلك ، وفكر لحظة ثم أردف :
- من أجل هذا قلت : ينبغي لنا بعد الآن أن نحفر أخاديد عمقها ذراع .

وعندئذ أخذ بوشناق يقول :

— حياتنا تفتنى يوما بعد يوم بأحداث شتى غير مألوفة : اننا نشهد عصرًا جديدًا . ولعلنا لانشهد هذه الاحداث فحسب ، بل نسهم كذلك اسهاما كبيرا فى صنعها . نحن .. والعالم اخيرا . النتيجة واحدة على كل حال .
قال محمد معلقا :

— انسان هذه الايام يفكر أكثر مما يحسن التعبير . الانسان الجزائرى يفكر الان كثيرا . أرجو ألا يخرج من هذا الاخير .
فأجاب بن أيوب :

— لن يخرج منه الاخير ، أيها الجار محمد . لن يخرج منه الا خيرا . صدقنى .
فقال محمد مؤكدا :

— أخذت الروح العظيمة تهتز فى أرضنا .

- ليس في الدنيا بلد كبلدنا .
قال يا دعدوش ذلك وجسمه يهتز من أمام الى وراء . ولم يجب
الفلاح الشاب عن كلامه بشيء .
- اذهب حيث شئت ، فاذا وجدت بلدا كبلدنا قل لي أى بلد هو .
لا ، لا أظن أنك واجد بلدا كهذا البلد . .
كان في الاراضى العليا . حجارة عارية . حجارة وريح . وذلك
الظهر الاصيل من شهر آب ما ينفك يزداد حدة على الجنبات البيض
من الشاطئ الصخري .

وراح هاشمى يشتم ويجدف غضبا .
ثم انطلقا الصوت الابح في حلقه .
ذلك كل شيء .

كان الشيخ الهرم جالسا على صخرة كبيرة ككيس من القمح ، مائلا
بعده الى الامام . وكان هاشمى ينظر اليه : انه طويل ، محترق .
- نعم ليس في الدنيا بلد يشبه بلدنا .
فصاح الفلاح الشاب فجأة :
- يا دعدوش !

كان الفلاح الشاب يبدو مهتاجا أشد الاهتياج .
- اود لو أوافقك على رأيك ! لم لا ؟ هل زرت بلادا أخرى !
- لا قول ليس في الدنيا بلد يشبه بلدنا ؟ لا ، لم اذهب الى أى
بلد آخر ، ولكننى أعلم علم اليقين أنه ليس في الدنيا بلد كهذا البلد .
كان الرجلان قد استندا يظهرهما الى صخرة من الصخور . هي
صخرة بيضاء من جانب ، سوداء من جانب آخر ، تطل على الطريق .
ان الفلاح الفجور والفلاح الشاب محتميان بجانبها الاسود . الريح
تهب على جبال أخرى قائمة عند الافق . والرجلان يتفرسان في
الصخر وفي القرية المنكوبة تحت ، وفي السهل العالى المتكاس فوق .
اشتم هاشمى .

كان وجهه لايزال يحتفظ بما يعبر عنه من جد كجد الاطفال .
قال الشيخ :

— الذين زاروا جميع البلاد حدثوني : ليس في الدنيا بلد كبلدنا .
بانت أسنان الفتى ، الصغيرة المصقوفة . وهطلت أشعة الشمس
كانها الكلس الحى . ووضع الحر الشديد فى الأفواه مذاق هواء ساخن
ممتزج بحجارة .

وعاد با دعدوش يقول :

— لا ، لا ، ليس فى الدنيا بلد واحد مثل بلدنا .
كانا يستنشقان رائحة السمتر التى تحملها الريح ، ويستنشقان
خاصة تلك الرائحة التى تخرج من الحجارة .
— اذن كذلك ، يا با دعدوش ؟

طرح الفتى هذا السؤال على الشيخ .
هاشمى اسمر ، ولكنه ليس اشد سمرة من بادعدوش . بادعدوش
اشد سمرة منه . با دعدوش يشبه أن يكون أسود . وجه الفلاح
الشباب يكاد يبدو الى جانب وجهه أبيض . وهو كذلك أقرب الى
الوداعة والرقّة .

— هل ذهبت الى بلاد أخرى يا با دعدوش ؟

— لا ، ولكننى طوفت فى أرجاء بلادنا طولا وعرضا ، فى جميع
الاتجاهات عظمى بلادنا . رأيت أنواعا من الناس ، رأيت جميع
أنواع الناس ، رجالا ونساء . رأيت فيها أشياء كثيرة ، بلادنا
لاتقاس بها بلاد أخرى .

— ولكنك عدت الى بنى بوبلان .

— اجاب العجوز :

— لم لا ؟

— لا استغرب أن تعود ، فهنا ولدت وهنا نشأت وترعرعت .

قال هاشمى ذلك وهو يشير بيده الى السهل الممتد أمامهما .

— لم لا ؟

— وهأنت ذا الآن عجوز ، تعود الى أرض آبائك وأجدادك ،

ولا تنوى أن تتركها .

— علام أتركها أيها الشاب ؟

— أثرت اذن أرض آبائك وأجدادك على سائر البلاد ؟

— لم لا ؟

— أنت اذن تؤثر مكانا على آخر ؟

— لم لا ؟ هي بلادى أينما ذهبت

هز هاشمى كتفيه ولزم الصمت .

كانت مدرة كبيرة من التراب الاحمر متكومة عند قدميه ، وكان هو يتربع على حدة الصخرة القائمة عند هذا المستوى نفسه . فمال الى امام ، وشد بيده الكبيرة السمراء كشة من العشب النابت في الارض ، وهش بها على العنيزة الحمراء ، فظلت العنيزة متمددة على الارض لم تتحرك . ثم راح يدايعها فمد الشبكة الى منخريها المبتلين ، ففتحت شفثيها ومدتهما الى امام وقبضت بهما على العشب . ثم اغضمت عينيها ، وظلت تمضغ لقمتها فيما يشبه النوم مدرة طويلة ان حر هذا الظهر جاف جفاف الحجارة .

رفع هاشمي رأسه ، ولاحظ با دعدوش . ثم قال :
— قد لا يكون في الدنيا بلد كبلدنا .. ولكنك لاستطيع أن تدعي ان المرء يجد في هذا البلد عملا .

كان سطوع النهار يدخل راسي الرجلين كأنه أجزاء حجارة . وكانت نظراتهما تثبت في عناد على انصهار السمط الشهباء في السهل ، في عبوس وكآبة .

انعكاس ضوء المساحات الشاسعة يفسل النهار . البياض يطالعك حيثما توجهت ببصرك . الشمس نفسها تفنى وتنتشر في الفضاء . وارتعش شيء ما في وجه با دعدوش العجوز .

اختلج وجهه اختلاجات صماء .
وبحث الفتى عن عشب لعنيزته . مال مرة أخرى الى الامام ، حتى أوشك أن يركع .. وانتصب با دعدوش بجذعه الطويل ..
قال هاشمي :

— في هذه البلاد التي لا نظير لها لا تجد من تفعل عنده .
قرب الرجل العجوز صدره .

— وانت رجل عجوز وليس لك أحد يعينك .
وجمد با دعدوش ، المنتصب الجذع ، على هذا الوضع : يدها موضوعتان على الركبتين ، وجسمه الطويل ضار ، محروق بالشمس ، حزين ، وقميصه ملتصق بصدرة من هبوب الريح .

وكان أناس سود يمرون على الطريق في ذلك الوقت من العصر .
قال با دعدوش بصوت متوجع :

— هاشمي .

نداء لا يعرف له سبب . ونظر الشاب الى با دعدوش . ان نوعا من الانين قد خرج من صدر الشيخ . وأنه ليكاد يكون قائما من شدة انتصاب جذعه . ويداه فلقتان كأنهما تحاولان أن تشبثا بالريح

- أنا لا أجد عملاً . ربما . أنا عجوز ، وليس لي أحد يعينني .
جائز . ولكنني أعتقد أنه ليس في الدنيا بلد مثل بلدنا .

كان الشيخ يتكلم بحزن شديد .
- مستجىء أيام سود .. ولكن مستجىء أيضاً أيام بيض .
كان في هذه اللحظة رقيقاً عذبا ، بينما هو يبتلع الريح في حزن .
كان يتعطف شيئاً بعد شيء . وقد أطلق هذه الكلمات الأخيرة في
الهواء بلهجة حادة .
قال الفلاح الشاب :

- مستجىء أيضاً أيام سود .
ونظر إلى با دعدوش الشيخ ، وقد لاح وجهه في الظل أسود
تماماً . كان الشيخ العجوز ينظر إلى بعيد بإحفظ هذا البلد .
ثم قال مسلماً ، بلهجة تشبه أن تكون عاطفية :
- نعم هكذا نعيش في بلادنا يا بني !
- تسأله الشاب :
- ماذا تقول ؟ كيف نعيش في بلادنا ؟
- لا نفتنى فيها .

- ولكن ليس هذا هو الموضوع . إن في وسع المرء أن يعيش
دون أن يفتنى ، وربما كان ذلك أفضل . وإنما المهم أن نعمل ، إنما
المهم أن نجد عملاً ..
فحول بادعدوش رأسه ، وقال :

- يجب أن أذهب يا بني . انهم ينتظرونني تحت . هم في حاجة إلى .
أخذت الحجارة نهتز تحت أقدامهما بقرقعة تترجع على طول
المنحدر الوعر . أن هاشمي وبا دعدوش يشبان من صخرة إلى صخرة .
كانت الشمس تصلب الجبل كقرص من فطير .
صاح العجوز وهو يقالب بصوته الريح :

- ها هاى .. ليس يهمنى أن أكون عاطلاً عن العمل ! ..
ثم أصبحت المناقشة مستحيلة . إن الريح ترد الكلمات إلى
الافواه . ولولا ذلك لاضاف با دعدوش إلى جوابه قوله : إذا كان
لا يعمل الآن كثيراً فإنه يعرف أناساً لم يعملوا طوال حياتهم تقريباً
.. لأنهم لم يستطيعوا أن يجدوا عملاً .. وإن حياة الناس تنقضي
على هذا النحو .. وإن الأمر هو كذلك في البلاد كلها .. ولكن
با دعدوش أصبح لا يستطيع الكلام بسبب الريح . ومهما يكن من
أمر فإن الذين كان يريد أن يتكلم عنهم خاصة ، ليسوا أولئك الذين

لم يعملوا مرة واحدة .
ذلك أنه ، هو با دعدوش ، قد حمل المعول طوال حياته . وهاهو
الآن شيخ هرم . صحيح أنه لم يشارك على نهايته . ولكنه كان
يحس أنه قد بلغ من الشيخوخة حدا بعيدا . لم يعد صالحا للعمل
كما كان في ماضي أيامه . واصحاب المزارع يعرفون ذلك .
وهتف يقول :

— ليست البطالة شر ما في الامر ، ليست البطالة .. أنا لم أكن
باطلا عن العمل دائما . ولئن طفت الجزائر من أقصاها إلى أقصاها ،
فما ذلك إلا حرصا مني على أن لا يقال ..
وانتظمت أنفاسه فتوقف عن الكلام . كان لا بد له من أن يبلغ
ما هم أن يقوله .

فلما استطاع أن يعود إلى الكلام قال :
— ان الكروم والمزارع تتطلب عملا مرهقا .. ذلك شر ما في الامر
حين نعمل .

قال ذلك وهو يشير إلى البلد بحركة من يده . ثم أردف :
— هل بسبب البطالة دب إلى الهرم أنا المائل الآن أمامك ؟
واصبحت بلا معين يعينني ؟ ولا شيء أدخره للأيام التي بقيت لي
من عمري ؟
— طبعا لا .

— انك لترى أنني أجهدت نفسي في العمل طوال حياتي ، ثم هأنذا
الآن شيخ هرم .
لعله أراد أن يقول : لقد دب إليه الهرم بعد أن ظل يعمل طوال
حياته ، وها هو ذا لا يملك قرشا واحدا .
وصاح يقول أيضا :

— كذلك جميع الذين يعملون ؟ جميع أولئك ..
ونظر إلى الكروم والمزارع الكبرى المنبسطة تحت .
— هل تعرف ياهاشمي .

— ماذا يا با دعدوش ؟
— ان المستوطنين الفرنسيين أشقياء ..
هل ..

وهبت ربح شديدة فذهبت بالسؤال .
قال الفلاح العجوز :
— لقد عملت طوال حياتي كما يعمل عبد من العبيد .. أجهدت

نفسى فى العمل بأراضيهم كما لم يجهد نفسه أحد . ولم اخف منهم .
- أنت على حق ، على حق تماما .

- بل لقد كنت لا أعبأ بهم البتة ، هل تعلم ذلك ؟ وإنما الذى
يخوننى أنهم يستولون على كل شيء ..
فقال هاشمى :

- صحيح . أنهم يستولون على كل شيء ..

- كانت لى أرضى . هى قطعة صغيرة من الأرض . انت لا تتذكرها طبعاً

- لا أتذكرها ، ولكن لا بد أنها كانت قطعة صغيرة جداً من الأرض ..

- ولكنها كانت أرضى أنا ، وكانت لى بهائى . وكان لى بذارى ..

- وكانت لى بقرة صغيرة من أبقار هذه البلاد ..

- صحيح ؟ كان لك بقرة ؟

- كان لى بيت صغير أيضاً . وكنت أعيش حياة سعيدة مع

زوجتى وابنتى الصغيرة ريم .. انك لا تتذكر هذه الأشياء .. فلم

تكن قد ولدت بعد .

- أنا أعرفك منذ ازمان .. لعلى كنت فى تلك الايام صبياً صغيراً

ولكنى انذكر ابنتك الصغيرة . كانت لطيفة .

- ثم اخذ منى الفرنسيون كل شيء .

- آه من هؤلاء الفرنسيين .

وتوقف الفلاحان واخذوا ينظران الى الافق . انهما الان يفكران فى

شيء آخر .

استدار الشاب حتى قابل بوجهه الشمس ، فظهرت البقع

السوداء التى تحت عينيه . كانت الماريا تنهشه نهشاً . ان نظرتة

متقدة محمومة . وبدأ وجهه الذى اخذت تشيت عليه لحية جعداء ،

بدا اصفر ضارباً الى خضرة بلون الزيتون .

- كنت شاباً قوياً مثلك يا هاشمى . ولقد عملت كثيراً كما يعمل

عبد من العبيد .

- طبعاً يا با دعدوش .

- هم الذين يدخرون مالاً .

- طبعاً ..

- وما ينفكون يتضخمون حتى ليتساءل المرء أين تراهم يتوقفون

عن هذا التضخم .

- هؤلاء الاشقياء ..

- أنهم يسممون حياة الذين يعملون من أجلهم .

- انهم لاشقياء حقا يا بادعدوش .
- وبينهم من هم اصدقاء لنا !
- صحيح ؟
- بينهم من يقولون انهم اصدقائنا الوحيدون .
- صحيح ان بينهم من يقولون هذا الكلام ؟
- انهم لاشقياء حقا .
- صحيح . وهم يجمعون جبالا من المال .
- هو ماقلت .
- هل صحيح انهم رموك كما ترمى الكلاب ؟
- ذلك ما فعلوه . كنا لانريد ان نذهب ، فطردونا بالقوة . نعم
- رمونا رميا .
- آه .
- هذا ما حدث .
- يا لهؤلاء المستوطنين الفرنسيين !
- نعم .
- يفعلون ما يريدون .
- ستجىء أيضا أيام سود .
- أصبحت شيخا هرما ، فقالوا انك أصبحت لاتنفع في شيء ، وما
- من داع الى اعالة احد ، اليس كذلك ؟
- هو كذلك .
- اما انا . فما زلت شابا ، وما زلت اصلح لشيء ، اليس كذلك
- يا بادعدوش ؟
- انت شاب ، وتصلح ...
- ولكن المستعمرين اناس ..
- نعم . والفلاحون اناس سعداء .. فيجب عليهم ان يساعدوا
- هؤلاء المستعمرين الاشقياء .
- ونظم الرجلان احدهما الى الاخر متفامزين . وفي الطريق كان
- بعض الناس يتجمعون ، فما لبثوا ان صاروا اشبه بقعة سوداء في
- الضياء الساطع .
- قال الشيخ :
- اسرع يا بنى .
- واستمرا بهيطان .
- ولكن المال .. يا بادعدوش .. لعن الله المال .. لعن الله المال

الى آخر الدهر . ان المال يجعل القلب قاسيا حتى لكأنه قطعة من عظم
- آه .. المال .

- طبعا .

- وهؤلاء أصدقاء قدماء . أخذوا أرضي ، وبيتى . أخذوا كل
شيء . اننا نتكلم فى أشياء لا نفهمها . المال يجعل الناس أشقياء .
- هيه .

- أشقياء كثيرا .

وصفت الشيخ . لكأنه كان يفكر أيضا فى شيء آخر . يمينا انه
كان يفكر فى شيء آخر . فى هذه اللحظة أيضا ، كان يفكر فى شيء آخر
وتنهذ أخيرا يقول :

- يا لهم من تصاء .. حين لا يبقى هنالك مستغفرون ، فسيكونون
حقا تصاء .

وكان الشيخ بادعدوش يبدو جائعا جوعا قويا ، الى شعوره
بالحر الشديد . لحيته أشبه بكثرة من الشوك . ومن عنقه المفضل
يتهدل قميص وسخ ذو قبة مقور .

كان هاشمى قد جعل ظهره للريح ، واستند بيده الى عصا غرزها
فى الأرض ، وثنى ظهره ، فهو ينظر الى الماعز الذى يتشمم الحجارة
فوق ، وينظر الى العجوز وهو يتكلم . انه ، وقد التفت نحو الظل ،
يبدو أسمر الوجه . وكان يتشمم وهو يصفى . وكان الشيخ العجوز
يتكلم دون ابتسام .

وفى الطريق ، تحت ، لم تكن جماعة الرجال السود قد تحركت
من مكانها .

قال بادعدوش للشباب :

- وداعا .

ومضى الى أولئك الرجال الذين اصطفوا فى ظل الأشجار .
فشيعة هاشمى بقوله :

- صحتك السلامة .

وعاد الفلاح الشاب يصعد فى ذلك الطريق نفسه الى الجبل الذى
تفرق فيه ماعزه . النهار الآن فى أشد ساعاته سطوعا وتوهجا .

الشيخ بادعدوش يسير فى الطريق وحيدا وهو يقفز ويتوالب .
ان حركته الخفيفة لاتنبئ عن تقدم هذا الرجل الطيب فى السن .
لكأنه واحد من أولئك الرعاة الشبان الذين يضربون فى أرض هذه البلاد

اقترب يا دعدوش من الرجال وكأنه وثب اليهم وثبة واحدة .
ها هو ذا الآن امامهم . ذلك هو بادعدوش حقا . آ . . يا دعدوش
باله من رجل ! كان أهل البلد اذا رأوه صاحوا : آ . . جاء الماكر .
والحق ان المرء حين يراه أول مرة لا يسهه الا أن يقدر أنه كذلك .
ان له أنفا دقيقا . والحق أنه ما من شاردة ولا واردة مما يجرى
في الحقول ، تففل عنها عيناه اللتان تشبهان عيني قط . ووقف
يا دعدوش أمام جمع الفلاحين متلفعا بقميصه الواسع الأكمسام
وسرواليه العريضين المقعين المصنوعين من نسيج الكتان .
- ما كنتم تتوقعون أن تروني . ولكن هانذا أمامكم مع ذلك !
- آ . . يا دعدوش ؟ كيف الحال . أهلا وسهلا . تعال ، اقترب ،
إذا لم تكن خائفا منا .

هكذا صاح به على بن رباح . فاضحكت هذه المرحاة البريئة جميع
الرجال . وأردف على بن رباح يقول :
- في إمكانك أن تقترب من أخوتك . أنت أيضا إنما ولدتك الأرض
أنت فلاح ، بل إن في وسعي أن أقول أنك فلاح أكثر منا جميعا .
وما من فلاح يخشى الاتصال بأهله .
جثا بادعدوش فوق الأرض الجافة بعيدا عنهم بعض البعد ، وهو
باتفت إلى جانب ، ويحدج الجمع بطرف عينيه ، ويفرز في التراب
أصابع قدميه التي يركز عليها جسمه .
ما أشد ما يظهر في هذا الوجه الأزغب من حيوية يضاف إليها
تعبير عن رهافة آسيوية .

كان بادعدوش جالسا جلسة من هو في صحبة سادة من سكان المدن
إكان يريد أذن أن يظل بعيدا عنهم ؟ أنهم لم يسيئوا استقباله
ولا آذوه بكلام . فما الذي به أذن ؟
يجب على المرء أن يحترس من روح السخر اللاذعة التي يتصف
بها هذا الشيخ المعوز . أترأه بعد الآن مزحة من مزحاته تلك التي
تشبه الشوك ؟ كذلك هو الغم بادعدوش : حينما ترتسم في وجهه
علائم الجد ، يجب الاحتراس منه .
وظل بادعدوش بعيدا عنهم على وضع من الامتثال والأذعان .
والآخرون يشعرون بالوجل ، ولكنهم مع ذلك يضحكون .
لماذا يظل ساكنا لا يتحرك ولا ينبس بكلمة ؟ ماذا هنالك ؟ ما الذي
جرى ؟
أعله لم يكن يقصد أي خبث . ان كل ما يبدو من هيئته أنه يريد

القول لهم ان من الخطل ، ومن اكبر الخطل ، ان يظنوا انه لم يعد يصلح لشيء . قال :

— انا الرجل الوحيد الذي يعرف كل شيء في هذا البلد : البهائم والحجارة والرجال . اناني هذا البلد اول الناس طرا . فقال بن سالم عادة معترفا :
— ما في ذلك شك .

آ . . ان الشيخوخة تفهم امورا كثيرة . وان شق عليها في بعض الاحيان ان تعزم امرها . ثم انه ليس بالشيخ الهرم . . امثله بعد شيخا هرما ؟

— اقترب اذن ! ما بقاءك هنالك وحدك ؟ فابتسم بادعدوش وقال :

— لا داعي الى هذا . تخطئون اذا نسيتمونا نسيانا تاما لاننا اصبحتنا شيوخا . . اظن اننا لانزال قادرين على ان نفعل شيئا ما . بل اننى لعلى يقين من ذلك . ما زلنا قادرين على فعل أشياء كثيرة . سيثبت لكم صدق ما اقول في يوم من الايام . قال با دعدوش هذه العبارة الاخيرة مدمما . كان لا يريد ان يلح ، ولم تزعجه توصلات الفلاحين عن مكانه . وتابع يقول :

— نعم ، لقد جئت لاننى شعرت ان من واجبي ان اكون بين رجال نهيش قلوبهم وتنالم . نعم جئت لاننى اعتقدت ان من واجبي ذلك ما كان يريد ان يقوله لهؤلاء الرجال . وأضاف انه امرؤ له عزته وله كبرياؤه . . وانه لا يحتمل ولن يحتمل . . . وان شخصا مثل با دعدوش لا يجوز تجاهله . وانه جاء لان هذا واجب . . . متى شاخ الرجل ، لم لا يهتم به احد ؟

— حقا انه لمن الخطا اننا لم نبلفك . ولكن لن يعقد اليوم اجتماع مسكين بادعدوش . لم يكن الفلاحون في ذلك اليوم عاقدين اجتماعا . كل ما في الامر انهم قرروا ان يلتقوا ليتفقوا على موعد لاجتماع ضخم .

كان بادعدوش ، كسائر الرجال هنا ، يكابد تلك النار التي تسكن المدور . كانت الرغبة في القيام بعمل ما تشوي في أعماق خواطره ، وتوجه جميع أعماله على غير شعور منه . ما قيمة ان نحيا اذا كانت الحياة لا تنفع في شيء ؟ ان في كل صدر كلمة احتجاج ، كلمة واحدة ، حية قوية .

كانوا قد التقوا منذ قليل ، يتحدثون ويتناقشون ، حين وفد عليهم قره . ما من أحد هنا لا يعرف قره على . اتجه قره على الى بن سالم عادة ، فسأله :
- هل تعرف من هو حميد سراج ؟

فود الفلاحون جميعا أن يجيبوه بقولهم :
- فيم هذا السؤال ؟

لقد قذف قره على بسؤاله كما يقذف بحجر ، دون أن يعبا بما كانوا يقولونه ، ودون أن يعنيه هل كان هؤلاء الرجال يتناقشون في أمور تهمهم .

لم يتخرج أى تخرج ، وطرح سؤاله ذاك كأنما هو حق من حقوقه . كان فكره يردد على مسامعه أن هذا حق من حقوقه ، وأن على الفلاحين أن يجيبوا عن السؤال .

وعندئذ وقع مالم يكن فى الحسبان . ان على بن رباح تولى الجواب عن بن سالم عادة فقال :

- ليس عندنا يا سي قره أى جواب عن سؤالك !
قال ذلك بلهجة هى عند من لا يرى فيها شيئا من مكر ، لهجة امثال واذهان .

ولكن المجنون الذى علق برقبته جرس ، المجنون الذى فى رأس قره على ، أحتاج أعتاجا شديدا ، فخاطب عليا بينه وبين نفسه بقوله أترد على بلهجة باردة خسنة أيها الوقح ؟ لا يزال بين أسنانك لبن أمك ، وقال يخاطبه أيضا بينه وبين نفسه : « لا أعرف من هى الأنثى التى ولدتك ، لكننى أعرف أباك : هو شخص حقير . وأنا أعرف إذن ان أمك قاذورة من القاذورات . وأخت أبك وأخت أمك هما أيضا من القاذورات . صنف دنىء ، كلهم » .

ان قره يريد أن يوقفهم عند حدهم . هؤلاء الفلاحون ، اذا أنت تنازلت لهم من شبر ، أخذوا عشرة . ولكن حذار ، ان قره ليس ممن يمكن التماذى عليهم . صحيح انه قروى ، ولكنه ليس قروى الاصل والمنبت ، وانما جاء الى القرية من المدينة كسائر مزارعى بنى بوبلان

الأعلى ، « في حين أن هؤلاء العرب الجبليين أصلهم من الصحراء أو من الشياطين . أنهم يستنجون بالحجارة بدلا من الاستنجاء بالماء كما يليق بالمسلمين الأشراف » .
بهذه كان قره على يحدث نفسه .

والحق أن هؤلاء الرجال الذين يراهم أمامه ، لهم كل ما للارض التي أنبتتهم من مظهر ولون وحتى رائحة . أنهم من قمة رعوسهم ذات الصمائم الى أخمص أقدامهم التي تنتعل البوابيج ، ليس فيهم شيء صاف رائق الا هذه الاعين التي مثلها كمثل المنابيع ، لا أعصار لها .

ولم يحرصوا على الإسراع في اغضابه ، لان الحديث الذي كان يدور بينهم يهمهم أمره .

قال على بن رباح مرة أخرى بصوت عال واضح مفهوم :
— لسنا مضطرين الى الإجابة عن سؤالك ياسي قره ،
فأجابه :

— أذن أنت تعلم شيئا .

ثم تنهد قره على ، رجل بنى بوبلان الأعلى ، واردف يقول :

— نعم ، لابد أنك تعرف شيئا . انه يجيء الى هذا المكان في كثير من الأحيان .

ولم يبادل الكلام أحد .

— أنت ، بل انتم جميعا ، تحومون حوله كالذباب حين يجيء . لقد راوكم . انتم جميعا . وفي بيوتكم أيضا .
فقال على بن رباح :

— هبنا نعرف ، فما أنت من تقول له .

ان في هذه المناقشة التي بدأت بدءا سيئا ، شيئا غريبا مثيرا لا يفسر .

— أنت يا ابن رباح ، تواجهني بهذه الوقاحة ؟

لقد دهش قره أشد الدهشة من أن صبيا — صبيا فيما يرى — يقول له هذا الكلام ، والصبي فوق ذلك من الفلاحين ..

— أنت . لا تعرف من هو حميد سراج . ثم تتكلم كأنك رجل من الرجال .

قال على بن رباح :

— أنا ابن رباح . ولست أريد طبعاً أن أخل بواجب احترامك .
ثم أضاف :

— ولكن اذا علمنا شيئاً ، فما أنت بالذي تسمى اليه من أجل ...
وسلم قره على مرة أخرى بأن الفلاحين ليسوا الا حميراً . قال
لنفسه « بل انه ليس من المؤكد أن لهم ارواحاً » .

كان الفلاحون يصفون الى هذه المناقشة محمقين . وهذا واحد
منهم يضغط منخريه بين ابهامه وسبائته ، وينفخ نفخاً قويا عدة
مرات ، فيخرج من أنفه صوت كأنه صوت بوق ، ثم يهز أصابعه
ويمسحها برغب جليابه .

ما هكذا يعامل قره على . ان على بن رباح يعرف ذلك ، والآخر
يعرفونه أيضاً . انهم جميعاً يعرفون ذلك حق المعرفة . انهم لا يريدون
ولا يستطيعون ان يهينوه عامدين . وكان هو يستفيد من هذا
ليفرض نفسه .

— ان شاربته .. ان وجهه هو الذي .. كيف أقول ؟ هو الذي
كان يحمل الفلاحين ، بما فيه من وقار كوقار قاض من القضاة ،
على أن يحترموه بقريرتهم .

كان على بن رباح يود من صميم قلبه لو يكلمه بلطف ومودة ، لولا
ما كان يضمره قره من نية الشر . ما من أحد هنا الا أدرك المصربة
التي تنشب على حدود هذا الضمت . لقد أحس الفلاحون بتهديد
يسلط على رؤوسهم . وكان في ذلك من قوة المفاجأة والعنف أن كلا
منهم أسرع في القاء نظرة قلقة على وجه صاحبه وكأنما هو يقول له :
« انظر أمامك .. هذا هو ابليس » . وراحوا يرددون بينهم وبين
انفسهم : « ليتك تموت ايها الرجل الخبيث . ليتك تسقط في قدر
تغلي . ليتك تقع في مرحاض ، ايها الكافر . ليت شاربيك يحترقان
في جهنم شعرة شعرة » .

وظل الجمع هادئاً مع ذلك . واحتقن قلب قره غيظاً . انهم جميعاً
صامتون . وقلب قره يثور ويغلي حنقاً .
وظهرت لابصارهم في تلك اللحظة عربة كبيرة . لم يجب قره بكلمة
واحدة . وهامو ذا يمضي بخطا واسعة .

لم يفهم الفلاحون شيئاً من هذه المناقشة . كان يبدو لهم ان جميع
الناس ، وقره أيضاً ، يعرفون حميد سراج .

فلما تركهم تذكروا أنه لم يلق عليهم السلام حين وصل . وكذلك
حين ذهب . اللهم انهم لا يحرصون على أن يظهر احترامه لهم ، معاذ
الله . أرض الله واسعة .

ولكن هؤلاء الرجال جميعاً كانوا في اشد الظلم الى الحب الاخوي .

وما أن ذهب قره حتى عادت اليهم شجاعتهم ، وحتى اتخذت الحياة
مرة أخرى معنى واضحا في انظارهم . أن الخبز ، حتى يكون نيسا
أو محروقا ، يبدو لامثال هؤلاء الظمأى طيبا لليدا .
ولكن من أى خبز هو هذا الرجل ، قره ؟

وغاب قره وراء منعطف من الأرض . وأبطأ سيره . أن اضواء
ساطعة تتموج فى الطريق . وراى قره اقتراب العربة الضخمة
الهائلة الطويلة المبنية على عجلات كبيرة ، مع حمولتها من الزبل . انها
تبدو عالية علو ثلاثة بيوت يركب بعضها فوق بعض . وعلى القمة كان
خادمان من خدم المزارع واقفين وفى يد كل منهما مجرفة . فلما مرا
بالفلاحين القيا عليهم السلام فى فرح ظاهر . كانت العربة تنشر
رائحة خارة .

قال أحد العاملين الزراعيين صائحا :

— انتم يا اولاد امكم . فيم تضيعون اوقاتكم هنا ؟ ليخرب الله بيت
اجدادكم .

سمع قره هذا الكلام وهو يمشى فى الطريق الضيق المؤدى الى
بنى بوبلان الاعلى . كانت العربة تسير وسط ضوضاء كأنها ضوضاء
طاحون . وعرف قره هذين الرجلين المتسنمين ذروة الزبل .
حدث قره نفسه قائلا : « شعب عظيم . ما أعظم رجال هذه
البلاد الذين لا يجيدون الا الشتائم ! » .

وانطلقت ضحكات من الجهتين ، من قمة العربة ، ومن الجمع
الواقف فى الطريق .

قال العاملان يمزحان :

— هل تنتظرون أن يزهر الملح .

انهما شابان فارعا القامة ، قويا الجسم ، يرتديان لباسا واحدا
هو سروال منتفخ يصل الى المأبض ، وقميص على الصدر متسخ
بالتراب ، وقبعتان صغيرتان فوق الرأس .
اجابهما الآخرون :

— ليتكما تختنقان ، أيها السافلان .

وصبوا عليهما سيلامنهما من الشتائم المنتقاة ، وهم يغمزونهما .
وانفجر ضحك عام شامل وسع الصدور . لم يفهم اللذان يعملان فى
مزرعة ماركوس أن الفلاحين كانوا يطلقون منهما شيئا من التحفظ
والتستر .

قال قره لنفسه :

« ليتنى أعرف حقيقة الامر . . انى مستعد لان أدفع ثمن ذلك

غاليا جدا .. و .. و .. ليتنى املك عربية كهذه العربية .. مع كل ما عليها . يا لهؤلاء الفلاحين ما ادناهم ! لقد أصبحوا لا يحترمون من هم أعلى منهم مقاما ، وأرفع شأنا . أصبحوا يسمحون لأنفسهم بكل شيء . ولماذا ؟ لأنهم وجدوا مستوطنين فرنسيين يستطيعون ان يكسبوا من العمل فى مزارعهم مالا .. مالا لا يعرفون ماذا يصنعون به . أصبحنا لا نستطيع السيطرة عليهم . أصبحنا لا نستطيع ان نكلفهم . انهم يكسبون من المال ما يشاءون ، وهذا ما يجعلهم وقحين .

وأصاخ قره بسمعه ، آملا ان يلتقط كلمات أخرى « يظنون ان كل شيء مباح لهم ، هؤلاء الثننون . كيف يتسبون بسرعة أنهم فلاحون أبناء فلاحين ، لا يعرفون الا البؤس . انظر الى هذين الحقيرين النجسين . انظر كيف يقفان فوق هذه العربية كأنهما صاحبها . »
وكان المزارع لا يرى الدرب رؤية واضحة ، فقد كانت تحجبه الاشجار . فتوقف عن سيره ، وسمع القهقهات . ان عاصفة من اللعنات والشتائم تنفجر . وظل قره واقفا وقد نفذ صبره واشتد حنقه .

« انظر .. انظر كيف يلعنون ويسبون ، ثم لا تقطع السننهم جزاء هذا الكفر . يا لهم من فجورة ! اننى لاراهن على قطع رأسى انهم يفعلون عامدين . لا شك ان هناك أمرا يخفونه . »
صعدت العربية طريق سبدو ، ثم انعطفت الى الشمال فلم يسمع قره بعد ذلك شيئا . غير أن فكره ظل يسير . لقد لاحظ قره حركات الفلاحين فى المنطقة ، ولاحظ الاجتماعات التى كانوا يعقدونها . ولم يخطيء ظنه فى حميد سراج الذى كان يراه يتردد على الفلاحين احيانا كثيرة . ان البلد كله يتهاشم فى السر . وكان مزارع بنى بوبلان الأعلى يعرف ما الذى يجب عليه ان عمله .

قال كومندار : الحياة قصيرة . اسأل الله أن يمد في عمرنا .
فلسوف نرى أمورا جديدة كثيرة . أنا كومندار أقول لك هذا الكلام .
أن شيئا ما قد تغير في هذا العالم . لك أن تصدقني ولك
أن تصدق . لقد رأينا ما حدث وما لن يحدث بعد الآن . أنا لم أطف
في الجزائر كلها ، أنا لم أطا أرض وطننا كله حين كنت لا أزال قادرا
على ذلك . ولن أستطيع أن أفعل ذلك . ولكن قلبي يحدثني بكل
شيء . لقد زار قلبي جميع أرجاء البلاد ، زار جميع المدن وجميع
القرى ، وعاد من زيارته يبلغني أن ثمة شيئا جديدا . إلا ما أطول
ما صبرنا !

هكذا تحدث كومندار .

- تقول لنفسك : ما قيمة عشرة أكواخ . فاعلم إذن أنه بنى بوبلان
الادنى كله ! منذ مائة سنة (ربما أكثر من ذلك وربما أقل) لم يكن
أحد هنا البتة ، ذلك أن بنى بوبلان لم يكن له وجود . اسأل شيوخ
القرية يقولون لك أنهم جاءوا الى هذا المكان يستقرون فيه واحدا
بعد واحد . أما قبل ذلك فكان للفلاحين حقول شعير ، وبساتين
تين ، وغياض ذرة ، وجنائن خضر ، وكروم زيتون ، ثم انتزع منهم
هذا كله . منذ تلك اللحظة أصبح يقال عن الفلاح أنه كسول وأنه
ينترك الأرض للقصب والعناب ونخيل المقل ، وأنه عاجز عن صنع أي
شيء نظيف منتج ! وهذه مزايا الحضارة يا بنى ! آه ما كان أحذقهم
في تجريد هؤلاء الفلاحين من كل شيء في سبيل مصالحتهم وفي
سبيل الحضارة ! كان هناك غول شره لا تراه الأعين ، ما ينفك يبتلع
بين فكيه الفاعرين أشلاء كبيرة من هذه الأرض التي سقوها بعرقهم
وبدمائهم ، يبتلعها على ذمول منهم وغفلة ، من حيث لا يحتسبون .
أنه « القانون » . أينما توجهوا صفعهم « القانون » . وهم دائماً
مدببون في نظر « القانون » . لوائح « القانون » تحاصرهم من كل
جهة ، وتعرضهم في كل مناسبة . « القانون » يشق طريقا يقطع
مزارعهم كما يقطع الدولاب أجسامهم . القانون يحرم عليهم امتلاك
أراضيهم . القانون تبذل ، هكذا يقولون لهم ، هناك قانون جديد .

التي سندت التملك القديمة . لا يرث أحد أرضاً عن أسلافه .
الحبس صودرت . وكذلك أراضي المشاع . ثم قالوا للفلاحين : من
كانت له شكوى ، فليراجع المحاكم . هناك محاكم . المحاكم تنصفكم .
يكفي أن ترفعوا قضية . القانون يحمي حقوقكم إذا كانت لكم
حقوق . القانون الجديد الذي صدر بالعدل والمساواة بين الجميع
يدافع عنكم إذا اقتضى الأمر ذلك . وأجاب أولئك الرجال الطيبون :
ولكن كيف نلجأ إلى القانون ، والقانون هو الذي يجردنا من أملاكنا ؟
إن الذين صدقوا ذلك الكلام عانوا من الشقاء ما لا يوصف ولا يحد .
فقدوا البقية الباقية من أملاكهم ، وبعضهم فقد عقله كذلك . وأصبح
يكفيهم الآن أن يجدوا مكاناً يستلقون فيه على مقربة من السهول
الخصبة المروية . فإذا وجدوا هذا المكان ، تلبثوا فيه ولم يمشوا
إلى أبعد من ذلك . والذين يستطيعون أن يعملوا في أقرب مزرعة من
مزارع المستوطنين الفرنسيين ، يشغلون المغاور القديمة التي في
الجبل ، بينما الطامحون منهم يبنون لأنفسهم أكواخاً من طين وقش .
وهذا هو « بنى بوبلان » الأعلى . هكذا تكون ، يا بني . وهكذا حل
في الأرض ناس محل ناس ، هكذا طرد أصحاب هذه الأرض
من أرضهم وأصبحوا غرباء عنها . وثمة فلاحون آخرون أقصوا
مع سكان بنى بوبلان في وقت واحد ، ولأ يزالون إلى الآن يسيرون .
وهناك آخرون اقتربوا من المدن . ما من يوم يمر إلا وترى أسرة من
الأسر تقترب من المدينة ، الأب يحمل على كتفيه صرة ، والام تشد
إلى ظهرها رضيعاً . غير أنهم سيصبحون قوة رهيبية . أنهم الآن
يؤجرون أنفسهم لأولئك الذين جردوهم من أرضهم ، ويقولون :
« كذلك كانت مشيئة الله . ولكن الله سيهدينا إلى الطريق القويم »
لم تع ذاكرة الإنسان لعنة أشد نكراً من هذه اللعنة .
هكذا تحدث كومندار .

وكان عمر ينظر إلى الشيخ العجوز ، فيحس من حوله تلك الخشود
من الناس وتلك البلاد التي نوديت من بعيد . إن هؤلاء الرجال
المنشربين في كل اتجاه يوحون إليه بالصدقة . أنهم الآن صامتون .
أنهم يسمعون كلام كومندار ويفهمونه . ولكن طاقتهم الرهيبة تحملهم
على الصمت ، أنهم يعيشون حول كومندار ، والامل يستحثهم من
كل جانب .

بعد انقضاء مدة من الزمان على ذلك ، كان على بن رباح وسليمان مسكين جالسين يدخان على الاكمة التي علقت بها القرية . وكان يادعدوش قد تركهما منذ قليل ومضى الى المزارع المجاورة عساه يجد فيها عملا ، رغم ان الامل في ذلك ضعيف . وفي تلك اللحظة نفسها كان قره على يرقى اليهما مصعدا في طريق سبدو . فما ان رأى الفلاحان هذا المزارع حتى نهضا ، واخذ أحدهما وهو على بن رباح . يلقي نظرات على جهة الرجل ، ثم قال :

- الى اللقاء يا سليمان . ألم تشم رائحة ما ؟ ان رائحة كريهة قد زكمت أنفي منذ لحظة وجبست أنفاسي .

فأخذ سليمان مسكين يضحك . وذهب على بن رباح . فلما وصل قره على فصار أمام سليمان ، كان لا يزال يضحك وحيدا . قال المزارع :

- سليمان ، سليمان ، لقد سبق أن قالوا انك امرؤ معتوه ، فلم أصدق ، أما وأنتى أراك تضحك وحيدا ، فهأنذا أكاد أصدق .

- لا شيء يا مسيو قره ، لا شيء ، صدقتى . هو فلاح كان معى وذهب منذ لحظة ، لانه شم على حين فجأة رائحة كريهة .

قال سليمان مسكين ذلك وانفجر يقهقه من جديد .

- رائحة كريهة ؟ شم رائحة كريهة ؟

ألقي الرجل الضخم هذا السؤال وهو يتشمم فيما حوله ، ثم أضاف قوله :

- لم أشم شيئا .

- كيف يا مسيو قره ؟

ان ضحكنا لا سبيل الى قطعه آخذ بخناق سليمان مسكين . فنشق المزارع بمنخرية الواسعين نشقة كان لها صوت كأنه صوت قصبة . ثم اخذ ينظر الى سليمان مسكين بعينين قلقتين ، فقال سليمان ملحا باخلاص ساذج :

- شم ، شم ، فستجد ان ثمة رائحة كريهة .

وكانت نظراته ملتزمة بريق أخضر .

- نعم نعم ، هي قدارة ما تركها هؤلاء الفلاحون الماخذيس في هذا المكان . ان الفلاحين لم يوجدوا على هذه الارض الا ليوسخوا كل شيء . ولو ذهبوا الى الجنة ملاوها ببرازهم .

فرفع سليمان مسكين ذراعيه وقال :

- انظر يا مسيو قره الى جنائن الزيتون ، والمراعي الخضراء ، وكروم العنب ، الا ترى انها جميلة ؟ اننى لا انظر اليها فاحس بقلس ينفتح ويتسع . احس بسهل فسيح من الرضا ، باقيانوس من السرور بجبل من الكبرياء . نعم احس بكبرياء عظيمة . فمن اين يخرج هذا كله ؟ من اذرع الفلاحين . هل هذا كله ثمرة اناس خلقوا ليوسخوا الارض كما تقول ؟ انهم في الحق يحملون الارض ويزينونها . ويمكن القول ان وجودهم يجعل من الارض جنة .
وانهى كلامه بصوت قوى يقول :

- ولكنهم مبعدون من هذه الجنة التى يخلقونها .

فصاح قره على بقول معولا :

- كل هذا كلام . ما اكثر الكلام ! فكر فيما تقوله يا سليمان . ماذا تعرف انت يا آخر فلاح من الفلاحين . هذه كلها اراض كانت في الماضى قفرا خاويا . نعم كذلك كانت : ادغال عوسج ، ودوم . . ولم تكن تنبت فيها بطاطسة واحدة .
ثم عمل فيها رجال .

- صحيح . ولكن بفضل من ؟ بفضل الفرنسيين . الفرنسي انسان عظيم ، انسان عاقل حكيم . لكأنه واحد من الأوائل . . . هو الذى انشا اول مزرعة ، وغرس اول كرم . كان الفرنسي يعرف ماذا يعمل .

- وبلغ من حسن معرفته بما يعمل انه لم ينشئ مزرعة واحدة وكروما واحدا ، بل سمرعان ما انشا عشر مزارع ، فعائلة ، فالفا ، وغرس مثل هذا العدد من الكروم ايضا . .

- هذه الكهوف التى يعصرون فيها العنب ، وهذه العناير التى يخزنون فيها القمح والشعير ، لاشك ان اجدادك لم يتصوروا مثلها . لم يكن هناك رجال يعملون فى ذلك الزمان . كان قد نالهم الصدا والفساد جميعا

- اجانب يملكون البلاد .

- اليس السكان سعداء ؟

- لا ادري ؟

— هناك عمل لجميع الناس . ترى ما الذي كان يمكن ان يصير
اليه الفلاحون بدون ذلك ؟ هه ؟

— لا اعرف ما الذي كان يمكن ان يصيروا اليه . ولكنني على يقين
من ان حالهم كانت ستفضل الحال التي هم عليها الآن .
— اعترف بالحقيقة يا رجل .

— الحقيقة ؟ من الذي يعرف شيئا عن الحقيقة ؟ انت ؟ انت تعرف
ماهو حقيقة وما ليس بحقيقة ؟ الحقيقة . لسوف تعرف ماهي .
انظر الى هؤلاء الرجال الذين كنت تسميهم منذ قليل قملا . ألم تكن
تسميهم قملا ؟ اذن فاعلم انهم هم الحقيقة نعم ، هؤلاء الرجال الذين
لا يملكون شيئا من الارض هم الحقيقة .

فرفع المزارع الضخم يده ، وكاد يضعها على كتف سليمان
مسكين ، ولكن حركته مالبثت ان اضطربت كأنما هو هم ان يلمس
نارا تحرق على أن هذه الحركة الاخوية التي لم يكملها قد قربته
مع ذلك من سليمان ، وقال :

— تكلم ، تكلم ، ايها الفلاح الحاذق في الكلام . لقد قسم الله لكم
هذا الحظ .

كان مسيو قره قشف الوجه كسيده متقدمة في السن . وكانت
ملابسه البرقشة الحائلة تدل على انه ميسور الحال بغير رخاء أو رفاه .
وكان له شاربان ضخمان يمتدان على وجهه . وكان وقاره هو
سلاحه ودرعه ضد سكان بني بوبلان الأدنى . وكان يحس أن الفلاحين
الذين يعدهم في أسفل السلم ، لا يبذلون له كل ما يستحق
من احترام .

ان زاويتي فمه تتهدلان في احتقار وازدراء تحت خديه الثقيلين
المحشوين بشعر أشقر .

ثبت سليمان مسكين وقفته على كعبيه .

وقال المزارع متابعاً كلامه :

— وكان ثمة نزاع كثير في عهد القبائل ، وكانت ثمة عصابات من
اللصوص في الجبال والروابي .

— زمان العصابات من اللصوص انما هو هذا الزمان ، مسيو
قره . كيف لا يعرف هذا رجل مثلك يا مسيو قره ؟ ولكن لا ، انك
لا تستطيع ان تعرفه .

— ولماذا ترى ان زمان عصابات اللصوص هو هذا الزمان ؟

— لان المستوطنين الفرنسيين لصوص ، ولان القائد لص ، ولان

رجال الدرك لصوص ، ولان المدير لص ، ولان مسيو قره . .
- مسيو قره ماذا ؟

- لص أيضا . جميع هؤلاء لصوص ، وليس بهم حياء ولا خجل .

فلما سمع قره على هذا الكلام اظلم وجهه ، وقال :

- انت لا تتكلم الا لتبرهن على ان لك شأنا وقيمة .

- ابدا ، وانما اقول الحقيقة . ان كل واحد منكم يريد ان يلقننا

دروسا ، وان يعطينا نصائح ، كل واحد منكم يتدخل في حياتنا ،

وينزل نفسه منزلة القاضي الذي يفصل في الامور ، وانتم جميعا

لصوص .

ضاق قره ذمعا بهذا الكلام ، فاشاح بوجهه عن محدثه . ان عيني

سليمان تطرفان قليلا ، وتلسمعان . واردف يتابع كلامه مستندا الى

المنحدر ، بصوت يبلغ الآن من الخفوت ان قره على لم يدرك في اول

الامر ما يقول :

- لا يا عزيزي مسيو قره ، لا يا عزيزي مسيو قره ، ليس صحيحا

ماقلته عن الازمان السالفة . لم يكن كل شيء في تلك الازمان سيئا

ربما كان في تلك الازمان امور سيئة ، ولكن لم تكن كل الامور سيئة .

واليوم ماذا نرى ؟ لكان يوم الساعة يوشك ان يازف ، هذه الازمان

طيبة للاغنياء والاجانب . . لخمس اسر او ست . . او لعشرة في اكثر

تقدير . اما الفقراء ؟ آه ما اكثر الفقراء . . نحن لم تكن ، انا وابي

وامي واخوأي ، الا فلاحين . وفجأة جاء هؤلاء فاخذوا ابي .

لعل ذلك لم يكن الا خطأ . لقد كان ابي رجلا مسالما طوال حياته

ولكنك تعرفهم ، تعرف هؤلاء الجنود والحرس والدرك والضباط . .

لعنهم الله جميعا .

- هوه . .

- هوه ؟ قد تكون انت خيرا منهم ، او لا تكون كذلك .

- ها . . هوه . . كيف تحرؤ على قول هذا الكلام ؟

قال المزارع ذلك ، ورمى الفلاح نظرة حائقة . ولم يكن في الحقول

أحد البتة ، فما زاد على ذلك شيئا .

- انا لا اجرؤ ابدا يا مسيو قره . وما كان لي ان اسمح لنفسي

بشيء . ولكنني سأقول لك ما بنفسي ، ما دام الله قد أرسلك

الي . وستصفي الي كلامي .

- طيب ، بسرعة ، بسرعة ، لان ورائي . .

- ربما كان سبب ذلك هو الحصان الذي اراد القائد ان يأخذه .

أنا لم أعرف حقيقة السبب إلى الآن . وإنما المهم أنهم أخذوا أبى .
 وقد أخذوا مع أبى عددا كبيرا من الناس ، بعضهم شيوخ وبعضهم
 شباب . وكان بعض هؤلاء مجرمين حقا ، ارتكبوا ذنوبا جديدة
 فأرجموهم إلى السجن . . ولكن الآخرين ، ومنهم أبى ، كانوا أناسا
 أبرياء لم يقارفوا جرما . ومع ذلك أخذوهم . من أجل ذلك الحصان
 أخذوا أبى . لقد رفض أبى أن يهدى الحصان إلى القائد . هل
 القائد نفسه كان يريد الحصول على هذا الحصان لأن حاكما آخر
 أقوى منه كان يطمع فيه ؟ لا أدري . . المهم أن أبى قد انتزع من
 أسرته بسبب حصان شقى . أرسلوا أبى يكسر الحجارة على طريق
 كابين . . ثم إذا بامرأته ، أمى ، تصبح أما بلا رجل ، وإذا بنا نحن ،
 أبناءها ، نصبح يتامى بلا أب . لماذا ؟ هل تستطيع أن تقول لى
 لماذا ؟ الحصان هو السبب . كان الحصان كل ما يملكه أبى فى فقره
 وبؤسه . كان هذا الحصان كثيرا على فلاح . كان لروة ينوء بحملها
 الظهر . كان كثيرا على فلاح . وقد قال سكان القرية ذلك لأبى ،
 قالوا له : « يا أحمد ، أن حصانك أجمل من أن تملكه أنت . لن تلبث
 السلطات أن تنظر اليك شذرا بسبب هذا الحصان » . وذلك ما وقع .
 وقد حذروه أيضا بقولهم : « لا تعلم أحد ما الذى سينتج عن هذا » .
 ثم علموا ما الذى نتج عنه . لقد أخذ أبى . ولم تره بعد ذلك امرأته
 ولا أولاده ولا القرية . وأصبحت أمى لا تستطيع أن تأكل ولا أن تنام
 وهى تفكر فىنا نحن أولادها . وكانت تتوقع كل يوم أن يعود . وقلت
 أنا لأمى العجوز : « هيا بنا نجمع عفشنا وامتعنا ، ونرحل . ان الله
 لم يشأ أن نبقى فى هذا البلد » . وتركنا القرية . لم نكن نملك
 بالقرية لا حجرا ولا شجرة . فرحلنا غير آسفين على شيء . أرض
 الله واسعة . ولكننا حملنا معنا محبة هذه القرية . لقد كتب علينا
 أن نرحل ، فكان لابد أن نرحل . مشينا بضعة أيام . الشرب لم
 يكن أمره صعبا . كنا نشرب من ماء الينابيع . ولكن الحصول على
 الطعام لم يكن بهذه السهولة . لم ندع شيئا إلا أكلنا منه . أكلنا من
 كل شيء : جذور الأعجود ، توت القرصاد . . وأكلنا خبزا كان
 يتصدق علينا به أناس تأخذهم بنا شفقة . وأكلنا من أوراق شجر
 الخطم ، ولوزا أخضر وثمار رمان . وطلبنا الصدقة . ورأينا فقراء
 أفقر منا . وكان أخواى يسقطان على الأرض من التعب . وكنت
 أنا أحس فى كل يوم أننى أوشك أن أموت ، من فرط ما أعانى .
 قضينا سنين نضرب فى الأرض ، ونجوب الطرق . وكنا نلجأ إلى

اكواخ القش نبيت فيها اذا سمح لنا بذلك . ولكن لم يكن يسمح
لنا بالمبيت فيها مدة طويلة . وماذا كان في وسعنا ان نعمل ؟ ان الذين
يطردوننا يجيئون الينا مع كلابهم وخدمهم وينادقهم . فما نلبث ان
تستأنف المسير ، لاننا اصطدنا بالسلطات . كبيرة امنا الجزائر .
ذهبنا الى كل مكان . ومات الولدان . دفنا أحدهما في موضع ،
والآخر في موضع ثان . فلما أصبحت وحدي مع أمي ، لم استطع
ان أرى ما تكابده من آلام . كان خائفا بالصخر ان يبكي حين يشاهد
مائها . ينبغي لك ان تصدق ما أقول . كنا نسير على الاقدام في
الصحراء . ذهبنا الى الشرق والى جبل التل . وسكننا في البراكات
التي تحيط بالمدن الكبرى . وحسرت الارض ، وغملت في جنى
الزيتون والبرتقال وقطف العنب .

وبعد تلك السنين كلها من الطواف في الارض على غير هدى ،
اشتد بنا الحنين الى البلد . فعدنا سائرين على الاقدام أنا وأمي .
واذكر أننا كنا ذات مرة على أبواب إحدى المدن . كانت أمي المسكينة
هزيلة ضاربة متسخة ممزقة الاسمال . اغمضت عينيها ، واسلمت
روحها اللطيفة لبارئها . دفنت أمي ، وعدت الى القرية . أود لو
أعيش أربعين سنة أخرى . صحيح ان الاعمار بيد الله ، وما من احد
يستطيع ان يتحكم فيها . ولكنني أود لو أعيش أربعين سنة أخرى .
هكذا كانت كلمة واحدة كافية لانتزاع أبي منها ، وتشريدنا في أقاصي
الدنيا . هل كنا نعرف سبب ذلك ؟ أبدا . . . والان أصبحنا نعرف .
فانظر مقدار الاذى الذي ألحقه بنا أصدقاؤك . ولكنني لا أهابهم ولا
أخشاهم ، اذ لم يبق لي شيء أخاف ضياعه . وكيرة امنا الجزائر .
قد تقول لي عد الى بيتك فلا أعود ، أولا : لانني ليس لي بيت ،
وثانيا : لانهما من احد يستطيع ان يمنعني من التسول واستجداء قطعة
من الخبز أكلها ، اذا أنا أردت ذلك . لا أستطيع أنت ان تمنعني من
ذلك . وعلام يمنعني اشرهاك ؟ هل من الواجب بعد كل ماضى
ان تمنع حتى من التسول ؟ اذهب الى السلطات فقل لها على لساني
هذا الكلام كله . فليست أعيا بذلك . انني مستعد للذهاب الى المعتقل
اذا لزم الامر . لست أخاف ان يقال عني انني كيت وكيت . انت
تطلب مني ان أعود الى بيتي ، لا داعي الى ذلك . وانت تظن انني
أهذر . حين تمتلئ أعين الشرفاء من الناس بالدموع يصبح قلبه
أمثالك من حجر .

قال قره وقد سئم من حكايات الفلاح :

— القدر هو الذي أراد ذلك .

— أى قدر ؟ أى قدر ؟

— على أنا أعرف ؟ القدر .. اعنى ما يسمى بالقدر .

— أنا لا أفهم هذا الكلام .. ولكننى أسألك هل الذى قصصته عليك حدث أم لم يحدث ؟

— لنفرض أنه حدث .

قال قره ذلك وهو يرفع صوته . .

أراد المزارع أن يقرع سليمان مسكين وأن يؤنبه على هذه الثمرات . فأصغى سليمان الى كلامه وهو يصطنع هيئة النادم ، كما يليق ذلك بفلاح يمثل امام شخص خطير الشأن رفيع المقام . وكان هناك فلاحون آخرون اجتذبهم وجود قره ، فأخذوا يشهدون هذا المشهد من وراء سطوح القصب وجدوع الاشجار .

قال سليمان مسكين يرد على هذه المواءمات :

— اسمع يا مسيو . دعك من التدخل فى شئون غيرك ، والا نتفت لك شعر شاربيك .

ثم رفع يده فشد أحد شاربي المزارع وهو يفرق على نحو بدىء ، ثم شد الشارب الثانى شدا أقوى من ذلك أيضا ، ودار حول الرجل الضخم . ظل قره على حيث هو مشدوها فافر الفم . ثم حاول أن يفرض احترامه على هذا الفلاح الوقح ، فأهاب به أن يكف ، ولكن سلطته لم تجد نفعا ولم تسفر عن نتيجة . أراد أن يضربه . هيئات . وكان الفلاحون قد أخذوا يتلوون ويتعقفون .

كان سليمان يصيح :

— يا له من شعر اشهب جميل . شعر اشهب جميل . هاأنذا أنتفه .

وانفجر ضاحكا ضحكة طويلة ألقت الذعر فى وجه قره على . كان الفلاحون يحرسون على أن يظلوا مختبئين . وهرع بعضهم الى القرية يشد على خاصرته من فرط الضحك لئلا يذيع النبا فى الناس . ولم يستطع المزارع أن يهرب الا بعد لاي . ولولا أنه هرب لنتف سليمان جميع شعر شاربيه .

صاح به سليمان بعد أن ولى الأدبار يقول :

— عليك بالاهتمام بشئونك وحدها اذا كنت لاتريد أن ترى ذقنك تشوى فى يوم من الايام .

وكان المزارع قد نسي كل ما يجب لشخصه الكريم من احترام

وتوقير ، فجعل يعدو عدوا سريعا ، وغاب وسرواله الكبير المنفوخ يهتز
ذات اليمين وذات الشمال .

وانتشر الخبر بمثل سرعة البرق . ما عسى الناس يظنون بعد ذلك ؟
لقد ضحكوا ملء أصدقاهم . ومنذ ذلك اليوم أصبحوا كلما صادفوا
صديقا من أصدقاء السلطة ، يقولون لأنفسهم وهم يقرعون الركب :
— دعه . . لا بد أنه ملاق سليمان المسكين .
أو يقولون :

— اللهم أن لا يقع بين يدي سليمان مسكين . والا فلن يتخابث ولن
يصطنع المكر بعد أن يلقاه .

حاول قره على عدة مرات أن يظهر للناس بعد ذلك اليوم . الا أنه
كان كلما ظهر انهمر على ظهره وأبل من الضحك ، حتى اذا التفت الى
وراء لم يسمع شيئا ، ولم ير أحدا . لكان أرواحا من الجن هي التي
تلاحقه بسخرياتها . وكان ينظر الى الناس مستفهما مستطلعا ،
فيقترب الفلاحون منه ، ويتفرسون في عينيه وينتهي الأمر بأن يفقد
قره على ، صبره فيدمدم ويسعل : احم . . احم . . ولكن نوبات
السعال هذه لم تكن تجديه نفعا . وها هم الفلاحون يشيخون بوجوههم
عنه ، ويولونه ظهورهم .

وصرح لهم قره على عندئذ انه يرى أن كل فلاح يصل أسبابه
بأسباب سليمان مسكين فهو عدو للحكومة وعدو للإسلام .
فعقب أهل بني بوبلان على هذا بقولهم :

— معنى ذلك أن الناس جميعا هم في رأيه كذلك . . القرية كلها . .
أليس صحيحا ؟ أما أن كل من يصل أسبابه بأسباب سليمان مسكين
فهو عدو للحكومة في نظره ، فله أن يقول ذلك . . وأما أنه عدو
لالإسلام ، فاللهم كلا ثم كلا . .

لقد قال كومندار ان على عمر ان يعرف هذه الأمور كلها . ان عمر راقد الآن تحت شجرة البطم الكبيرة ، على حافة حقل قره . لكان هذا العصر من شهر آب وقف عند الزمان الازلي مليئا مثقلا مشحونا . النعناع البري والنباتات ذات الرائحة العابقة تجف وتيبس . لا شك ان هذا العصر ليس له نهاية ولا بداية . . . ان الفتى قد أضاع منذ مدة طويلة كل ذكرى عن الوقت . كل شجرة ، وكل حجر ، وكل حنية من حنايا الريف ، قد انصبت في مادة ساكنة لا تتحرك . وفي قرارة هذا الخدر الذي لا يوصف ولا يحد كان يسير النهار بغير قياس . وفي ظل شجرة البطم الكبيرة هذه ، في ظلها الخفيف ، كانت نظرات الصبي ترصد حضور الموت صامتا أخربس .

هل كان عمر يعرف هذه الأمور حقا ؟

ان الاطفال يتظاهرون أحيانا بأنهم لا يعرفون عنها شيئا البتة . وانتزع الصبي كشة من العشب وهو منصرف الى تأملاته . ونظر الى الحشائش التي قطفها ، ثم اخذ يمسحها في رذا وارتياح . انه يعرف الأمور . واخذ ينكش بأصابع قدمه العارية التراب الطرى الندى من ذلك المكان . انه يتعرف شجرة البطم . هاهو ذا بمد ذراعه ويلمس الشجرة : انه يتعرف القشرة التي تنمو حول الشجرة ويشد براحة يده شدا قويا على جذعها ، فتسقط منه قطعة خشنة : انه يفهم هذا أيضا . . . وانت الريح في أذنيه أينما خافتا . ان أوراق الاشجار قد استدارت تصارع الريح العنيفة . وسمع عمر هممتها .

قال كومندار : « حين صارت الشمس فوق رؤوس الحصادين توقفوا عن العمل . فلما انتصبوا قائمين سقط ظلهم على أقدامهم . كانوا جميعا سودا . تركوا الحقول ومضوا يجلسون تحت الأشجار . وانتظر آخرون قليلا : تركوا الآلة الكبيرة وحيدة وسط جداول النار التي تتكون في حقول الحصاد : ان الآلة الكبيرة تنحدي كل شيء . فكأنها بأجزائها الكثيرة التي من حديد ومن خشب ، المشابهة لأذرع عفريت هبط من السماء ، تبدو نائمة في الحقول هي أيضا . هذه القضبان الحمراء القاني لونها ، وهذه الأسنان الحديدية القاسية التي من فولاذ ، وهذا العري وهذه الدمامة كلها ، هذه العطالة وهذه القوة ،

كل هذا الذي اجتمع في كائن من معدن لا وجه له ، ولكن له اذرعاً ومخالب وأفكاكا ، هذا كله كان يلوح أن وجوده هنا انما يرجع الى مصادفة لا يدرك كنهها ولا يفهم سرها .

ووراءها ، من بعيد ، تقريبا على الحدود التي تری من مزارع القمح الممتدة ، كان حقل المستوطن الفرنسي ماركوس ، وبينه العتيق الذي بناه جده ، وظاهر هذا البيت المتشابه ، وافريره وفتحاته ولون آجره القديم الوردی الحائل ، وسقفه القرمي سدى المغطى بطبقة من الطحلب ، كان كل ذلك يبدو أنه هو الوجه الحقيقي للجزائر ، ولكنه ليس الا السطح الظاهر ... وللجزائر مليون وجه آخر .

هذا ايضا ، يفهمه عمر . كان عمر ينظر الى هذه المزارع التي تمتد امامه ملتوية تلوى تضاريس هذه البلاد ، فيرى القس المشوى الميت يزفر زفير اللهب وهو يتأرجح مع هبات الريح ، ويرى اكوام العشب المحمرة تبدو تارة كالذهب حين يأخذ في الانصهار ، وتارة كالشعر تهزه الارض على كنفها في استرخاء وهي متهاكة على نفسها من شدة الحر ، وبينما كان جريان الزمان يمضي في طريقه من قلب الصبي ، ويشير في نغمته الودود الاسيانه ، كانت الاكام تنتصب في المغرب شهباء مبقعة بالوان كألوان البنفسج ، مع ماعهد فيها من عداوة وبغضاء

قال الرجل العجوز كومنندار : « كذلك تجرى أمور العالم في كثير من الاحيان » .

اصبح عمر لا يدري أهو في البلد الذي تراه عيناه ام في بلد القمح الذي كان يصنعه له كومنندار .

ان لعمر ذهنا يقظا وحسنا سليما . وهو الآن سائر في السنة الحادية عشرة من عمره . ليس وجهه بالجميل جمالا خاصا ، غير أن فيه نعومة ورقة توشكان أن تبلغ أقصى ما يمكن أن تبلغه النعومة والرقعة في وجه من الوجوه . وكان عمر يملك غريزة عجيبة لا تخطيء . وفي هذه اللحظة ، بينما كان كومنندار يتكلم ، كانت رائحة جديدة الآلة تغزو منخريه . انه الآن متحدد على العشب يفكر : هكذا تجرى الامور . حقول القمح ذهبية شقراء ، بلون الخبز المحمر ، وفيها منذ الآن سنابل محترقة . وهذا هو بيت الفرنسيين ، بيت المستعمرين الذين يملكون كل شيء ، الارض وبيادر الحصاد ، والاشجار ، والهواء ، والرجال فوق ذلك كله ، وكذلك الطيور ، وربما كانوا يملكونني انا ايضا . كل شيء في هذا الكون راسخ متين ثابت مستقر ، كل شيء

يبدو قائما في مكانه من هذا الوجود الرحب الساطع الكبير ، الأرض وهذه المزرعة ، هذه السماء المهتزة وهؤلاء العمال الذين يذهبون ثم يعودون الآن لأن عليهم أن يستأنفوا العمل ، هذه الآلة وتلك الروابي العارية وهذه الانفاس التي تخرج من صدورى ، كل شيء فى هذا العالم يبدو مرتبطا منظما .

جمد النهار على تأمل الفتى : الطيور بين أوراق الأشجار ، الركوب والدعة ، دقات تسمع من بعيد ، همهمة رتيبة : ساعة من العصر فى الفضاء الساكن الحميم .

قال كومندار : « وما حدث بعد ذلك تصعب متابعته . ان صوتا معولا رهيبا قد انطلق يشق الهواء الهادى ، ويملا الحقل بحنى ضخمة . كانت الآلة تهز مفاصلها الفولاذية الكبيرة فى وحشية أن رجلا قد انطوى فيها فهو يتحرك محاولا أن يتخلص منها ، ولكنه يظل معلقا بها وقد انغرزت أسنانها فى جسمه .

وأخذت قطرات ضخمة من الدم تنهمر ببطء على السنايل التى حلقت منذ لحظة . ثم نزلت النهاية نزول الصاعقة ، ان هذا الجهاز المعقد من الأذرع والروافع قد تفضض دفعة واحدة وهو يقرقع قرقعة شديدة : فانخبط العامل على الأرض وانسحقت عظامه . انه لم يعد انسانا بل أشلاء سوداء . وهرع كلب كبير وهو يوعوع ، وتجمد أمام الجثة فى دهشة . ثم اخذ ينبح نباحا طويلا . وما هى الا لحظات حتى امتلأت الحقول بالناس ، على هتوئها فى تلك الساعة ، كأنما الأمر سحر . تبع عمال من كل جهة من الجهات ، فزاد بهم عدد الذين كانوا يعملون هناك ، وأخذوا يتزاحمون فى دائرة مضطربة محتاجة يحاولون أن يتكلموا جميعا فى آن واحد . ان كلا منهم يروى الآن قصته التى وقعت له ، ويناقش ويشرح » .

كان عمر يرى هو أيضا هذا الحشد ، ويرى حشمان الرجل فى وسط الدائرة باردا كل البرود . لقد فات الاوان . أوان ماذا ؟ العامل مات منذ الضربة الأولى ، منذ اللحظة التى ارتطم فيها بالأرض .

قال كومندار : « تحطمت كليته ، وتهشمت عظامه كلها تقريبا . كان الدم يرشح من جسمه بغير انقطاع ، فيسقى الأرض ببقع حمراء لامعة » .

التفت عمر نحو الأرض لاهثا .
وأستأنف كومندار حديثه :

« وظل الكلب الاسود الكبير هناك . كان يهتز ويلهث كقاطرة ، وكان لسانه الكبير يتهدل من فمه بطوله كله . كان يمد رأسه الضخم ، فيرى ارتعاش فمه الكثيف ، واضطراب عضلات رقبتيه القوية . وطلق عدد من الفلاحين يحاول طرد الكلب . ان صاحب الكلب هو صاحب المزرعة .
قالوا :

— اذهب يا كلب التحس . ملعون انت واصحابك .
راى عمر الكلب وهو يتعد ثم يتوقف ثم يتقدم نحو الجميع براسه الضخم ويهمهم واقفا على قوائمه المتباعدة ممثلا بحرارة جهنمية . قال كومندار : « وخرج مسيو أوجوست وهو رجل فى الخمسين من عمره ، خرج من بيته راكضا . وهاهم أولاء يروونه واصلا اليهم بخطا سريعة بعد أن أغلق الباب الكبير . ان وجهه وهو وجه رجل شبعان ، يتمتع التماع شعره الوردي ، وعلى ساقيه القويتين يجثم جذع عريض . ان كرشه يطفح فوق حزامه .
فلما صار امام الجمع اقترب منه الكلب الاسود الكبير .
« قال بعض الفلاحين :

« — مساء الخير ، مسيو أوجوست .
« — وقع شيء رهيب يا مسيو أوجوست . تعال انظر .
« فأمسك مسيو أوجوست بطوق الكلب بحركة آية ، فجعل الكلب يشد الرجل شدا قويا وهو يتبع نباحا مسعورا . لم يظهر الفلاحون آية علامة من علامات تفاد الصبر أو علامات العداوة ، فهم لا يريدون على أن ينظروا بأعينهم منتظرين ما سيفعله الفرنسى . وأخذ مسيو أوجوست يطلق الشتائم واللعنات وهو ممسك بكلبه .
قال كومندار :

« وفى تلك اللحظة وصل فرنسى آخر يترنح على ساقين قصيرتين عجيبتين . انه مسيو ماركوس نفسه ، الرجل الذى كان الفلاحون لا يلمحونه الا لاما . وارتفع صوت مسيو ماركوس ، المرتج ، ارتفع واضحا صارما ، فسرعان ما سيطر على صيحات الوكيل ، الذى صمت أخيرا .

« — لا يلمسه أحد . هلموا انتم . الى العمل جميعا . اسرعوا . .
أصدر مسيو ماركوس أوامره هذه كلها باللغة العربية . ولاح على الرجال أنهم لا يستطيعون تحويل ابصارهم عن هذه الجثة الممزقة ، عن هذا الجثمان الساكن . ومع ذلك تفرقوا شيئا فشيئا . وقال مسيو ماركوس بالفرنسية فى هذه المرة ، متجها بالكلام الى وكيله :

« - هاتوا غطاء من البيت ، والقوه عليه ، الى ان يصل رجال
الدرك . ولن يتأخروا عن الوصول . اما هؤلاء فيجب ان يعودوا
جميعا الى أعمالهم . استبق واحدا أو اثنين منهم للاجراءات . ولا
قلعهم يتكلمون كثيرا . سأتولى شرح الامر لرجال الدرك بنفسى .
فيفهمون ان الحادث يرجع الى طيش الفلاح .
ثم التفت الى العمال قائلا :

- الى العمل ، الى العمل ، والا حسمت اجور الساعات الضائعة .
كان الاضطراب الذى يهزه يشعل بالحجرة خديه الصغيرين .
- شىء مزعج والله . كنت أنوى أن أكون فى المدينة فى الساعة
الثالثة . . . ومز الفلاحون أمانه بوقار وامتنال . وحياء كل منهم بوضعه
يده على جهة القلب من صدره . فكانت التحية تعبر عن اللبساقه
والاحترام . ولكن مسيو ماركوس لم يحفل بهذه المظاهر كلها . ان مسيو
ماركوس سيد من كبار السادة ، فهو سليل أسرة من المستعمرين ،
عظيم نبيل . انه بالدم والثراء ابن عم عدد من السادة المشهورين هم
اصحاب مساحات شاسعة من الاراضى وورثتها .

كان عمر يعرف مسيو ماركوس . لقد حاول ذات يوم ان يدخل
اراضيه من أحد الاسيجه ، فوقعت عليه نظرته الشاحبة حادة كأنها
شفرة سكين ، وبدت للصبى مثقلة بالقسوة . ففهم عمر ان عليه ان
يسارع الى الهرب . ولكن النظرة التى وقعت عليه كانت تطوف فى غير
هذا المكان . ان مسيو ماركوس لم يره . لقد كان يحلم .
روع عمر اذ تصور ان هذا الرجل يملك آلة مثل هذه الآلة . فكر
فى الموت الذى تسببه . تخيل اضطراب العمال والانفعال الرهيب
الذى هز نفوسهم فى ذلك الظهر الهادى الذى كان يخيم على البلد
كله بلا حركة ولا رعشة . ان الوعيد الذى خلق عندئذ فى الهواء ،
مسلط فوق الرموس كقبضة عمياء ، كلعنة .

كان على الصبى ان يفهم هذه الامور كلها ، لذلك كان يفكر ويبتلى
التفكير ، وهو مستلق على العشب يصفى الى كلام كومنذار الذى
كان يتحدث عن حياة الفلاحين المقضى عليها بالهلاك . كان عمر يعرف
هذه الامور حقا . دون ان تكون به حاجة الى التفكير فى كل منها على
انفراد . لقد سبق ان أدرك عقله العلاقة بين هذا الموت وبين ذلك
التعب الشقى الفقير الذى تعانيه أمه ، وأدرك العلاقة بين حياة
الفلاحين وبين جوع دار سبيطار . وها هو ذا يتخيل رجال الشرطة
وهم يدخلون ذات صباح الى دار سبيطار .

قال كومنندار :

« الذي مات مات ، وعرف مم مات » .

قال عمر بينه وبين نفسه : أما كل ما عدا ذلك فلا يزال كما كان من قبل . لم يتبدل شيء ، إلا أن عاملاً زراعياً قد غاب ، فنقص عدد العمال واحداً . هذا هو الموت . وهذا هو سببه : سببه هؤلاء الناس الذين يعيشون في بلادنا مستعمرين . ما موت قلاح ؟ تمزق وحشر سريع . ثم لا شيء بعد ذلك . وتسير الأمور كما كانت تسير . ترى والذي سيضير إليه هذا كله : حياة أهل بنى بوبلان ودار سبيطار ، وهؤلاء الفرنسيون ، وهذا الموت ؟ .

ترك عمر لفكره أن يسترسل غائصاً في حلم الموت ، وهو متمدد على العشب . وقال يخاطب نفسه : اللهم يا قادر ، يامن يحيط بعلمه كل شيء ، أنا أيضاً أعلم وأرى ، فأفهم كيف تجري الأمور ، أفهم أنها غريبة بسيطة وفظيعة ، جميلة ورهيبة ، وأنها واضحة ومألوفة . ولكن ما الذي سيحدث بعد ؟

وفيما كان الصبي يحدث نفسه بهذا الكلام ، سمع ساعة المنصورة تدق الثالثة فتساءل : ترى هل استطاع مسيو ماركوس أن يكون بالمدينة في الساعة الثالثة من ذلك النهار بعد وقوع الحادث .
قال كومنندار :

« ما أكثر ما نحب أن نعرض بؤسنا . أليس هذا ما يقوله عنا أولئك الذين يحرسون على ألا يتغير شيء ؟ نعم . . يكفي أن يتغير أى شيء يسير مما هو قائم ، حتى يداخل نفوسهم الخوف » .
نظر عمر إلى كومنندار ، وتساءل عن هذا العجوز المشدود إلى هذه الأرض بلا ساقين ، ألا يشعر في بعض الأحيان بضجر مهلك لا خلاص منه .

ثمانية أو عشرة جالسون تحت شجرة قديمة من أشجار التوت . ثمانية أو عشرة من رجال القرية ، ومعهم مزارع نزل من بنى بوبلان الأعلى . أن انحدار الوادى يبلغ الظل الساقط من الشجرة . النهار متعب والسماء صافية بلا غيوم ، والحر شديد يفرغ الفضاء . هي الساعة الثالثة بعد الظهر .

الطريق يتشظى ، تحت ، ويتلوى ، ثم يغيب في الأفق البعيد الذي يتهزز في خلال ضباب ساخن . صمت الريف المقفر يسطع سطوعاً قوياً . وفي الحقول الحجرية التي يملكها مزارعون من أهل البلد

تنتصب سوق القمح قصيرة هزيلة .

قال سيد علي وهو يشير بيده الى سوق القمح :

— لقد امتصت كل شيء ، امتصت كل ما في هذه الارض ، ولن
تزداد علوا .

كان بن ايوب احد افراد الجمع . انه هو المزارع الذي نزل من
بنى بوبلان الاعلى . واليه انما اتجه سيد علي بالكلام . كان الفلاحون
يقدرون مشاعر الصداقة التي يحملها لهم بن ايوب . لقد جاء يشارك
في اجتماعهم . انه لن يتردد عن تلبية طلبهم حين ذهبوا يدعونه الى
المشاركة في هذا الاجتماع ، بل قال على الفور :

— « طبعاً » ومضى يتبعهم تاركاً العمل لاولاده .

وفي أثناء الطريق أبلغه الفلاحون أن حميد سراج هو الآن في بنى
بوبلان .

فقال المزارع :

— اننا نحن أبناء القرى ، نقدر الرجال بعلمهم وعقلهم . فاذا كان
من اهل العلم والعقل فأهلاً به وسهلاً . سنظل دائماً في حاجة الى
رجال من أمثاله الى جانبنا .

فلما وصل بن ايوب الى مكان الاجتماع حياه الحاضرون في ادب .
وأعجب حميد سراج بما يلوح في وجه هذا الرجل العجوز ، الذي
لا يعرفه ، من أمارات النبل والشهامة .

قال حميد سراج بينه وبين نفسه :

ان به ما بأصائل الخيل من قوة وصلابة . على ان مسحة من
الحزن كانت تغشى نظرة الرجل العجوز ، عجب لها حميد سراج .
قال بن ايوب :

— سيسبق قمحنا متى تحررت أرضنا .

فأخذوا جميعاً يتكلمون . ان بادعدوش يتنهد من حين الى حين
وعلى بن رباح يتدخل بكلمة بين الفينة والفينة .
قال بادعدوش فجأة :

— ما أشد ما كانت تشعر به هذه الأرض من آلام ، لو كانت حية .
قال ذلك وطاف ببصره على الحقول الداوية ، المجرودة ، هنا
وهناك .

فقال بن ايوب وهو يهز رأسه :

— آ . . . نعم ، لشد ما كانت تكابد من آلام . .

فسأل سليمان مسكين :

— عن أى شيء يتكلمون ؟

فصمتوا جميعا .

وابتسم بادعدوش ابتسامة طيبة ، غير أن الحاضرين أدركوا أنه حزين يائس ، ولاح عليه أنه لم يسمع السؤال . قال :

— لا شك أنها حية . ولا شك أنها تعاني آلاما شديدة .

قال بادعدوش ذلك وهو يتحرك ويهز في الهواء ذراعيه الطويلتين اليابستين . وأضاف وهو يشمر كفيه الواسعين الى كتفيه :

— اسمحوا لى . أنا رجل عجوز ، ومن حقى أن أقول ، كل شيء . لذلك يجب عليكم أن تففروا لى كلامى . هاكم ما أريد أن أقوله : رغم أننا قرويون وانا بذلك نستحق شيئا من العطف فإن تكبر سكان المدن أقوى من أن يشجعنا على الدخول فى باب الصداقة .

— يالها من بداية . وتساءل الحضور ما عسى أن يكون الختام بعد استهلال كهذا الاستهلال .

أن بادعدوش لا يستعمل الالفاظ النادرة الالماما فى ظروف نادرة . والفلاحون يحملقون من الدهشة حين يسمعون منه مثل تلك الكلمات .

وتساءل الفلاحون عن بادعدوش : أين تعلم هذه الالفاظ ؟ قال أحدهم يخاطبه :

— تكلم يا بادعدوش كما يتكلم سائر بنى آدم . فما أنت إلا فلاح ! أن (بن سالم عادة) هو الذى قطع عليه الكلام محاولا منعه من التأثير فيهم . وتابع بادعدوش يقول فى فخامة وهو يلتفت الى حميد سراج :

— أن هذا السيد الحاضر هنا رجل من أهل المدن ، لا نشك فى أنه عالم ومتبحر فى جميع العلوم . . هذا لا نشك فيه ، أنه رجل عظيم من سكان المدن . .

صاح بن رباح :

— ما هذا يا بادعدوش . . أنت مخطيء . لقد انجرفت عن جادة الصواب . إذا جاز لى أن استعمل هذا التعبير . حميد هو أخونا جميعا .

فأجاب بادعدوش :

— طبعا . وهذا يشرفنا كثيرا . وأنا أعترف بأن من الممكن أن يكون ابنى ، بل أنه لطيب لى أن اسميه ابنى ، مع أجزل الاحترام الذى يجب له على . أنا لا أريد أن أقول ما قلت للأسفاء إليه .

صدفوني ، أن شعوري لصادق ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن ، درس كثيرا ، ولا شك أنه قرأ كتباً كبيرة . وإذا جاء إلينا نحن الفقراء ، نحن البؤساء ، نحن الفلاحين ، بعد أن حصل ذلك العلم كله ، فلأن في تلك الكتب التي قرأها شيئاً قاده إلينا .

ابتسم حميد ابتسامة ضعيفة . وكان الجميع يتفرسون في تلك التعابير الغريبة التي تظهر في وجه بادعدوش . وكان بادعدوش ما ينفك يرسم بذراعيه في الهواء حركات عريضة بطيئة . كان الفلاحون ينظرون مقطبين . لقد أذعنوا لأرادته ، فليقل ما يريد أن يقول . . .

— . . . وإذا كانت العلوم التي أخذها من الكتب ، وإذا كانت المعارف العميقة التي أطلعته عليها الكتب ، قد فتحت له الطريق إلينا نحن المساكين الذين لا نساوي شيئاً ، إذا كانت تلك العلوم وتلك المعارف قد قالت له أننا خير من بعير البقر ، فلا شك أننا نستطيع أن نثق به وأن نطمئن إليه . ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن . فيجب علينا أن نشرح له ، يجب عليه أن يعلم أن . . .
وشعر الفلاحون بالقلق .

وتابع بادعدوش يعبر عن فكرته في عناد قائلاً :
— يجب على هذا السيد الحاضر هنا أن يعلم مع أنه ما من شيء جديد قد حصل إلى الآن في هذا العالم يمكننا نحن الفلاحين أن نتحسر على جهلنا به رغم أننا لا نساوي شيئاً .

فما إن قال بادعدوش هذا الكلام حتى انطلقت الضحكات من كل جهة . أما هو ، بادعدوش ، فقد ظل محافظاً على وقاره . الحق أن قلبه ما كان يشتهي أن يضحك . وكان وجهه المشدود يعبر عن حزن قاتل .

— ولكن السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن . . . وصعق الفلاحون ، وأصبحت وجوههم الآن حزينة مظلمة . كيف السبيل إلى وقف بادعدوش .

— . . . هلا شرح لنا كيف يقبل سكان المدينة الاتفاق مع الفلاحين ؟

طرح بادعدوش هذا السؤال ثم صاح : . . . وملا الضحك عندئذ كل تجاعيد وجهه . وتابع يقول :

— انهم يقترحون علينا أن نتحد ، وأن نؤلف حركة واحدة من أجل أن نهز عن أجسامنا الحشرات التي تأكلها . وأنا أقول إنه من الممكن أن يبرا العالم من الداء الذي به . والجديد يطرد القديم ما في ذلك شك . ولكن كيف يمكن أن يتفق سكان المدن مع الفلاحين ؟ لعل السيد الحاضر هنا يستطيع أن يشرح لنا هذا الامر ..

قال حميد سراج :

— انما نحن اجتماعنا لتناقش معا في هذه المسائل . فليس الغرض من هذا الاجتماع أن يلقي واحد منا خطبا طويلة وأن ينصت له الآخرون . يجب أن يشارك كل واحد في المناقشة وأن يبدي رأيه ..

صباح با دعدوش :

— هذه فكرة عظيمة . ولكن هل في وسع الجميع أن يعبروا عن رأي ؟ اذا كنت تقصد الشيوخ ، فنعم ، ذلك ان الشيوخ حكمة وتجربة . اما الآخرون ، الآخرون ، فهل هم كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك وقطب حاجبيه تحديا وهو يطوف بنظراته على الحضور ..

قال بعضهم :

— فلنبدا المناقشة . لقد تأخرنا كثيرا .

فقال با دعدوش ، مصرا على تجاهل ما قيل :

— هأنذا أبدى اذن رأيي . اذا أمكن أن يتحد الفلاحون وسكان المدن ، أمكن الانتقال الى عالم أسهل . ولكن ذلك لا سبيل الى تحقيقه . اننا نعرف ماذا ينتظر منا (صاح يقول ذلك في حدة) اننا نحن الذين سنحيي هذه الأرض ، نحن الذين سنبعثها . ان هاتفا خفيا يقول لي اننا مدعوون الى تحقيق هذا الهدف ..

وصمت با دعدوش فجأة ، وغرق في تفكير عميق .

قال سليمان مسكين بصوت رقيق :

— هل لي أن أطرح سؤالا ؟

كان سليمان قد التزم حتى تلك اللحظة موقفا مليئا بالتحفظ .

— سأكون سعيدا ، سأكون سعيدا جدا اذا عرفت هل نحن في اجتماع ؟ أو ان الامر لا يعدو أن يكون لقاء بين فلاحين جاموا الى هذا المكان ليتحدثوا فيما هب ودب من أمور . أرجو أن تلاحظوا اننى أطرح سؤالا لا أكثر . ولست بالمتنطع الذي يومئ الى شيء أو يعرض بأحد .

جاء هذا الكلام وسط الصمت الذي أعقب كلام با دعدوش ، فكان بعا فيه من براعة ومكر أشبه بماء بارد انصب على أجسام هؤلاء الفلاحين . أراد كل واحد منهم أن يرى ما عسى أن يقوله جاره أو يفعله ، وتجمع الانتباه كله حول سليمان مسكين . فالتفت سليمان إلى حميد سراج ، فقال حميد سراج :
- أقترح افتتاح جلسة الاجتماع .
فصاح عزوز على :
- بل ينبغي أن نعدّها مفتوحة .
فقال عدد من الحضور :
- نعم ، نعم ..
وقال المزارع موافقا :

- أن ذلك يجنبنا كثيرا من الكلام الذي لا طائل تحته ، وإنما ينبغي أن تجرى الأمور ببساطة وفي غير تعقيد .
قال حميد سراج :
- في هذه الحالة يجب أن يكون للجلسة رئيس يديرها ، فيعطى الدور في الكلام لمن يرى منا أن في ذهنه شيئا يريد أن يعرب عنه .
فقال أحدهم :
- رئيس ؟ ما شأن الرئيس في اجتماع فلاحين ؟
- لم نفهم .. نعم ، ما هو الرئيس ؟
- ما هو الرئيس ؟ ألم يقل لك منذ لحظة ، أيها الجاهل ، أن الرئيس هو الذي يعطى الدور في الكلام لمن يريد أن يتكلم أثناء الاجتماع ؟
فاعترض با دعدوش قائلا :

- غير أنني لا احتاج إلى رئيس من أجل أن أتولى الكلام . أنني أتولاه وحدي .
فقال على بن رباح :
- قيل لك أن الفرض من ذلك هو تجنب الفوضى . وستسرى هذه القاعدة على الحضور جميعا ، لا يستثنى منها أحد ولا تستثنى منها أنت .

فقال أحد الفلاحين معلقا :
- كذلك نحن معشر الفلاحين . نرغب صادقين في تحسين أحوالنا بل وفي تبديل العالم ، ثم نعجز عن عقد اجتماع من الاجتماعات في هدوء .

- اشرح لنا .. لماذا ..
- فأجاب حميد سراج :
- سأقول لك ..
- فانطلقت أصوات تطلب الصمت :
- صه .. صه ..
- لقد اجتمعنا هنا لنتناقش في أمور تهمننا . ومعنى ذلك ان كثيرين منا يريدون أن يتكلموا ، فاذا تكلمنا جميعا في آن واحد عجز من في الشرق عن سماع كلام من في الغرب ، واسـتـولى الاضطراب والاختلاط على أقوالنا رغم ما تحمله من حسن النية . لذلك لا بد من رئيس يرأس الجلسة اذا كانت الامور التي نريد ان نتناقش فيها تهمننا ، فهذا الرئيس هو الذي يسمح بالكلام لمن يطلب الكلام ، وهو الذي يسهر على ألا يشوش اجتماعنا مشوش .
- كلامك صحيح أيها الاخ ..
- الله يرحم أجدادك .
- رئيس ، رئيس ، من يكون الرئيس ؟
- بن أيوب ..
- سيد علي .
- لا ، يا دعدوش .
- وضحك الجميع .
- سيد علي ، سيد علي .
- وردد عدة أشخاص يقولون :
- سيد علي ، سيد علي ..
- فسأل حميد سراج :
- هل يوافق الجميع على أن يكون سيد علي رئيس الجلسة ؟
- وهل سيد علي موافق على ذلك أيضا ؟ اذن انتهينا . سيد علي هو رئيس الجلسة .
- قال علي بن رباح :
- سيكون أمرا مؤسفا حقا ألا نستطيع تسيير الامور الآن كما ينبغي أن نسير .. ها .. عفوا .. أنا لم اطلب الكلام .. هل يسمح لي الرئيس بالكلام ؟ أقول : سيكون أمرا مؤسفا حقا ألا نستطيع الوصول الى جوهر الموضوع من جانب أو من آخر .
- قال سليمان :
- ليس هناك الا أن نعرف قورا ما الذي يجب علينا أن نقوم به من عمل . ؟

فقال على بن رباح :

- أبدا .. وإنما يجب أولا وقبل كل شيء أن نتفق . يجب أن يفكر كل واحد منا بكل حرية ، وأن يعرب عن رأيه . ولن ننتهي إلى تقرير ما يجب علينا أن نقوم به من عمل إلا بعد ذلك . والا لم نجر الأمور على ما نحب .
قال با دعدوش مستاء :

- ما هذا الكلام أيها الشبان ؟ حقا ان الشبان شبان في كل زمان ومكان . طبعاً أنا موافق . موافق وموافق . والا لم تروني في هذا المكان .

قال المزارع الذي لم يكن قد فتح فمه بكلمة منذ مدة :

- كذلك نحن معشر القرويين ، كذلك نحن من زمان طويل : اذا طلب الينا أن نقوم بعمل من الأعمال ، أخذنا نناقش ، ونتحري جميع الاسباب والحجج التي تعفينا من العمل . نكتشف العقبات والحواجر في كل مكان ، ونبحث عن الاعتراضات على كل شيء ، ونلتمس جميع الأدلة التي تبرهن لنا على انه ما من سبيل الى فعل أي شيء من الأشياء ، وانه ما من وسيلة الى التحرر من حالة السكون ، سكون الصخر ، التي صرنا اليها . حتى لكان لسان حالنا يقول : فليبق كل شيء على ما هو عليه أبد الدهر . فاذا رأينا أمرا معوجا ، اذا رأينا أمرا لا يسير على ما نحب ونرضى ، قلنا هي مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته . حتى اذا فرغنا من مثل هذه الأقوال الجميلة ، رضىنا عن أنفسنا وخلصنا الى الراحة ! كذلك نحن معشر القرويين .. قولوا لي من فضلكم : ما هو العمل الذي تكون قد قمنا به حتى نخلد بعده الى الراحة ؟ اننا نحس اننا حققنا ما علينا ، وان الواجبات قد سقطت عنا . والحق اننا لا نبالي شيئا ولا نكثر بشيء ، لا نبالي حتى بحياتنا ، رغم انه قيل : اعمل لاخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا .

قال المزارع هذا الكلام وهو ينظر الى الفلاحين واحدا بعد واحد ، وفي عينيه نوع من رجاء صامت أو ضراعة خرساء ، فاذا بجميع هؤلاء الرجال يصبحون على حين فجأة مهمومين مغمومين . والتفت المزارع الى حميد سراج وأردف يتابع كلامه :

- أرجو ألا يجعلك هذا الكلام تسيء الظن بنا ، فتخاف أو تثبط عزيمتك . وأرجو ألا تستاء .
ثم أضاف يخاطب الفلاحين :

— اننا في حقيقة الامر متفقون . متفقون خاصة على أن نعمل ،
ولكننا درجنا على أن نتكلم كثيرا قبل أن نعمل أى شيء . نحن
اناس نحب الكلام . أرجو خاصة ألا تستأعوا مما أقول :
وكان يبدو على با دعدوش العجوز أنه حائق تقريبا ، ولكن
عينيه الصافيتين ظلتا فرحتين .
وختم المزارع كلامه بقوله :

— نحن اناس حزاني ، والحق يقال .
— فقال له بادعدوش وهو ينظر اليه بعينيه الجدلتين اليائستين
معا :

— حزاني ؟
فاجاب المزارع يردد في هدوء وحلم :
— حزاني جدا ... اننا مستعدون دائما لان نرى كل شيء من
جانبه المظلم السيئ ...
فتلقى العجوز هذه الكلمات بوجهه دون أن يجيب عنها بشيء .
وأردف القولوغلى الكبير يتابع كلامه بقوله :
— نحن ما ننفك ننتظر شيئا جديدا ، ثم ما ننفك نياس من
الحصول عليه ..

قال با دعدوش مرتبكا ، وقد أخذ ينظر في يديه على حين فجأة :
— هذا صحيح .
فأضاف المزارع يقول دون أن يحول بصره عن العجوز :
— قد يكون صحيحا ، ولكن ما معناه ؟
فقال با دعدوش دون أن يرفع راسه :
— ها . . . نعم . . .
— وهذه هي النقطة الهامة ، هل فهمت ؟
قال القولوغلى الكبير هذا الكلام ، وهو يطوف ببصره على
الفلاحين :

— النقطة الهامة هي أن هناك شيئا يؤلنا . هذا ما اعتقده .
قد لا أستطيع أن أشرحه ولكننى اعتقده . ما الذى نفعله حين
نؤمن ونعد كل شيء ضائعا ؟ نفعل الشيء الذى نكرهه أشد الكره . .
يخيل الى أن هذا هو الامر . وذلك بعينه هو ما يجعلنا حزاني
جدا . . ألا أنه الامر واضح مفهوم . . ولكن من قال ان كل شيء
قد ضاع ؟

ونظر حميد سراج الى المزارع الذى صمت .

وراح المزارع يتأمل الحقول الحزينة التي تختنق بين الصخور .
هذا شعب الجزائر ... هذا هو الواقع ، واقع . أما الاراضى الفنية
الثقيلة المتعبة بالزراعة فانها تبدو لعينيه حلما من الاحلام . وفي
هذه اللحظة أصبحت نظرتة رقيقة ، حاتية ، فارغة ، تائهة ..
واكاد أقول مؤثرة .
وتابع المزارع :

- اننا نراقب أنفسنا ، فنقول : كذلك هو شعبنا . اليس
صحيحا ؟ اليس هذا ما نقوله ؟
قال المزارع ذلك وضحك على مضض ، وايد الأخرى كلامه وهم
ينتظرون تتمته :

- يخطر ببالي واحد من الناس ليس الا مزارعا هو قره ، فأقول
لنفسى أحيانا : الا اننا لشعب حزين ، فلولا اننا شعب حزين أكنا
نقول : كذلك هو شعبنا ، مشيرين الى رجل واحد هو قره ؟ أكنا
نقول ذلك ؟ والآخرون الذين ليسوا مثل قره ، أهم جميعا أصفار ؟
ثم قال القولوغلى الكبير بقوة :

- ما أظن ان فى الدنيا مكانا يحتقر فيه هذا الجنس من الناس
كما يحتقر عندنا .. صحيح ان عددهم كبير ...
شعر جميع الفلاحين بغضب وحزن ، وشعروا بقلق .
وأضاف القولوغلى الكبير يقول :

- فاذا كان هؤلاء محتقرين ، اذا كانوا يحتقرون فى هذا البلد
أكثر مما يحتقرون فى أى بلد آخر ... اذا كنا ننقص عليهم حياتهم ،
فلماذا نقول اننا شعب حزين ؟

لاشك ان المزارع قد قال هذه الكلمات فى سبيل مصلحتهم
جميعا ، ولكنها أيقظت فى قلوبهم حزنا كبيرا وغضبا كبيرا . فكانوا
ينظرون اليه مهتاجين .

ثم راح المزارع يتحدث عن نفسه . قال انه ولد فى تلمسان ،
حيث ولد أبوه ، وولد جده ، وولد أبو جده ، وان ماضى أسرته
فى تلمسان قديم قدم تلمسان نفسها ، وان هذه السلالة الطويلة
من كبار القولوغلى ، قد زرعت الارض السخية فى السهول ، وان
أملأها تحت الشمس كانت تعد فى الماضى بالفدادين . ثم ها هو ذا
ينتهى به الامر ، هو القولوغلى الكبير ، الى ألا يملك الا هذا
الجزء الصغير من الارض فى الجبل . نعم ، قطعة صغيرة من
الارض ، وفى بنى بوبلان الاعلى . انه مزارع ، مع انه ولد بمدينة

تلمسان ، مع انه من تلمسان . طيب . وعلى كل حال فهو يقيم
الآن في بني بوبلان بين جبل عطار وطريق سبدو ويملك أرضا ليس
لها شأن يذكر ، ولا تكاد تكون شيئا . وهو أب لثلاثة أولاد كبار .
وحين يطوف في أرضه يشعر رغم كل شيء بالزهر . فهو يقول لنفسه
عندئذ ، من فرط شعوره بالزهر ، انه ملك . وهو يسمى أولاده
تارة باقات الزهر ، وتارة أسود الفلاة . غير انه لا يحس أن هذا
كل شيء ، ولا يبدو له انه يكفي المرء أن يحسب نفسه ملكا وأن
يكون له ثلاثة أولاد هم أشبه باقات الزهر أو بالأسود . انه يحس
بشيء حزين في نفسه ، لا شيء حزين ، بل شيء جديد . ويحس
أيضا بأنه غير راض عن حاله ، ويحس بالكثير من خيبة الامل .
انه يحس ، نعم هذا هو احساسه ، بأنه مختلف عن مزارعي بني
بوبلان الأعلى ، ويود لو يرتاح ضميره بأي ثمن .
- يخيل الى أن ضميري لن يهدأ أبدا .
قال ذلك وصمت دون أن يتم كلامه .
ثم قال :

- وقد اشتد هذا في نفسي منذ رأيت سلوك قره . يخيل الى
ان راحة ضميري ما انفكت تقل منذ ذلك اليوم .
قال بادعدوش :

- صحيح كلامك أيها السيد .
فنظر اليه القولوغلي الكبير من قمة الرأس الى اخمص القدمين ،
ومن أطراف يديه الضخمتين الى شعر حاجبيه الكبيرين .
وعاد الفلاح العجوز يقول له :
- اعتقد أنك على حق فيما تقول .

فقال القولوغلي الكبير عندئذ انه يود أن تهب على الناس روح
جديدة فتحملهم على القيام بأعمال تبعث على الدهشة ، بأعمال
جديدة أيضا ، بأعمال ليست من تلك الاعمال المألوفة ، بل هي
أحداث جدة وأخطر شأنا . وانه يتمنى في هذا اليوم ، لنفسه
وللآخرين ، روحا وثابة وأهدافا عليا . اذا كان الناس حزاني
فلأنهم تعوزهم روح جديدة وأعمال كبيرة . ان العالم لا يطلب الا
تحقيق أعمال كبرى . فلا عجب إذن أن يحس ، هو القولوغلي
الكبير ، بأنه وحيد مع حزنه : ذلك لأنه لا يحقق أى عمل من تلك
الاعمال التي تبدل العالم . الاعمال الكبيرة والنفس الجديدة .
هذا ما يتمناه .

بهذا ختم الرجل كلامه .
ثم ما لبث أن أردف يقول :
- أن العالم يتحمل مظالم كثيرة . آه ما أكثر ما يتحمل هذا
العالم من أذى أيها الأخوة . أننى أتألم أيها الأخوة ، أننى أتألم أيها
الأخوة .

فقال سليمان مسكين :

- أنت تأخذ على الناس إذن أنهم لا يعرفون كيف يعيشون .
فأجابه القولوغلى الكبير :
- هو ما تقول .

- ولكن قبل أن يعرف أخوانك كيف يعيشون ، يجب أن
يتعلموا من أن يعيشوا . ما رأيك ؟

- صحيح ، صحيح .

- فهل نحن نعيش ؟ نحن والآخرون . . من نعرفهم ومن لا نعرفهم
وهم السواد الأعظم ؟ هل نحن نملك حرية الحياة ؟
- لا نملكها .

- نحن لا نملك إذن حرية العيش كما نريد .

- اسمح لى : لو امتد عمرى مائة سنة فساظل أقول ما قلت .

- حسن أن تقوله . قل ما تشاء أن تقول . ولكننى واثق أننا
لا نستطيع أن نلوم أحدا على أنه يعيش كما نعيش ، إلا إذا كان حرا .
- أنا من جهتى مستقل بشخصى . أنا حر حين أريد .

- قد تظن أنك حر بشخصك . ولكن شعبك ليس حرا ، وأنت
إذن غير حر أيضا . ذلك أنه لا وجود لك إلا فى شعبك . هل فى
وسع ذراعى هذه أن تعيش بغير جسمى ؟ أبدا . ومع ذلك قد
نتوهم حين نرى حركتها أنها مستقلة ، أو قد نتوهم أن هذه
اليد مستقلة عن الذراع ، أو قد نتوهم أن هذه الأصابع التى تقبض
على ماتريد القبض عليه ، قد نتوهم أنها مستقلة . كذلك شأنك
أنت بين أخوانك .

- على كل حال سوف يسعدنى كثيرا ، سوف يسعدنى كثيرا
جدا أن أرى جميع الناس كالباقات . . ولكننى أرى بانتظار ذلك
أننا نهين الحياة .

فقال عيسائى عيسى :

- انما اجتمعنا اليوم هنا من أجل أن نخلص العالم من الإهانة .
كان ذلك أول اجتماع . وكان حميد سراج يفهم أن عليه أن يصفى

الى كلام هؤلاء الرجال . ليس بالضائع هذا الوقت الذي ينفق في هذا الكلام ! اليس لهذا الحديث صلة كبيرة بموضوع الاجتماع ؟ طبعاً .. وان حميد سراج ليتعلم من هذه الاحاديث اشياء كثيرة . كان يدرك ان الفلاحين يتكلمون بصراحة ، دون تحرج ولا خوف ، وانهم يعبرون عن طريقتهم الحق في النظر الى الاشياء . وهذا هو الامر الاساسي .

ولكن بينما كان الحضور يتساءلون عن هذه المناقشة بين الرجلين هل تطول ، اذا بين سالم عادة يرفع صوته قائلاً :

- لماذا لا تتكلمون عن المستوطنين الفرنسيين ؟ كل ما تقولونه سليم حكيم . ولكن ما فائدة هذا كله ؟ انكم لم تقولوا حرفاً واحداً عن هؤلاء الذين نشقى بسببهم . انهم هم مصدر بلائنا كله . فاذا تحدثتم عن الشقاء الذي نعاينه دون ان تقولوا شيئاً عن المسؤولين عنه فانتم تتعبون السنتكم سدى . نحن اناس حزاني ، هذا كلام صحيح ، وانا اقول له لنفسي ، واقلبه في رأسي . وذلك لاننا نفكر في شقائنا ولا نفكر في مصدره ، وانما ينبغي لنا ان نتحدث عن اولئك الذين هم اصل البلاء . معذرة ايها الاخوة جميعاً .. اذا قلت ما قلت فلان هذا هو ما يجب في رأيي ان يقال .

لفظ بن سالم عادة هذه الكلمات بلهجة مفاجئة عنيفة . وكان وجهه الناتئة عظامه يعبر عن كل شقاء الجزائري الذي سلب رزقه ، ولكن احداً من الرجال لم يرفع صوته بكلمة .

ان بن سالم عادة فلاح في دمه حرارة . يجب ألا يؤاخذ كثيراً . انه لا يحقد على أحد .

ولكن ها هوذا السؤال قد طرح . امر غريب : لكان احداً ما كان يتوقع ذلك .

دهش الرجال جميعاً . وليس فيهم الان ما كان فيهم منذ قليل من هياج . لا . وانما أصبحوا على حين فجأة اكثر وجوماً وتفكيراً . استرد حميد سراج ثقته وطمأنينته . لقد طرحت المشكلة حيث ينبغي ان تطرح . واراد سراج ان يجيب بن سالم عادة اول المجيبين ، ولكن سيد على كان قد شرع في الكلام :

يقيني انه ما من بلد من بلاد الدنيا احيط فيه — اناس بالمودة والعاطفة مثلما احيط بهما الفرنسيون في بلادنا . فكيف رد الفرنسيون على هذه الصداقة التي كانت — واقسم على ذلك بهذه الارض التي تضمنا الان — صداقة مخلصه ؟ كيف رد الفرنسيون

على هذه الصداقة ؟ ردوا عليها بالاستخفاف بنا ، والازدراء لنا .
لم يشاءوا ان يعاملونا معاملة الند للند ، بل عاملونا في احتقار .
نحن اناس نقيم وزنا للصداقة التي نمحضها خالصة ، لذلك لم
نساوم ، بل اعطينا انفسنا في غير تحفظ . ولمن اعطينا انفسنا ؟
لاناس برهنت الايام على انهم ليسوا اهلا للصداقة ، فهم يدوسونها
بالاقدام . لقد نصبوا انفسهم آلهة واربابا وارادوا ان نتجه اليهم
بالعبادة . رحم الله اجدادك يا بن سالم ، فقد اتحت لى فرصة
الافصاح عما بنفسى .

ليس سيد على الافلاحا ، ولكن تلك هى الكلمات التي قالها :
اناس يدوسون الصداقة بالاقدام .

كان سيد على رجلا يحترمه اهل المنطقة ويقدرونه . كان ، كعدد
آخر من الفلاحين ، يفصل في شئون الناس ، يصلح بين زوج وزوجة
يسوى ما يقوم بينهم من خلاف . واكثر الامور التي كان يتولى
الفصل فيها امور تنصل بالشرف . وكانت آراؤه ناضجة واعية ،
فكان الناس يأخذون بها عامة . ويحمدون الله على انه رزقهم رجلا
مثله يرشدونهم الى جادة الصواب .

وطلب سيد على الكلام مرة اخرى ، وقال :

— كان من حقنا نحن ان نقبل صداقتهم او ان نرفضها . فاذا هم
يقلبون الآية . لماذا؟ لاننا محضناهم صداقتنا في غير تحفظ . والحق
انهم يظنون هم المدينين ، ونظّل نحن الدائنين . ان لنا في اعناقهم
دينا . فكيف ترونها يردون الدين ؟ انهم في خير الاحوال يراعون
جانبا قليلا ، اما الصداقة فلا مجال للحديث عنها ، انهم يتصدقون
علينا تصدقا ، وذلك اقسى على النفس من الاحتقار . ورب قائل يقول :
دعك من هذا الكلام ، افليس بينهم اناس شرفاء صادقون ؟ فاجيب :
بل ان بينهم اناسا كذلك . ولكن هؤلاء لا يبالون شيئا ، وذلك يقتلهم .
المسلمون : جنس آخر من الناس ، انهم ليسوا بشرا . والنتيجة هي
انهم يطلقون ايدى الآخرين تفعل ما تشاء ، يطلقون ايدى هؤلاء الناس
الذين لم تحمل الارض من هم اشد شراهة منهم ولا اضعف ضميرا .
وهم بذلك شركاء لهؤلاء الناس ، يتحملون مثل الذي يتحملون من
تبعات كبار ، سواء بسواء . افليس طبيعيا والحالة هذه ان نهب الان
فندافع عن انفسنا ؟ حتى اولئك الذين يقارفون اعمالا هي من اعمال
قطاع الطرق قد استطاعوا ، وليسوا بالاغبياء ، ان يلقوا على ظهر
فرنسا هذه الاعمال التي يقارفونها ، ولكنهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك

لولا أن الجميع لا يبالون . هذه الآثام الحقيرة التي ترتكب على أرضنا ليست ترتكب باسم فرنسا ؟ إلا يتم سلب الناس أرزاقهم باسم فرنسا ؟ إلا يودع الأبرياء في السجون باسم فرنسا ؟ إلا يجوع الناس باسم فرنسا ؟ إلا ترتكب جرائم القتل باسم فرنسا ؟ لقد اقترن اسم فرنسا بأعمال حقيرة . ولن يستطيع أحد بعد الآن أن ينتزع من رموسنا أن هذه الجرائم يجب أن تعزى إلى فرنسا في آخر تحليل . ماذا يهمنا نحن أن تكون فرنسا عظيمة مجيدة أو ألا تكون كذلك . نحن نتساءل : وهي راضية عن هذا أم غير راضية ؟ فإن كان هناك أناس غير راضين فليرفعوا صوته . اننا نحب أن نسمعهم قليلا قال الفلاح هذه الكلمات الأخيرة بصوت قاس وهو يتجه بها إلى خارج الحلقة . ثم اردف يقول في رصانة :

لم يستطع الاضطهاد في يوم من الأيام أن ينتصر على الشعوب . فقال حميد سراج :

أن اتحاد الشعوب سيمزق هذا الاضطهاد في جميع البلاد . - أصبح شعبنا منذ مدة طويلة لا ينتظر شيئا من فرنسا وما يريد الآن إنما يطالب به نفسه ، يطالب به ذاته .

قال حميد سراج مقاطعا : - طبعاً . ولكنني أعتقد أنك تنسى شيئا . أن عندهم ، هم أيضا ، رجالا كثيرين مثلنا ، في بلادهم نفسها . هل تعرف ماذا يقولون ؟ أنهم ضد سلطاتهم .

فقال سيد علي دهشا : - ماذا . . ماذا تقول ؟ لا ، انني لا أصدق هذا الكلام . - الأمر بسيط : أن عددا كبيرا من الناس في بلادهم يعملون باجر زهيد لا يذكر ، فهم جياع ، وهم يلاحقون ويعتقلون . . في فرنسا . قال علي بن رباح بصوت عال :

- هل هم سكان أصليون ؟ - أن شئت . وهم مثلنا تقريبا . لقد سمعت أنا هنذاك ، ورايت بعيني . هناك بين الفرنسيين أناس فقراء . . صدقتي . فلم يسمع سيد علي إلا أن يقول :

- كلامك هذا يدهشنا ويحيرنا يا حميد . - وفرس الفلاحون نظراتهم في عيني حميد سراج ، وانتظروا . - هذا هو الواقع . . أقسم لكم بحق هذه النعمة . قال حميد سراج ذلك وهو يرفع إبهام يده في الهواء مشيرا إلى

الحقول المدرجة على الروابي . ثم اضاف :

- اقسم لكم بحق هذه النعمة القريية منا .. اقسم لكم .
واطرق الفلاحون يفكرون . ان هؤلاء الفلاحين رجال لا يسبر لهم
قرار . انهم ليسوا من صخر بارد . انظر الى كل مايحيط بهم :
الحقول المبعثرة ، الشمس والأمطار ، البذور التى فى التراب ، الماء
الذى يسقى الارض ، السحب التى تتحرك فى السماء ، الاشجار
التي تتلقى هبوب الريح .
قال سيد على :

- أعد ماقلته . اولئك السكان الاصليون فى تلك البلاد ، ماذا
يقولون ؟

- ما ذكرته لكم منذ لحظة : انهم تاقمون على سلطاتهم ، يريدون
التخلص منها . انها توقع فيهم مظالم كثيرة .
قال بن ايوب :

- السلطات التى تحكم هنا وهناك واحدة ؟

- نعم ، هى سلطات واحدة تظلم هنا وهناك فى آن واحد . فصاح
باعدوش يقول :

- اذن ففى جميع البلاد سكان اصليون ارقاء .. اننى لا استطيع
ان اصدق هذا الكلام . هل كل بلد من البلاد له سكانه المملوكون
كالعبيد الارقاء ؟

فقال حميد سراج مؤكدا :

- ان التضامن مع الذين يعملون ويتألمون ويناضلون واجب . ثم ان
هذا التضامن قائم فعلا .

وفى هذه اللحظة بدا على سيد على ان فكرة مفاجئة قد اشرقت
فى ذهنه ، فصاح يقول بلهجة مظفرة :

- ولكن السلطات التى تحكم هناك هى سلطاتهم هم ، اما هنا ..
فالذين يحكمون اجانب .

- فقال حميد سراج :

- صحيح . ولكنهم يقولون عن سلطاتهم هناك انها اشبه بالاجانب .
- غريب .

قال سليمان مسكين :

- ... لا مانع ابدا ان يقوم اتفاق بيننا وبين السكان الاصليين
هناك .. مادام زايهم وراينا فى السلطة واحدا .

واضطرب الهواء فى اصيل ذلك اليوم . واهتزت اوراق شجرة

التوت اهتزازا قويا كأنها أبد مفتوحة تستقبل الريح . وكان بن أيوب
ما ينفك ينظر الى حميد سراج أثناء الأحاديث . انه لم يفهم نوع هذا
الإنسان كل الفهم . غير ان شيئا من مودة رصينة خفية قامت في
نفسه ازاءه . ثم جاءت لحظة انفضاض الاجتماع ، ونهض الرجال .
تلك أول مرة يتناقش فيها الفلاحون على هذا النحو . ان عاطفة
ممتعة قد نشأت في نفوسهم . هم يشعرون الآن بالدهشة .
ويحسون أنهم غسلوا وتطهروا ، وأصبحوا خفافا . كانوا حتى ذلك
الحين لا يلتقون الا للكلام في واجبات صغيرة ، وأعمال قديمة ،
وعادات عتيقة . لقد قال بن أيوب : نحن في حاجة الى روح جديدة .
الا انها روح جديدة هذه التي يحسون تدفقها فيهم الآن . وهذا
دعاء اعتراف بالجميل يقوم في قلوبهم . أنهم يحملون جميعا مشاعر
الشكران لحميد سراج .

قال الرجل العجوز الذي ابتعد بعد انفضاض الاجتماع في محبة
بن أيوب يسأل رفيقه :
— هل أنت طالب علم ؟
فهتف القولوغللي الكبير :
— أنا ؟ طالب ؟
— لاحظ أن من الممكن أن يكون المرء طالبا ومزارعا في آن واحد .
أليس كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك معترضا بغية اقتناع صاحبه .
فاذا هو يسمع القولوغللي الكبير الذي يسير بجانبه يضحك : ان
ضحكته أشبه بصوت احتراق القش .
وكانت عيناه الناقدتان تلتصعان فرحا .
قال له با دعدوش وهو يلتفت اليه :
— لا داعي الى الضحك .

وعاد القولوغللي الكبير يتحدث عن نفسه من جديد ، فقال مرة
أخرى انه ولد بمدينة تلمسان كأبائه وأجداده ، وتحدث عن أرضه
في بني بوبلان الأعلى ، وعن ابنائه الثلاثة الذين يسر جمالهم الأبصار ،
والذين هم باقات زهر وأسود في آن واحد ، وتحدث عن نفسه .
كان في هذه المرة يضحك ضحكا عاليا وهو يعيد هذا الحديث .
وردد القول ، وهو يقهقه ، بأن ذلك كله لايعنى انه لايشعر بالعظمة
والزهو حين يطوف في أرضه ، رغم أن ضميره غير مرتاح وأضاف
الى ذلك وهو لايزال يضحك انه لابد من وعي جديد .

قال القولوغلى الكبير ، وهو فيما يشبه التفكير .
- نعم ، أعتقد ذلك .

ثم تحدث بعدئذ عن العالم بوجه عام .

- أصبحنا ونحن نقوم بواجباتنا لا نشعر بلذة وارتياح . واني
لاعتقد صادقا أن حياتنا فقدت معناها . اننا لانعرف الا الواجبات
القديمة .

- أحقا أنك لست طالب علم ؟

كان بادعدوش يريد أن يعرف هذا الامر .

وكمن يتوقع جوابا ينكأ له جرحه ، صمت ولم يقل بعد ذلك شيئا ،
وظل صابرا حزينا كبهيمة عجوز . ونظر في الوقت نفسه الى يديه
الضخمتين . غير أنه أضاف يقول بنوع من التوسل لشدة رغبته في
سماع الجواب :

- اذا كنت طالبا حقا ، فلا شيء يمنعك من أن تقول ذلك .

فاجابه بن أيوب :

- هل سيمائي طالب علم ؟ لست بالجاهل طبعاً ، فانا أستطيع ان
أقرأ مكتوبا . ولكننى لست طالبا . لقد تعلمت في الكتاب حين كنت
صبيا غير انى لست طالبا . . حقا لست بطالب .

سطوع شهر آب ينصب في جميع الجهات جدراناً مغلقة تبهر
العين ، فالحياة كلها هنا مسجونة بين هذه الحيطان . جناح الحرارة
الثقيل يخفق وضيء الظهر المتلألئ يهز هذا الغناء الأحمر الى غير
نهاية أمام الابصار .

ان عمر ينتظر منذ خمس دقائق طوال . لم يكن في ذهنه الا فكرة
واحدة ، رسخت فيه واستقرت . لم يعد يتحرك . ان في وجهه حرونا
غامضاً . وفي قسماته المنتفخة ، كقسمات الطفل ، ما يشبه النوم .
ان لطخات من الشمس تخترق ، في المكان الذي هو فيه ، أغصان
اشجار التين المورقة التي تتكاثف وسط الحقل ، وتشكل قبة فوق
النبع .

والارض المتوهجة تلهث من حوله في كل صوب . وتلك الحقول
تنتهي هناك ، عند الافق ، على جبال شاحبة .

كانت فكرة عمر تطارده . ثم توقف مجرى تفكيره فجأة ، وأخذ
ينتظر في غير مبالاة . لا جدوى من التفكير . على انه لا يعرف مع
ذلك ما الذي يوقفه . ماء النبع يغور أمامه في كتلة كبيرة من
الانعكاسات ويستحيل فجأة الى زبد مدوخ عندما تحرك نسيمات
الرياح أوراق الاشجار فوقه ، فاذا بأشجار التين تحك الهواء بحليتها
المر وتنتشر رائحة حادة .

كان الصبي مثبتاً نظراته على (زهور) الواقفة في وسط النبع ،
وقد شممت ثوبها وراحت تصب على ساقبها الماء براحة يدها . كانت
زهور منحنية ، لاتشعر بوجود عمر بين أشجار التين الساكنة ، ولا
يبدو عليها أنها ترى هذا الماء ، ولا الرمل والحصى والحجارة في قاعه .
وكانت ربلتا ساقبها تشتدان كلما ازداد جذعها انحناء ، وكان بدنهما
يزداد بياضاً بمقدار علوه فوق الساقبين نحو الفخدين .

ان عمر يحتذى خفين ملطخين بطين جاف ، وقد تقب ابهام قدمه
وجه الخف ، ولبيت النعل فأخذ قنبها يتفكك خيوطاً . ان عمر هذا
الفتى لا يتجاوز الحادية عشرة في أكثر تقدير ، غير انه من الواضح
ان جسمه الذي لا يتناسب طوله مع سنه كان يريكه . هذا عنقه

يخرج من قميصه الممزق ليأينا ضلينا .
شيء خارق للعادة : أن زهور ، إذا هي ردت بصرها عن الأرض ،
لا ترى إلا صورة مختصرة غليظة لجسمها ، منعكسة على الماء . ساقان
غاطستان إلى وسطهما ، فكأنهما طرفان ضخمان مفصولان طافيان على
الماء ، يبدوان أشد بياضا من بياضهما في الواقع . وكانت زهور
تضحك ، فما تتأثر من ذلك قسما وجهها الجامدة أي تأثر . وقدماءها
تسحقان الرمل . فيلتصق الرمل بجلدها علقات صغيرة . وحاولت
زهور أن تعرف في هذا الماء الذي كان كالمرآة : هل تستطيع أن ترى
بين ساقيهما وفخذيها شيئا آخر ، فأنحنت فلم تر وراءها إلا صورة
التيها البارزتين ، أما من الامام ، فثمة وجهها المحتقن قليلا وركبتها
اللتان تتقدمان .

قالت بصوت رصين دون أن تغير وضعها :
— عمر .

حاولت أن ترى من تحتها الصبي الذي كان يختبئ وراءها بين
الجدوع النحيلة والأغصان الملتفة .

ثم رددت وهي تنشق الهواء في شخير :

— عمر . . فيم تنظر ؟ أنت هنا منذ ربع ساعة .

وشخرت مرة أخرى .

— هيا اذهب .

ثم انتصبت واقفة ، فتهدل شعرها على وجهها شباكا متداخلة ،
وجمعت أطراف ثوبها كالصرة بين فخذيها والتفتت برأسها إلى ناحية
الصبي . كان حب الاطلاع ينهش الصبي نهشا ، وهذه ضحكة كانت
ستطلق مرحلة قوية في الدقيقة التالية ، في الثانية التالية ، تخرج
من أعماق نظرة الفتاة .

— قلت لك اذهب . هيا اذهب . ما وقوفك هنا ؟ اذهب . يا لك

من غبي . لكأنك تنام في وسط هذه الأشجار .

وقطب الصبي وجهه . لا ، لا ، في زحمة أوراق الأشجار ،
والأغصان المعرشة ، والجدوع الفتية البيضاء ، لم يكن يلوح على
وجه الصبي أنه نائم ، لا . . غير أن الصبي لم يكن يتحرك .

كان الضوء الساطع يظهر الأشجار المنعكسة على الماء القاتم
الذي يخدده تلالؤ متحرك ، كان يظهرها غير ذات صلابة ولا سمك .
وكان يبدو على الفتى رغم كل شيء أنه يود لو يهرب ، ولكنه
ما أن يهم بأن يفعل حتى تسمره نظراته في مكانه . وظل عمر

متشبها حيث هو . أن ساقيه ، وقد أصبحنا كاللباد ، تنفسان
في الأرض . وجسمه معلق في الهواء . كان لا يستطيع أن يفر
ولو أراد ذلك بكل ما أوتي من قوة . ثم أنه لن يجدي نفعا
أن يحاول الفرار ، فإنه أن حاول ذلك لم تطاوعه ساقاه . كان
يتموج تموجا خفيفا لا يدرك ، وكانت عيناه تعبران عن قلق كبير .
ثم تحرك عمر حركة بسيطة ، وقد زال بأسه . شدد اليه بإحدى
يديه واحدا من تلك الأغصان اللينة ثم خلاه يضرب الأوراق ، وتقدم
يسير على رءوس أصابعه . وما هي إلا لحظة حتى ضرب بيديه
الهواء الذي وراءه ، وأسرع يركض تحت أشجار التين بخطا خفاه
الصماء الخفيفة . وهناك اصطدم بزهور التي تركت الماء حين رأت
الصبي على هذه الحال . كانت قد أرخت ثوبها ، فهو يتهدل الآن
على ساقها . واضطنعت سيماء الجسد دفاعا عن نفسها . ولكن
هذه السيماء لم تلازم وجهها مدة طويلة ، وسرعان ما حل محلها
الدهش فالضحك . وقف عمر أمامها مباعدا ساقه ، وانتصب في
مكانه وقد عقد عزمه على الصراع .

قالت له زهور مهددة :

— ستبقى هادئا ، هه ؟ والا فسانادي بأعلى صوتي .
وما لبثت أن ندمت على ما قالت ، لأن ما قالتها حمق وغباء .
أن عمر لا يجهل أنها أن صاحبت فلن يسمعها من البيت أحد .
وتنفست زهور تنفسا عميقا ، وتهيأت لإظهار العنف ، لأنها لاحظت
أن الفتى قد أعد نفسه لثل هذا العنف في زهو وصلف

وفيما كانت الفتاة تقرب يدها على وجه عمر وهي تنوي أن
نداعبه ، انحنى الصبي في قوة ونشاط ، وأمسك بثوبها محاولا أن
يرفعه ولو تمزق أربا أربا ، فما لبثت زهور أن تشبث بأطراف
الثوب مستميتة تريد أن تظل مستترة . ومن أجل أن تعزز مقاومتها ،
طوت جسمها وثنت ركبتيها حتى لامست صدرها . وفي هذه
اللحظة أخذت أشجار التين تهتز وتحرك من هبوب الريح عليها .
فأصاخ عمر بسمعه ، دون أن يكف عن شد ثوب زهور . أن الفتاة
قد كورت نفسها الآن بعنف ، فكلما ازدادت تجمعها على نفسها ألقت
كرة في وسط جسمها . فتركها الصبي . ولم يكن عليه ، وهي في
هذا الوضع ، إلا أن يدفعها إلى الوراء دفعة يسيرة حتى يرميها على
الأرض ممددة بطولها كله . وكذلك فعل .

فلما أرتمت على هذا النحو ، هرع إليها وجعل يدغدغها تحت الإبطين

وعلى الاضلاع ، قصفته على خده ، فأخذ بعضها عضاً خفيفاً في كل موضع من جسمها بغير تمييز ، في الذراعين ، والعنق ، الخ . . . فكانت زهور تضحك وتتوسل وهي مستسلمة . سكن عمر . ترى هل سيكونه تمهيداً واستعداداً للقدر بها ؟ نض عمر عن الفتاة ثوبها على قدر ما استطاع ، حتى ظهر له النهدان . وحين رأى بطن زهور العاري طافت في ذهنه على حين فجأة صورة حصان ، حصان فخم ، عجيب ، مشثوم بعض الشئ ، إلا أنه حيوان يسمح له بجميع الآمال .

لم تحرك الفتاة ساكناً . اسلمت جسمها الناعم للضوء . كان عمر مضطرباً ممزقاً . وبدأ جسمها القارس البياض دافئاً وناعماً من تحت .

وقبل أن تلاحظ زهور شيئاً ، دس الفتى تحت قميصه قطعة صغيرة من قماش أبيض ، وجدها على جسمها ، وهي أشبه شيء بحيوان حتى أحس عمر بحرارته . وظل عمر راكعاً أمام جسد زهور الممدد ، وقد طاش صوابه وأخذ يلهث قليلاً . أنه ينظر إليها منذ عدة دقائق ، مستسلماً لتلك القوى الملهبة التي صرت فيه دون أن يستطيع منها فكاً . لا حيلة له في ذلك .

وزهور مستلقية على ظهرها لا تتحرك حتى لكانها نائمة . ساقاها وحدهما منتصبتان ، تجيئان وتذهبان من شمال إلى يمين ومن يمين إلى شمال ، بحركة ما تنفك تبطؤ شيئاً بعد شيء . والبقاة الصوفية السوداء التي تغطي أسفل بطنها تظهر ثم تختفي مرة بعد أخرى . والصبي يكو به ألم أخرس . أنه يتأمل بطن زهور العاري .

وفجأة بصق الصبي ثلاث مرات بعزم مخيف : تفو ، تفو ، تفو . ثم نهض ومضى بسرعة وهو يشد بيده إلى صدره صرة صغيرة . هرب يعدو على الطريق الضيق المزين بنور الشمس ، هرب وكأنما هو يمشي على حبل مشدود ، وكانت سرعته في الجري ما تنفك تزداد .

قالت زهور بصوت عال :

- مجنون . أنه يركض ركض من ألم به جنون على حين فجأة ، وسيحسب أنه ليس في الأرض كلها مكان واحد يمكن أن يركن إليه . وضحكت بصمت وطافت بنظراتها على قبسة الخضرة التي كانت ترتعش من حولها ، ورات السماء الزرقاء التي يخالطها بياض

• ظلت زهور مستلقية ورأسها على خافة الماء ، وجسمها لا ينزال عاريا حتى التدين ، تحت النور الحاد وأوراق الأشجار المضطربة . وانقضت على هذا لحظات طوال . أن في عينيها الآن نوعا من الدهشة . أنها كالبائمة المفتوحة العينين ، يحملها نهر مضى لا يقاوم ولا يقبل .

ومدت ذراعها يبطء ، ففطستها في الماء ، ثم أخرجتها وقد امتلأت بوحل مسود ناعم يتساقط من بين أصابعها قطرات ، ما بقي منه وضعته على جسدها وأخذت تدلكه به في عناية . وتناولت من الماء قبضات أخرى أسالتها على جسمها ، وظلت تدلكه بها في انبساط مركز . وأخيرا نهضت فطيرت ثوبها عن رأسها دفعة واحدة . • أنها الآن عارية كل العرى . وما هي ذى تنزل إلى الماء . أن الرمل يجذب قدميها وهي ماتنفك تتقدم في النبع . ساقاها ووركها يصفعهما الماء البارد فجأة . اغتسلت من الوحل وهي تدلك جسمها في رفق مرتعشة . كانت تغرق الماء بباطن يدها فتصبه على كتفيها حتى إذا صار الماء الذي يسيل على جسمها رائقا كماء النبع ، خرجت وهي تقزع أسنانها من البرد . ثم ألقت ثوبها على جسمها فستره كله . وملأت وعاء الحليب بالماء وقفلت راجعة .

كان عمر لا يزال يركض في الحقول المنبسطة التي تصطفق أمام عينيها اصطفاق الرايات . أن الجسم وظله يركضان معا . وكرة القماش التي سرقها من زهور قد سقطت منه أثناء هروبه دون أن يراها ، وبخروجها إلى حفرة تدحرج بهيمة لم تروض . ولكنها تركت على جلد الصبي رائحة عفنة أصبحت في حياته سرا . أنظر إلى عمر من بعيد : ليس الآن إلا جرادة تتواهب في غبار أحمر ذهبي اللون .

طال صيف ١٩٣٩ . هذه ايامه الاخيرة تسير متناقلة جميلة .
لقد انتهى الحصاد منذ مدة طويلة ، وعمرى القش ، واخذ تراب الارض
الاسمر المغطى بالقش يتفلم .
ان الخضر لا تزرع في هذا الوقت الا في اراضي السقي . قالى
ان يحل الفصل الجديد من السنة تحسب الفلال . لم تكن
محاصيل هذا الموسم رديئة .
قال قره لجيرانه :

— كان محصول القمح والشعير طيبا هذا العام . يجب ان
نعترف بذلك .

وكان قره يحسب ويحسب . لقد انتفخ رأسه بالارقام . انه
يحصي بذهنه الاكياس التي استطاع ان يملأها ويصفها في مخزنه .
غلة ممتازة . واللين ؟ ما كان يخطر له ببال انه سيحني منه ماسيجنى
.. انه لذيذ حقا ؟ لينة الكثيف الدسم الذي يكاد يكون زبدة كله
.. لم يبع (قره) منه الى الآن شيئا ، وانما تركه لاستهلاك البيت .
والكرز والبيغاره .. آ .. ما كان اجمل هذا الموسم ! . لقد
كان المحصول رائعا حقا . حتى ان اسر المزارعين قد اكلت منه ،
اكلت من الكرز المنقور الذي اكلته العصافير فلم يحمل الى السوق
.. وقد هبط قره الى تلمسان من اجل اخته وابنة اخته ، فقدم
ليهما من هذا الكرز . وسيذهب اليهما بعد مدة قصيرة يحمل
اليهما الزيت الذي ستدفعان ثمنه مالا طيبا حلالا . أما الكرز فلم
ياخذ ثمنه . رفض رفضا قاطعا ان ياخذ ثمنه . حلف بالله انه لن
يشقاضي ثمن الكرز ربالا واحدا .

وفكر قره في الزيتون . في هذه السنة .. ما من احد في البلاد
يستطيع ان يقدره .. الى ان يحين موعد القطاف . وقد رضى
المستوطنون الفرنسيون بالمنصورة ان يبيعوه محصول الزيتون على
شجره . انه لا يستطيع ان يتنشا الآن بمقدار الكسب الذي سيحنيه
من ذلك . ولكن قره كان فرحا بالصفقة . لقد تولى ، هو ، تقدير
ثمن المحصول . فلم يتعنّت الفرنسيون وارتضوا تقديره .

قال بينه وبين نفسه :

.. هؤلاء أناس أبرياء ، وسيظلون كذلك ما لم يفتح العرب أعينهم .. والحمد لله على أنه ما من سمسار ولا دلال خطر بباله إلى الآن أن يحوم حولهم . وفكر قره في نفسه مشفقاً : « إذا استطاع مسلم أن يجنى ربحاً من الأرباح ، فأنما يتم له ذلك لأن أخوانه لم يروه » .. وقد قطع له المستوطنون الفرنسيون وعوداً للسنتين المقبلة ، بتوصية جاءتهم من مكاتب المديرية . قال قره لنفسه : من ذا الذي يدري ما عسى أن يقع وأشاعات الحرب تفرع الاسماع ؟ وتذكر الحرب الماضية ! ..

كان بوشناق ، وابن أيوب .. يجريان هذه الحسابات نفسها في الحجرة المظلمة من قلبيهما . وكانا خلال تلك الأيام كلها ، بعضيان إلى عملهما صامتين .

إن الأملاك تبدأ هنا من سفح للاستى والمرتفعات المجاورة ، وتجري في باطن البلاد ، إلى أن تنتهي بعد طريق سيدو عند القواعد الأولى من السهل . والمزارعون يقتاتون باليسر من الطعام ويعيشون عيشة فقيرة . غير أن الحياة في بني بوبلان تجري مجراها الذي لا تتحول عنه . هادئة ، جادة ، قوامها حسابات دقيقة ، ومشروعات يستقصيها أصحابها طويلاً ، وشهوات متجددة قوية ، وأعمال يومية لا بد منها للبقاء على الحياة .

وبدا الخبر يذيع في تلك اللحظة . فأخذت البيوت تهتمهم في الداخل همهمة غريبة . هي الحرب ، فيما يقولون . هذا الشبح الهائل الذي نزل نزول الصاعقة ، هذه القوة المثلثة البالغة ، هل يدري أحد كيف هبطت ؟ .. ودهش الناس في بني بوبلان . ولئن أنقضت الصدمة الأولى بعد ذلك كما حدث في تلمسات وفي القرى والضياح النائية حولها ، فإن الحياة لم تعد إلى مجراها الرتيب الذي كانت تجري فيه من قبل .

لقد سافر ابننا بن أيوب . جند كبيرهما والصغير في آن واحد . إن الكبير ، واسمه جلالى ، أنهى خدمته العسكرية بفرنسا منذ ثمانية أشهر ، وهو الآن يذهب إلى الحرب تاركاً زوجة وطفلتين . « الحرب ؟ ما شأننا نحن بها ؟ أنها تنشب في بلاد بعيدة » في فرنسا .. ومن يدري إلى أين تمتد ! .. أننا نعنى بأمورنا ، نزرع خضرنا ، فما صلتنا بما عدا ذلك ؟ « هذا ما كان يقوله الناس في بني بوبلان الأعلى .

وتحدث بعضهم عن الاعتقالات أيضا . والذين كانوا يعتقدون أنهم يفهمون الأحداث أكثر من غيرهم قالوا أن ذلك نذير شؤم .
قال قره لزوجته ؟

— هي حرب كسائر الحروب . لقد وجدت الحروب منذ وجد العالم ، وستظل قائمة ما ظل على وجه الأرض بشر .
فأجابته بقولها :

لماذا ؟ ألا يرحم الله مخلوقاته ؟
فلم يفهم الرجل . وتساءل : ماذا حدث لعقل هذه المرأة ؟ ما لها وللتفكير في هذه الأمور ؟ ..

— يا امرأة ، هذه أمور فوق ما تطيقين فهمه .
— كيف ؟ اذهب الشباب الى موت محقق ، ولا تقول كلمة واحدة .
.. شباب في ريعان الصبا كأبن أختك وابن أبيك ، وقادر محمد ..

— أما ابن أختي فأنني سعيد بذهابه الى الحرب . يجب ان يذهب الى الحرب . ستعلمه الحرب الحياة . ستقلل الحرب اهتمامه بدهن شعره بالزيت ، وبالتجول في الشوارع عاري الرأس مرتديا الثياب الفرنسية .

قالت المرأة بينها وبين نفسها : « يا لك من عقرب عجوز . ان هؤلاء الفتيان الذاهبين الى الموت قد يكونون أولادك . نعم .. لقد كنت دائما تحسد الناس » .

كان قره على قد تجاوز الخمسين ، أما زوجته فعمرها أقل من نصف عمره . انها في الرابعة والعشرين .
ظلت الزوجة صامتة ، وتابع الزوج كلامه :

— قلت لك ان هذه الأمور فوق ما تقدرين على فهمه ، انها فوق ما تقدر على ادراكه نحن . هذه أمور لا يعلمها حق علمها الا الله . هي أمور أكبر منا ..

قال ذلك وصبره ينفذ شيئا بعد شيء . ولكنه تماسك . فقالت الزوجة عندئذ بصوت حاد مرتعش :

— ان الله لا يقول اقتلوا بعضكم بعضا .
— اسمعي . قد يكون صحيحا ان الله لا يقول هذا . غير ان هناك رجالا يحكموننا ، وهم يعرفون ماذا يعملون .
— هؤلاء الذين يحكموننا ليسوا عادلين .
— حللي محلهم اذن .

قال ذلك وقهقهه ساخرا .
 - حلى محلهم ، وبصرى الناس بما يجب عليهم أن يفعلوه .
 فلما سمعت المرأة هذا الكلام ، لاح الجد في وجهها . أنها لا تقبل
 أن يتهم عليها أحد . قالت :
 - ما أنا إلا امرأة ضعيفة . . . ولست أطمع في أن أحل محل أحد
 البتة . ولكننى أقول أن السلطة التى تعمل هذا العمل ليست
 عادلة . ولو كان لكم ذرة من شرف ، أنتم معشر الرجال ، لخطبتم
 من أن تقبلوا هذا الأمر . هذا شأن الرجال . إذا تكلمت امرأة
 سخروا منها . يظنون أنهم دائما على صواب ، مع أنهم قد يجابون
 الصواب . يكفيهم من أمرهم أنهم رجال !!
 ظل قره يتفرس في زوجته مدة طويلة ، ثم قال :
 - كلامك لا يضيف إلى الأمر شيئا ولا ينقص منه شيئا .
 قال هذه العبارة في استخفاف وغير مبالاة ، ثم أضاف :
 - هذا كله لا قيمة له .
 - لماذا ؟ هل خلقنا الله لتظل أفواهنا مكومة ؟
 - لأنك تهرفين بما لا تعرفين .
 - لأنك تريد أن تظل أفواهنا مكومة !
 - أنت تهذين .
 - طيب ، سأضع على فمى كمامة .
 تذكر قره أسباب الحرب التى شرحها له عبد الله يقال منذ
 بضعة أيام . فأراد أن يذكر هذه الشروح لزوجته . ولكنه عدل
 عن رأيه . أنها امرأة . ما عساها تفهم من كل ما يمكن أن يقوله
 لها ؟

في اليوم الذى تلقى فيه جلالى بن ايوب الأمر بالسفر ، لبست
 زوجته الحداد . وكذلك فعلت أمه ، فارتدت ثوبا قاتما . رجلا
 ينزعان منها دفعة واحدة . وقد دق هذا القدر نفسه باب أسرة
 محمد أيضا .
 التحيت النساء في البيتين انتحابا طويلا ، وبكين وهن يلطن
 أفخاذهن حزنا وحسرة . وترددت أصداء ضيحاتهن في الجبال
 تمزق الهواء . وعلم النساء بالنازلة التى حلت .
 وبينما كان النساء يعولن ويلطن صدورهن في البيت كان الرجال
 يتجمعون في الخارج . أنهم يلتقون فوق مسطح ممهد من الأرض

يحيط بالمساكن . يلتقون مقرضين دون أن يقول أحد لأحد منهم شيئا . ولقد جاء قره ينضم الى جيرانه . مضى الى وسط الجمع نظر الى هؤلاء وأولئك دون أن ينبس بكلمة . قرفص هو أيضا تحت شجرة من أشجار التوت .

عجيب حزن هؤلاء النساء . انهن لا ينقطعن عن النحيب وراح قره على يلقى على الصبح نظرات سريعة من حين الى حين ، بينما كان نوع من الحنان يجتاح نفسه دون أن يكون له موضوع بعينه . فتبان يزخرون بالقوة والحياة يسافرون . الحق ان هذا لا يعنيه كثيرا . انه يفكر في امر آخر . وفكره يتمطى ثقلا ثورا . يستطيع أن يقول الآن ان له في السلطات آمالا . فكيف يحقق هذه الآمال هذا هو الامر الذي يعنيه . انه لا يدري بعد كيف يحقق لنفسه تلك الآمال . وفي الوقت متسع على كل حال . ترى هل يشتبه فيه جيرانه ؟ لقد أحس قره أن بن أيوب تخامره ريبة ، فهو فاطر في معاملته منذ بضعة أيام . تذكر قره اجتماعه بالمدير . لقد استدعاه ممثل الحكومة في الربيع الماضي أثناء الاضراب القصير الذي قام به العمال الزراعيون . ولكن لعل الهواجس التي تراوده بصدد بن أيوب ليست الا هواجس . وطاف بنظراته على الجميع يلتمس جوابا عن شكوكه . ان عينيه اللامعتين اللتين صبغت أحفانهما بالكحل ، أشبه بعيني قط وحشي . وانتشر فكره انتشار ماء أصم . تلك أول مرة خلال حياته يجتاز عتبة دار الحكومة .

قال له المدير في تلك المناسبة :

— لا بد لكل بناء من أساس . ونحن نريد لبنائنا أساسا أخلاقيا هو الاتحاد . اننا لا نستطيع أن نعمل الا اذا تعاوننا يدا بيد ، بقلبنا بقلب .

وذكر المدير يومئذ ان هناك قوانين جديدة تتصل بالسكان الأصليين توشك أن تصدر ، وان عددا من القوانين القديمة سيصوبه تعديل . وأردف المدير يقول :

— لاشك أن هناك لقيفا من الانفصاليين الخطرين أو من الحالمين الأغبياء ، يعملون ما استطاعوا لتشويش عقول الشرفاء من الناس . وهذا أمر قبيح خال من الشرف .

قال المدير ذلك ثم نهض . وشكر لقره ما يقدمه للسلطات من معونة ، وأضاف :

— لن تعرف هذه البلاد الا الافلاس والدمار ما لم نبذل جهودنا

متعاونين مع أصدقائنا .

مد المدير يده من فوق المكتب العريض الذى يفصل الرجلين ، فلم يستطع قره ان يلمس الا اطراف اصابعه من فرط عرض المكتب ثم مضى الى الباب متراجعا ، لا يجزؤ ان يولى الشخصية الرسمية ظهره ، وهو يرفع يده الى جبينه فى نوع من التحية العسكرية مرة بعد مرة .

فهم قره عندئذ ان له ان يطمع فى جميع الآمال . ثم انه كان يعرف ذلك منذ اللحظة التى نوى فيها ان يطلع السلطات على أعمال تلك العصابة الوقحة التى كانت تستعد مع حميد سراج لاحداث الاضطرابات . كانت هذه الفكرة التى راودته تشقى طريقها فى نفسه برقى وهدوء وغموض . يشوع من نار مجهولة يتفجر فى الظلمات . وانتظر قره ليفكر فى الامر بمزيد من الجد .

تخيل قره ان بن أيوب ومحمد سيعتذر عليهما أن ينهضا بأعمالهما بعد غياب ثلاثة رجال . وتصور أرضهما وقد أهملت كثيرا . فشعن بالارتياح . لا شك ان جاريه سيسيران الى الدمار . اما هو فسيضاعف نشاطه وعمله أثناء ذلك . وفكر قره فى البقرتين الفرنسيتين الثقيلتين اللتين يملكهما بن أيوب فتمنى لو كانتا له .

ان البقرات الثلاث التى يملكها تبدو الى جانبهما هزيلة : أنها نحيلة ضامرة ، لا بل هى أشبه بعجول أذواها الجوع . أنها ، وهى ثلاث ، لا تدر من اللبن ثلث ما تدره بقرة واحدة من بقرتى بن أيوب . . ناهيك عن الفترات التى تجف فيها أضرع هذه البهائم الحقةرة . ان قره يكره بن أيوب ، لأنه منذ مدة قصيرة . . . ولكن لهذا حكاية أخرى . . ومهما يكن من أمر ، فان قره حلف « ليحصل على بقرة كهاتين البقرتين » وسيبر بيمينه .

بكت زوجته مع الباكيات من النساء . وقالت للعجوز طعممة التى حاولت ان تهدئها :

— دعيشى ، لقد طفح قلبى . اننى فى حاجة الى البكاء .

— انت صبية يا بنتى ، وما فقدت أحدا ، فقيم البكاء ؟ اطردي

أبليس من نفسك .

— انما أبكى على نفسى ، وعلى حياتى .

كانت النساء تتأوه بصوت خافت ، وتئن آنين البهائم الجريحة ، لقد بحت أصواتهن وتقرصت وجوههن من خدش الاطافر . وجاءهن بعد الظهر عدد من الباكيات أخذن يرددن بنبرة رتيبة متكررة :

— فلتطحن وحدك ان شاء الله يا من تبكى النساء واطفالهن وتقتل
الازواج يلعنك الله . ولتبك عينك دموعا . ولتذب عينك من قرط
البكاء . ولا ينزل الشقاء الا عليك وحدك ، وليحرق لحمك ، فلا
تحد أخا يمد يده اليك لينجذك . ولينصب عليك كره البشر كلهم
فلا يبقى لك صاحب .

وكان بعضهن يطلق اللعنات مصحوبة بعويل وصراخ : آى . .
آى . . ويضاعف لعن الصدر بالأيدي .

وصرخت صفية ، أم الشابين ، نادية ناعية ، لاطمة فخذها :
— الله يلعه . الله يلعه .

واستمرت تصيح :

— ما هذا العذاب . لقد احترق قلبي ، وأصبح من رماد .
واستيقظ في قلوب النساء الم قديم . فأجهش جميعا في
البكاء ، حتى اللاتي لم يجند زوج لهن ولا ابن . الثقتن تحسو
صفية يبكين . وارتفع صوت صفية مرة أخرى :
— أولادى ، أولادى ، اخذوا أولادى .

وعادت تلطم فخذها وذراعها وتمزق وجهها .
وقالت احدى النساء بعد لحظة :

— صفية ، هدئي نفسك قليلا يا اختى .

— افعل ما أستطيع يا اختى .

ثم هدأت صفية . ووضعت احدى يديها في الأخرى وهى ساكنة
سكونا تاما على حافة الفراش .

واقترب منها عدد من الجارات ، فلم تقو على أن تكلمهن . انها
لا تستطيع الا ان تدمدم فى أنين : « أولادى ، أولادى » .

ودخلت بضع نساء كن قد تجتمعن أمام الباب ، بينما ظلت
الأخريات فى مكانهن واقفات . كان هؤلاء مصطفات صفا واحدا وقد
وضعن على رءوسهن المناديل . وكن يرفعن ايديهن الى أفواههن
من حين الى حين متأثرات . وكانت صفية مصعوقة منهوكة القوى
ما تنفك ثن أنينها الرتيب .

وكان هناك نساء أخريات يتحركن فى فناء البيت ذاهبات آتيات
كانهن فى جنازة . .

ثقل صمت القرية خلال الايام التالية وظلت كثيرات من الزوجات
والأمهات منذ ذاك اليوم يرتدين ثيابهن القاتمة ويغطين رءوسهن
بالمناديل السود .

حذق الشرطى بعينيه الصغيرتين المخضلتين الى حميد سراج . وهز في الهواء يديه الخارجتين من كمي مستترته الزرقاء . لاحظ حميد هذه النظرة الفارقة المحاطة بلحم أبيض . وكانت القاعة مملأى برجال آخرين من الشرطة . ان اصواتهم المبهمة تجلجل منذ لحظة في مقر الشرطة معكرة جوه الادخن . وتمة رائحة رائدة من روائح الانسان التصقت بالجدران السمراء وبقطع الاثاث الفقيرة والكتاب . ان هذه الرائحة تدل على ان الوف الناس قد مروا بهذا المكان . وكان حميد هادئا ساكنا ، لا يبالي شيئا ، ولا يهتم بما سوف يقع . واقترب منه رجال الشرطة المتجمعون قرب باب الزجاج ، واحاطوا به .

وجاء عدد آخر من رجال الشرطة من اخر البهو . وراى حميد رقم الشرطى . اما ما عدا ذلك فلم يكن يبدو على حميد انه يلاحظ وجوده . وماهى الا لحظة حتى التف حوله عدد من رجال الشرطة واحاطوا به . ونظر الى عدد منهم خرجوا من الغل ، فعرفهم . لانه رآهم قبل ذلك عدة مرات فى الشارع . وفى هذه اللحظة احس كان احلاما مشلة قد شملته ، او كان الهواء أصبح ثقيللا جدا . لا لانه خائف منهم ، ابدا . . ولكنه الاشمنزاز . لقد راى ان ثمة شيئا قد مات فى هذه الوجوه التى أمامه .

كان « الرقم » يتحدث منذ مدة ما ، وكان زملاؤه يتزاحمون حوله . واستمر « الرقم » يهدر ويثرثر .

ان حميد لا يصغى اليه . ان جدارا عاليا قد قام فى نفسه ورفع « الرقم » يده وهوى بها على وجه حميد فى صقعة قوية . اهتز رأس حميد . ولكنه لم يطرف بعينه .
صاح « الرقم » :

- وهذا واحد من هؤلاء القدرين .

سبعه حميد فى هذه المرة . وتفرض فيه . فأدرك ان « الرقم » لم يحتمل نظراته . لاحظ انه ينحنى انحناءة من شنى ركبته . امتصت الحدة الحائرة الاهانة . هوى « الرقم » بقبضة يده على

وجه سراج فأحدث فيسه دوياء ، وأخذ عدد من رجال الشرطة يضربون .

ان حميد واقف أمامهم صامتا ، متجاهلا اللطمات التي تقع عليه . قال في نفسه : ليس في هذا غير ما كنت أتوقع . وازدادوا إحاطة به ، وتحلقوا حوله كأنهم مادة جامدة . وتلقى حميد ضربة أقوى من الأولى . فقال حميد بتأثير الصدمة ، وقد انعقد وجهه بعد أن ظل إلى ذلك الحين شاحبا :
- لم تفعلون هذا ؟

وانهمرت الضربات عليه انهمار المطر . ترنح حميد ، وانقذف إلى جانب . فعاد وجهه شاحبا . قال :
- أقدار .

وفي هذه اللحظة نفسها سقط على الأرض ، تركهم يضربونه . ولكنه حاول أن يحمي نفسه ، حتى لا يجهزوا عليه أجهازا تاما . وكانت الضربات تدوى في رأسه ، في جسمه . فاستولى عليه خدر . أصبح لا يحس وجود أنفه ، ولا عينيه . غير أنه يشعر بأذنيه تحترقان احتراقا . وكان دمه يسيل رطبا حارا . لم يتحرك . أصبح لا يحاول أن يتقى اللطمات القوية . وبصق عليه « الرقم » ..
وصاح آخر يقول :

- يا وسخ ، يا ابن القحبة .

وركله أحدهم بخدائه الضخمين ، فاقتدى به آخرون . ان جسمه الآن ممدد على البلاط ، وضربات « البساطير » تهوى عليه من كل جانب . شيء واحد كان يطوف بذهن حميد ، فكرة واحدة ظلت واضحة في نفسه : هي أن لا يهلك . أن يظل حيا . أصبح الآن لا يرى شيئا . الدم يقطر في عينيه .

ثم خيم الهدوء ، وأعقبه صمت رهيب طويل . هذا شخص يأتي فتسمع خطواته من بعيد . حاول حميد أن يفتح عينيه . فلم يستطع ذلك ، من فرط تورم عينيه . ان الضوء المحمر الذي كان حميد يحس منذ قليل أنه غير كاف ، أصبح الآن يؤذيه ويجرحه . رأى حميد احذية سوداء . أنه مفوض الشرطة في زيه العسكري . بالهدا الجسم الضخم ! اقترب الجسم الضخم أكثر من ذلك . حديدة النعل تقرع الأرض بصوت جاف . ابتعد رجال الشرطة . انهم ينظرون إلى وضع رئيسهم بصمت مطبق .

نهض حميد سراج ، وترنح على ساقيه . حاول أن يمسح يديه
الدم الذي كان يغطي وجهه . نظر اليه المفوض نظرة لا تعبر عن شيء ،
وتابع طريقه .

أفاق حميد سراج فوجد نفسه مسجوناً في زنزانة . أنه في حاجة
أنه أن يبذل . هي حاجة قاهرة ، يزيد لها لجاجة أنه عانى برذا
شديدا طوال ليلته . لقد سكب عليه رجال الشرطة عددا من قوادر
الماء لتزول عن جسمه آثار الضرب .

لقد استجوبوه عدة مرات : سألوه هل يعرف أحدا من الأشخاص
الذين سموهم له . فكان لا يجيب بشيء ، فيأخذون بضربه ، ثم
يستأنفون الاستجواب .

هذه جدران جديدة من الضباب تحاصره . كل هذا آت من عالم
آخر ، من عالم هارب ، فما أن يحاول الفكر الإمساك به حتى يزول .
عالم لا منطوق فيه . غير أن هذه الحجرة هي الآن له .
لقد سبق أن رآها في مكان ما ، لا ريب في ذلك . ولكن أين ؟ أنه
لا يعرف أين رآها ، لا يتذكر أين رآها . أن في هذا المكان شيئا
لا يستطيع أن يميزه تمييزا واضحا . آه .. أمر يهيج الأعصاب .
أهذه حجرة موتى ؟ .. أنا لست ميتا .

شيء كالموت . ظل حميد ممددا طوال الليل بشيابه المبتلة التي كان
يحبس أنها ما تنفك تضيق عليه . ما السبيل إلى الخلاص من هذا
الكابوس ؟ ها هو ذا يعرفها ، هذه الغرفة . إلا أن فيها خلاء عجيبا
وقضاء غريبا .. آه من هذه الحجرة .. لا تحاول أن تدخلها ،
لا تحاول أن تجيء فتري ما فيها . لكنها ضائعة تحت الأرض على
عمق آلاف من الأذرع . لا يمكن الايقال إلى ما هو أعمق منها .
وكان هنالك أيضا تلك الجدران العجيبة ، البيضاء أو الشهباء .
أن حميد على يقين تام من أن هذه الحجرة تشبه حجرته شيئا ليس
في الحسبان . غير أنه ... لا يتذكر الآن أين سبق له أن رآها . آه
من هذه الحاجة الكاوية إلى الثبول .

أن ثقلا رهيبا بجثم على صدرك ، ولا تكاد تستطيع أن تتحرك .
أنك تتقلقل قليلا . البرد . البرد . تعلم بانك ميت . تضحك في هدوء
ورفق . تتقلقل قليلا مرة أخرى . هو برد الصباح ، تقول هذا
ضاحكا . البرد . البرد . البرد .

انقرس الضوء في جسم حميد انقراس الشوك . لعل هذا ينقذه
من الموت . فتح عينيه مرة أخرى ، بعد أن عاد فأغمضهما لحظة .
أن هذه الساعة هي الساعة التي يأخذ فيها ضوء الصباح الأشهب

يتسلل الى دار سبيطار ، هي الساعة التي تأخذ فيها الاصوات الاولى المتعشرة بالنوم تتسرب من الحجرات الموصدة الى الخارج تسربا لا يكاد يدرك .

لقد نام حميد سراج مدة لا يستطيع ان يحدد طولها . هي مدة طويلة من غير ريب . لقد غطس دفعة واحدة في حفرة سوداء شق النعاس بابها ، فهوى فيها ، وأطبقت عليه . نوم مفاجيء . ما من شيء حتى حول النائم ، وما هو ذا الفراغ الذي ابتلعه (كان الزمان قد أفلت من كل قياس) يتقيؤه الآن لا هثا .

ان حميد يشعر بأوجاع في كل جزء من أجزاء جسمه ، في الكتف ، في الاضلاع ، في الوجه ، في الساقين . أما فكره فكان ظلاما قد امتصه ونشر حوله ضبابه . وأدرك حميد أن الضوضاء التي ظل يظن خلال مدة طويلة أنه يسمعها انما كانت في رأسه . انها صوته ولكن هذا الصوت يبدو آتيا من مكان آخر ، متشوها متضخما مليون مرة . كان يتكلم . ان صوته لا يدخل الاشياء ، بل يظل معلقا في الفضاء لا صلة بينه وبين ما عداه . هو صوت لا يلامس قلب الأشياء .

سد أذنيه حتى لا يصل اليه هذا الصوت ، وانحبس في ذاته انحباسه في هذه الزنزانة . ولكن الصوت ارتفع في الجهة الاخرى من وراء قضبان الحديد . وفجأة انفجرت من صدره صرخة قاسية عريضة كان يحبسها منذ مدة . فاستيقظ الكره اذ ذاك في نفسه محملا بعينه العميقة .

خرج في بطن من البئر السوداء التي كان غاطسا فيها ، وأدرك أخيرا ما كان قائما في رأسه من هرج ومرج . لقد عذبوه بينما كان مغشيا عليه . فتح عينيه ، ونظر الى حاله : زنزانة مظلمة . كان يحس رقم يقظته من النوم ، أن هناك طبقات مجاورة من الفكر الذي أخذ ينبجس في داخله ، لا تزال غافية . هذه الطبقات وحدها كانت تحتفظ بذكرى التعذيب الذي انطبع على جسمه في نشوش عظيم وكأنه احتراق . وضع يده على ظهره فأدرك أنه عريان حتى الخصرين . وانقضت لحظة ، فاذا بصورة عمر تخطر أمام عينيه .

لماذا يتذكر عمر هنا ؟ انه ليس في حالة تمكنه من القاء هذا السؤال على نفسه . ثم طفت في خياله ذكرى مدينة الجزائر ، أيام كان يقطن فيها ، كان سائرا في شارع الحرية ، بعد أن حضر اجتماعا من الاجتماعات . كانت الساعة هي العاشرة من المساء . كان المطر يهطل . لقد هطل المطر طوال ذلك النهار ، ولا يزال يهطل في المساء .

كان حميد يسير كالأعمى وقد احترقت رثائه واحترق حلقه من الركن . ان سحابا وابلا لا يمكن تجاوزه كان قائما في الهواء امامه ، يرجع القهقري بغير انقطاع .

وعادت صورة عمر مرة أخرى . كان حميد راجعا الى دار سبيطار حين هوى رأس الصبي على بطنه . كان عمر يجري مسرعا كعازر ، هاربا من البيت . طوقه حميد بذراعيه . وأنهضه عن الأرض . رفع عمر بصره اليه . وقال له :
- كان رائعا .

ان صيحات عميقة من صيحات النساء تخرج من داخل البيت مع ضجة كبيرة .
قال حميد :

- ما الذي كان رائعا ؟

- اجتماع هؤلاء الناس جميعا ، وكل ما قلته لهم في مقر «الشارع المنخفض» . أنسيت ؟

بهذا صاح الفتى وقد غزته حماسة مفاجئة .

- آ... كنت هناك ؟

وسقط الصبي بين يديه ، وقد أصبح أثقل من أن يطبق حمله . فما ان لامست قدماه الأرض حتى وثب فاجتاز الرواق وصار في الشارع .

وغرق حميد في ظلمة الخيل شيئا فشيئا . انه يسمع صراخا وصياحا ، وان رعشة خفيفة تسرى فيه من كل جانب . ان النداء الذي يسمعه في هذه العنمة قاس رغم ضعفه . فكأنه أنات طفل . وكان الطفل قد نضبت قواه ، ولكنه لا يزال يصرخ . استحث حميد خطاه ، فاذا هو يصل الى ثلاثة أطياف كبيرة أو أربعة كانت تهتف بصوت عال . قال أحدها :

- هيا... قل انك لا تحب هذا .

وارتفعت شكوى . كان الرجال يسرون في وسط الطريق المعبد . وكان الشارع مقفرا في هذه الساعة من الليل . كان لا يبدو عليهم أنهم عابثون بالمطر . فاعتقد حميد خلال لحظة أنهم عسكرون . كانت أحذيتهم تقرع أرض الشارع . واقتربوا من أحد المصاييح فانتصبت أشباحهم وتناولت كثيرا . قال واحد منهم :
- خذ هذا يا قملة .

راى حميد ، رؤية واضحة في هذه المرة ، ان هؤلاء الاشخاص

الثلاثة يتقاذفون الشيء الذي بدا له طفلاً ، كما يتقاذف اللاعبون كرة
الكرة ، فهذا يركله بقدمه ، وذاك يضربه بقبضة يده ، أو
يكنه ، وكان الطفل ينجر على الأرض وهو يكاد يعجز حتى عن

أن يمشي لا يستطيع أن ينهض . حاول الرجل أن يتقاذفه وهم
يتصالحون فقال أحد الثلاثة شامتا :

يا للقدارة .

يجروته على أرض الشارع .

انظر عليهم نور الصباح شديدا بعد بضعة أمتار . فاستطاع
حميد أن يرى الصبي . أنه ماصح أحذية أو حذاء واحد من
أولئك الذين يراهم المرء راكضين في شوارع مدينة الجزائر أعدادا
غفيرة . كان الطفل متمددا على الأرض . أن يصاب بمزقة كانت
مغموسة في الوحل ملطخة بالبقع السوداء . جمد الرجل الثلاثة
واخذوا ينظرون إلى الصبي .

ولما جموا لحظه صامتين كأنهم يترددون . ثم قال أحدهم ساخرا :

— اذن فليس هذا ، فهناك من أمثاله كثيرون . ملايين . ليست
الفئران هي التي يعز وجودها في هذه البلاد .

قال ذلك المرء ، الصبي المستلقى على الأرض بقدمه . يصرخ
الصبي ولم يسمع له وعاد الرجال الثلاثة يضطهدون معا هذا المخلوق
الذي كان يبدو ميتا .

صاح حميد : يا قفوا .

— قفوا .

واسرع اليه .

— ماذا فعل هذا الصبي ؟

— بنا نحن ! لم يفلح شيئا . ولكننا نريد أن نكنس أمثاله جميعا
فبدانا به .

وقال ثان مقاضعا :

— هذا جدي ، هذا عربي .

فأجابه الأول :

— لعله يريد أن نعلمه كيف يعيش .

— دعونا من الآخر . . .

— أتريد أن تبدأ بهذا ؟

— الدور دورك .

وتقدم الشخص الذي قال هذه الجملة الأخيرة ، تقدم من حميد وهو يصطنع توددا زائفا ، فأمسك بياقة سترته بين ابهامه والسبابة ، وتفرس في وجهه . وتقدم الآخرا . قال الأول :

— صيدة جميلة .

— رجل جاوز طوره .

— يعد نفسه متحضرا .

انزع حميد نفسه بعنف من الرجل الأول ، ثم عاد اليه مندفعاً بكل ما أوتي من قوة ، فجبّه بضربة في صدره فأسقطه . أطلق الرجل كلمة آه عميقة ، وتمدد على الأرض في ضجة صماء . ولم ينهض . وابتعد أحد رفيقيه وهو يصيح صياحا شديدا .

وفجأة رأى حميد سكيئا تلتهم في يد الثالث الذي بقي واقفا أمامه .

— انتظر يا وسخ .

قال الرجل ذلك ووثب على حميد ، وكان حميد ينتظره ، فانتقل من مكانه بحركة صغيرة ، فأنقضى الضربة ، وإذا الرجل يختل توازنه ويهوى على الأرض معولا ، أما الآن وثبتته التي لم تلتق بشيء دفعت به إلى الإمام في عنف ، وأما لأنه اصطدم ببلاط الرصيف . أخذ حميد يراقبه .

نهض الرجل . غير أنه كان يرتعش ارتعاشا قويا .

ومضى حميد يحلم .

فكان ، وهو غار بغير سلاح في السجن ، يمضي في الليل ، فيلقى « أرواحا خبيثة » تهاجمه وترهقه وتسخر منه . أن لجميع هذه « الأشباح » — المتبوعة بضروب الأذى التي أوقعتها في الناس — اسما مظلما جدا بالنسبة إلى الجزائر . ليست أمواتا وأنما هي أشباح تدوس الإنسان الذي صرعه النعاس ، والالام ، أو غير ذلك من الأشياء ، تدوسه بأقدامها .

وكان هو يقول : سفلة .. أوباش ..

وكان يترك لهم جسمه المذال العارى يدوسونه ما شاء لهم أن يدوسوه ، وكان يتقبل أهانتهم كأنها هي شرف ومجد .

البرد شديد كأنه ضياء متجمد .

وسمعت أذنه شيئا فصاح :

— من هناك ؟

فترأى له أن ملايين الشعل الصغيرة تتألا من حوله ، ولكن بدا

له في الوقت نفسه انها تنطقى . قال لنفسه : آه . . . الآن فهمت .
انى في لونا بارك . وما هي الا لحظة حتى سمع صوتا من تحته يصيح :

— هيه . . .

قال :

— هل هناك أحد ؟

وجعل ينظر باحثا في انتباه . وهبط الليل مرة أخرى على اللهب
الذى كان يشتعل ، فلم ير شيئا .

صاح من جديد :

— هل هناك أحد ؟

فأجاب الصوت :

— آيه .

— وبعد ؟ اهذا كل شيء ؟

أجاب الصوت :

— آيه . . .

وقرر أن يبحث عن الصوت ، فنهض ، وقال سائلا :

— من أنت ؟ أنت مفلس الموتى ؟

أجاب الصوت :

— بل أنا الشرطى .

لقد دوى الصوت من بعيد . الأرواح هي التي تضيء الآن ، ولكن
حميد لا يرى شيئا ، لا يرى أكثر مما كان يرى منذ لحظة على كل
حال .

— لا شك أنك تتولى هنا الحراسة .

ضحك الشرطى ، وقال :

— لا بل أنا مرتاح .

— كيف ؟ اترتاح في لونا بارك ؟ ..

قال الشرطى :

— هو مكان هادىء مريح . واليانصيب جميل أيضا .

— إذن ، فقد جئت هنا للاستجمام ؟

قال الشرطى :

— لا . . . ليس هؤلاء موتاى . . هم موتى غيري . أنا ليس لى
موتى الى الآن . ليس لى حتى هذه اللحظة الا احياء . انى أفكر
فيهم كثيرا . هل تعلم كم يسهل على المرء أن يحيل الحى ميتا . ان
مصر احيائى يهمنى كثيرا .

- ليس بين هؤلاء الموتى جميعا واحد لك ؟ غريب .. ولكن ماذا ؟
- كيف لا يكون لك بين هذه الجمهرة من الموتى ميت واحد ؟
- قال الشرطى ممازحا :
- نكتة ظريفة . اليس كذلك ؟
- أراهن ان لك بينهم موتى . لك بينهم اكثر مما تظن .
- فوافق الشرطى قائلا :
- الحق ان لجميع الناس بينهم قليلا .. اما أنا ..
- لا بد ان يكون لك بينهم أكثر مما للآخرين . قل الحقيقة !
- اليس لك بينهم أكثر مما للآخرين ؟ أقصد : لكم أنتم .
- ها .. فى هذه الحالة ..
- وخيم الصمت لحظة . بدا على الشرطى انه يشوب الى نفسه . قال :
- كيف يمكن هذا ؟
- طبعا . ليس يستحى الا اولاد الحرام .
- لست أفهمك .
- وستفهمنى أقل من ذلك ، مع ان ما اقله واضح كل الوضوح :
- اولاد الحرام وحدهم هم الذين ...
- هذا سمعته ..
- فعماذا تريد اذن ؟
- ما زلت غير مدرك .
- وجاء الجواب فى صورة صرخة نابغة من أعماق الليل :
- كيف يمكن هذا ؟
- فلاحظ الشرطى :
- وبعد ؟
- ثم تابع يقول :
- هكذا جميع الناس . حين كنت أنا طفلا ..
- انطلقت صرخة تشقق الظلام الدامس :
- أنت ، كنت طفلا ؟
- قال الشرطى :
- لم لا ؟ لماذا لا اكون طفلا قبل أن اصبح رجلا ؟ ما وجه الفظاعة
- فى هذا ؟
- لا جواب .
- لماذا صرخت ، ولماذا تصمت الآن ؟
- لقد استولى الغضب على الشرطى .

— أهو أمر عجيب أنتى كنت طفلا ؟ ألم تكن طفلا أنت ؟

ان صمنا عميقا هو الذى استقبل كلماته .

— حقا ليس ذلك بالأمر العجيب .

— وعاد الصوت أخيرا ينبجس من قرارة الليل . قال :

— وأنت ؟

— أنا ماذا ؟

— طفل جاع ؟ طفل ركض فى الوحل المتجلد غارى القدمين ؟

— وبعد ؟

أضاف « الشرطى » بعد لحظة :

— نحن جميعا كنا أطفالا .

— لا أفهم .

قال الشرطى :

— خذ هذا المثال : ان الصبى عمر ..

وفى هذه اللحظة ارتفعت فى الظلام صيحة مليئة بالحنق .

— الصبى عمر ..

— لماذا نزعق ؟ أى غرابة فى ان أعرف صبيا اسمه عمر . مستكين

هذا الصبى .

— ولكن عمر طفل أعرفه .

— طيب . هذا كل شيء .

فصاح الصوت فجأة :

— أنت تكذب . أنت تكذب . أنت تكذب . انك لا تعرف صبيا

اسمه عمر ، هذا مستحيل . أنت تكذب . ولست تكذب فحسب ،

بل أنت تسخر منى أيضا ، وتخدعنى ، اذ تزعم انك تعرف صبيا

اسمه عمر .. أنت تحاول أن تستدرجنى .. خاب فالك . عبثا

تدعى انك تعرف هذا الصبى . أنت شرطى ، وان لم تكن الآن الا

روحا . لا تنس هذا . لا يمكن أن تكون قد عرفت عمر .

قال الشرطى :

— كيف ؟ أنا ؟

— أنت ..

وضحك الشرطى :

— هه ..

— اسمع لى ، اسمع لى . سأقص عليك حكاية ، عليك أنت ،

أنت الشرطى .

ودوت عندئذ في قرارة الليل كلمات وكلمات ، قريبة جدا ،
رهيبة ، تلاحقت في غير انقطاع . كانت الكلمات تعنى : الخوف .
- هل تسمع حكايتي ؟

- نعم .

- فلماذا ، وأنت شرطي ، لم تتدخل لحماية ماسح الاحذية الصغير .
مع أنك شرطي ؟

- كيف عرفت والظلام كان حالكا ؟

- ولكنك ظللت مختبئا .

- صحيح . لقد كنت حاضرا .

- رأيت كل شيء ، ثم لم تقم بأية حركة دفاعا عن الصبي . شهدت
المشهد كله في الخفاء ولم تتزحزح من مكانك .

- نعم . كنت أرى كل شيء .

- كانوا يقتلون طفلا وأنت لا تتحرك .

- صحيح . ولكن لم يكن في وسمى أنا ولا في وسع أحد غري أن
يعترض سبيل هؤلاء الرجال الذين لهم حظوة لدى «الحماية السامية» .
وأعقب الصمت هذه الكلمات ، انه صمت كصمت القبور .

- ارحمني . ما أنا الا رجل فقير مضطر الى كسب رزقه . ماذا
كان في وسمى أن أعمل ؟

- لا تحاول أن ترقق قلبي . ما أنت الا شرطي ، لا أكثر من ذلك .

- طيب ، أنا شرطي . ليكن .

- وأنت ، ألم تأخذ أطفالا الى السجن ؟ ألم تأخذ أطفالا الى
السجن ؟ أطفالا في الثانية عشرة من سنهم . تذكر . كنت تعلمهم من
« السوق » من ناحية البحر ، أو تجمعهم من باب « يومدين » وكنت
تقيد أيديهم الصغيرة بالسلاسل . أطفال في الثانية عشرة من سنهم .
ففى بعض الايام تقبض على ثلاثة منهم ، وفي أيام أخرى على أربعة ،
تشدد بعضهم الى بعض بزنجير وتسوقهم أمامك . كنت تريد أن توهم
سكان المدينة بأن هؤلاء الاولاد من كبار المجرمين . . أو أنهم من
الصوص . ولم يخطئك تقديرك . كان أكثر المواطنين لا يطلبون إلا
أن يصدقوك . كنت اذن تعرف ماذا تفعل . ولكنك لم تكن تجرؤ
على أن تدوس هؤلاء الاولاد بقدميك ما دمت تجتاز المدينة . ذلك ان
هذه المدينة لم يكن فيها مواطنون فحسب ، بل كان فيها أيضا
رعايا ، حتى أن عدد الرعايا كان أكبر من عدد المواطنين . وكنت
تعلم أن أعين الرعايا تنظر إليك وتشيعك في الشارع من ركن الى

رئيس . وكنت تخشى هذه النظرة . حتى اذا خلوت بهؤلاء الاولاد في
دار الشرطة ، اندفعت تعمل ما عمله . هل تجرؤ ان تقول لى ماذا
كنت تعمل ؟

لحظة صمت . ان الارواح المتأججة ، ارواح موتى اللونبارك ،
تشكل الآن موكبا كبيرا من شعل صغيرة . ان عددها كبير . وهى
تغير اتجاهها ، ثم تتابع طريقها ، صغيرة ، ملتزمة كما كانت .
وعاد صوت الشرطى يسمع :

— اين انت ؟ مد لى يدك .

— ارجع ، ارجع ايها الحقير .

— كيف هذا ؟

— يا قاتل الاولاد .

فأعاد الشرطى قوله :

— كيف ؟ مد لى يدك .

— ارجع ايها الضبع العفن النتن .

ومرة أخرى التمعت الارواح دون ان تضىء .

صاح الشرطى :

— وأخيرا ؟ انت هنا أم لا ؟

— لست هنا . لست هنا من اجلك على كل حال .

— فهمت .

صاح الصوت :

— آ . . . كنت تريد ان تلعب مع الاطفال ؟

— ولم لا ؟

— أية لعبة كنت تريد ان تلعبها معهم ؟ لعبة الموت ؟

وعاد الصمت يخيم .

— كيف ؟

ودوى الصوت قويا رهيبا كأنه يخرج من مكبر :

— قاتل . . .

قال الشرطى :

— اظن اننى تأملت الآن تألما كافيا .

فزأر الصوت يقول :

— ماذا ؟

فقال الشرطى فى انين :

— بلغت من الألم درجة كافية . أود لو لعب مع الاطفال .

— الا انك لمهرج وقح . اتقول هذا الآن ؟ أنت لا تعرف كيف تخرج
من المازق . أنت الزيف كله . أنت الكذب بعينه .
وعاد صوت الشرطى وجلا متلمسا يدمدم مرة اخرى :

— هيه .

— هيه ؟ ماذا تعنى بقولك هيه ؟

— افلا تذهب ؟

— سأتبقى لأؤنسك .

— لا أريد أن تذهب .

— هل الشرطى هو الذى يصدر هذا الأمر ؟

— لا أريد ، لا أريد .

قال الصوت :

— اذن أنا ذاهب .

— لا . اسمع : هل أوقعت بك ظلما ؟

— أى ظلم ؟ أتجرؤ على القاء هذا السؤال ؟

— ولكن .

— وجدت رجالا مكبلين كالعبيد ، فطعنتهم .

— ها .. نعم .. لقد شرفت بهذا المجد .

— لن يشفق عليك ، لا أنت ولا ذئوك .

قال الشرطى :

— انظر . الا ترائى ابكى ؟ الى أين تذهب ؟

— أنا ذاهب .

— لا أريد ، لا أريد .

ما من جواب .

صرخ الشرطى :

— لا أريد .. لا . أين أنت ؟

لا شيء . لا جواب . واستمر الشرطى يصرخ .

ان الامور التى تنسى لا تكون أبدا فى مثل هذا الهول . كان المطر

يسيل على خديه كالدموع . وكان يحس ركضهم وراءه . أبسط

شيء الا ينظر اليهم ..

كان الرجال الثلاثة يركضون مسرعين .

كانوا يصيحون فى آن واحد :

— لنسلخن جلدك .

وكان يصلب ساقيه من حين الى حين .. فكلما اعوزته قدم ، صاح

شائما . ليس حوله في كل مكان الا خربير الماء على الارض . وهذه
اوساخ لينة منشورة في الشوارع الصغيرة . انه لا يفكر الا في الهرب
منهم . برز رجلان من ركن أحد الشوارع ، واتجها نحوه . توقف
أحدهما . ووقف الآخر بعيدا . لعله ينتظره . وهذا واحد يبول
فيسمع وقع بوله على الارض . ثم لم يسمعهما بعد ذلك أبدا .
وعاد أدراجه ، بدلا من الاستمرار في المضي الى أعلى المدينة . ثم
وقف جامدا . وبصق . وأتاح لنفسه وقتا كافيا للسعال . ثم
استأنف سيره .

الشوارع متشابهة في الظلام : كأنها جدران . وفي آخر منعطف
وجد نفسه في أدنى المدينة .

ويقرؤه الم نائم . انه الألم الذي سيعانيه بعد دقيقة .
كانت هناك مصابيح كهربائية تنير الارض بأضوائها . قال : انقطع
المطر . وهذا شارع آخر . انتهى ذلك كله . وهذه عربية أخيرة من
عربات الترامواي تصل .

حقا لقد انقطع المطر . ابتعدت عربية الترامواي سائرة في الشوارع
الخالية مسرعة مقرقة . تخذد الجليد بماء يتساقط عليه عنيقا .
وحين لامس الهواء الدافئ أدرك برد الليل . وحقق بنظره الى امرأة
تلبس رداء زاهي اللون ان معها رجلا وشابا يصحبانها . نظر اليهما
وأحدا بعد آخر . كانت نظراتهما تعبر عن الضجر .

والقي نظرة الى الخارج . غير ان داخل العربية المضاءة كان ينعكس
على الجليد كله . وتجاوزت العربية لافتة من اللافتات ، وقطعت
شارعا منحنيا وعجلاتها تصر صريرا حادا مزعجا ، ثم اختفت .

ان الأمور التي ينساها المرء لا تكون أبدا في مثل هذا الهول . قال
ذلك لنفسه ذاهلا نوعا من الدهول . ومرة أخرى تحركت معدته .
وحين نزل في آخر موقف ، لم يكن في عربية الترامواي أحد . وتقدم
في ظلمة الشارع مغمضا عينيه . فكان يتعثر من حين الى حين ببلاطة
من البلاطات . كان هادئا . غير ان هذا التوتر في عينيه يؤلمه .

كان الليل مضطربا هائجا . السماء بيضاء وسوداء . وبعد ان
صعد في الشارع مسافة عشرين مترا ، دخل بيتا قديما .

مشى في الظلام على غير هدى ، فصعد خمسة (طوابق) . صاح
أحد الناس :

— من هنا ؟ ..

كانت العجوز إيميليا تحاول أن تتكلم . غير أن صوتها ، وقد

جاوزت الستين ، ظل مبهما غير واضح ، وهزت المرأة المشلولة
قوابض سريرها فأجابها :
- هذا أنا .

فاتضح صوت العجوز وأكملت كلامها :
- قتلوا رجلا فوق .
سألها :

- من قتله ؟
- اقتتلوا . لا أدري . قيل أنهم كانوا أربعة أو خمسة . وقد
اقتتلوا .

ثم قالت :
- أهذه ساعات يبقى فيها المرء خارج منزله ؟

فدمدم يقول :
- يالك من حمارة عجوز !
- أين كنت ؟

وضحكت ضحكة قصيرة ، ثم عادت تقول :
- لن يستيقظ بعد الآن .

ولم تضيف الى هذا كلمة واحدة .
والقى من آخر فسحة السلم نظرة الى مربع الضوء الوحيد الذي يلتمع في
سواد الليل .

ومضى يسير ، وهو يشعر الآن بكلال واعياء . ان نافذة صغيرة
فوق باب هذه (الشقة) هي التي تسقط هذا النور الاحمر
المبهم . ان الاضواء مشعلة عند هؤلاء الناس في كل ساعة . لا شك
انهم ساهرون على مريض . . ووصل الى بيته . فتح الباب ، ثم
دفعه ورائه . لم يقف في تلك الحجرة الاولى ، بل ظل يسير
الى ان دخل الغرفة الاخيرة .

أشغل الضوء . خطر بباله ان يذهب الى المطبخ يعد بيضتين ،
الا أنه عدل عن هذا المشروع بعد لحظة . يجب ان ينام . والتفت
ببصره نحو النافذة العالية الضيقة ، التي يتصور من خلالها السماء
في قرارة الظلام . كان المطر قد عاد بهطل ، وكأنه لن ينقطع عن
الهطول .

وفجأة رأى وجهه في مرآة ، فكاد يصرخ .
وارتمى على سريريه بشيابه . دقت ساعة الجدار . تمسك بعوارض
السريр . ارتعش . ان الرطوبة تتسلل فيه ببطء . وسمع وقع

أقدام في غرفة أخرى ، بعيدة . ودقت ساعة الجدار مرة ثانية . .
انتظر الدقة الأخيرة . دقت الساعة أكثر فأكثر ، في هذا الصمت
الذي يضخمه تساقط المطر في غير انقطاع . يجب عليه أن يركض
أيضا . وهذا نسيج يهزه هذا . كان لا يتقدم إلا في عناء . أن
الليل والمطر دائمان هناك منذ مدة طويلة . وتجمع أشخاص كثيرون ،
واشعلوا ضوءا . غير أن أنوارهم لا تفيد في الرؤية بقدر ما تفيد
في إضاءة وجوههم . وقام صراخ ، واضطربت أصوات . أنهم
يعيدون . وحاول بعضهم أن يلاحقه .

أنه الآن مائل فوق منضدة المفتش : السجائر قد حرقته خشب
المنضدة في بعض المواضع وخلفت فيها نقاطا سوداء . كان المفتش
واقفا . أن طوله لا يزيد على متر وستين سنتيمترا ، لكن له بطنا
ضخما . المصباح الكهربائي عند مستوى صدره . قميصه الأبيض
الذي تحت السترة قد فك زر (ياقته) . أطراف السترة غارقة
في الظل . الآخرون صامتون جميعا . النور الاصطناعي يصطب
وجوههم التي بدت متعبة ، أخرج المفتش يديه من جيبه وأسندهما
إلى المنضدة . كان قد رفع كرسيه إلى الحائط . وأخذ يهدر كالطبل
.. كان لا يسحب أنفاسا من سيجارته ، ولكنه استمر يهدر . لاشك
أن عقب السيجارة ، المتصق بشفتيه ، كان قد انطلق .
لم يكن خذا المفتش مخلوقين . أن له فما بارزا . وشفته السفلى
متهدلة . هل تراه يتوقف عن الهدير ؟

قالوا في أنفسهم : هانت ذا ترى أنك أصبحت لا تستطيع أن
تقرر شيئا ، لأن كل شيء قد تقرر بدونك . سترى بعد قليل هل
له الغلبة أم لك . تخيل ما ستكون أنت . هل تستطيع أن تتخيل ،
هل تستطيع ؟

وكان الماء يقرقع في الخارج على الأرض . وكان يقرقر عند فتحة
بالوعة قريبة كل القرب .

ثم استحال كل شيء إلى أغنية . إن دخانا مستقيما شفافا يتصاعد
في وسط الحقول . وسماء الصباح ممتدة كسماء الليل : هي ليلة ،
والهواء حاد قاطع . ونهر لا يرى ينحدر من الجبل .

وأخذ النهار يحترق على رءوس الأشجار . كانت الأغنية تتصاعد
قوية ، بينما كانت الطيور تخذد الفضاء بصيحات قاسية . وما هي
إلا لحظة حتى انقلبت الأشجار المليئة بالعصافير إلى صيحة واحدة
متجهة إلى السماء اللازوردية .

انه فرح يصل بوثية ، يصل من بعيد ، ثم لا يلبث ان يتسحب
لكنه فرح على كل حال .

ما من فرح كهذا الفرح . بهذا حدث حميد سراج نفسه . وراح
ينصت للأغنية العميقة التي لا يدري أكانت تنبع من نفسه أم من
هذه الأرض .

ماذا كانت هذه القوة العارمة التي لا تقاوم ؟ ماذا كان هذا
الأمل ؟

أحس انه لا يمكن ان يموت . أحس انه ما من شيء يمكن ان يموت
.. ياله من فرح ! يا لها من مفاجأة ! هذا اليقين الذي جاء دفعة
واحدة ! ..

راح حميد يتأمل السماء من خلال الكوة ، راح يتأمل السماء
العالية جدا ، السماء التي كانت تتلألأ .. كان هذا الهواء المعطي
آتيا من مسافات بعيدة قطعها . ايه أيتها الأرض الخفيفة القوية ..
وتذكر فلاحه عجوزا اقتربت منهم ذات يوم بينما كانوا بضعة
اشخاص في الحقول . تذكر كيف قالت بصوت عال حتى يصل
كلامها اليهم :

— كبيرة امنا الجزائر .
كانوا جميعا يعرفونها . وسارت في طريقها دون ان ترميهم بنظرة
واحدة .

ابتنسم الرجال . وناداهما أحد الفلاحين قائلا :
— خالتي خيره اسمعي . من تكلمين ؟ أتكلمين نفسك ؟
قالت العجوز الصغيرة :

— أكلم عصاي . غريب الا يستطيع المرء ان ينطق بحرف دون
ان يكون هناك من يلتقط كلامه ..

قالت ذلك وتجهمت لهم . وأضافت تسأل :
— ماذا تحملون لنا من انباء ؟

انها تعلم ان حميد كان آتيا من المدينة . ولكنها لا تريد ان تظهر
بمظهر من يسأله . فالتفت سؤالا على الفلاحين في غير كلفة .
أجاب حميد ، وقد فهمها :

الانباء ما تترين . كل شيء يسير على خير حال .
— أهذا رأيك ؟ لا تطيب الحقيقة الا مدفونة في بئر . هل تعتقد ان
خيرا سيقم ؟

— طبعاً .

— أسأل الله أن يصدق ما تقول . لا يهمنا أن يطول الليل مادام
الصباح طالما لا محالة .

ومضت الخالة خيره بخطا قصيرة عنيدة ، وظل الرجال صامتين
لحظة من الوقت .

خيل إلى حميد أنه الآن في بيته بعد أسفار طويلة كثيرة . قال
لنفسه : أنا الآن ارتاح بين أهلي وقد هجرت حياة التشرذم إلى الأبد
.. اننى أقبل أن يعلمنى أخوتى كيف أضع قدمى أمامى . سادعهم
يقودوننى ، وأن يأخذوا بيدي ، لنظا الأرض . اننى مؤمن بهم .
الحمد لله .

لقد بقيت لى هذه الأرض وبقي لى هذا الشعب العظيم ، فأستطيع
أن أتجه إليهما . نحوهما سأمشى بعد الآن . وحدهما سينقذاننى
.. ليأت ذلك اليوم الذى أستطيع فيه أن اجتاز جميع المدن وجميع
القرى ، فأزور كل واحد من سكان المدن ، وكل واحد من الفلاحين
.. فإذا رأيت قروياً يقبض على فأسه فى صورة رائعة وقفت أنأمله
ساعات وساعات . أن هؤلاء الرجال يوقظون الفرح فى النفس .

أما (الزنزانة) الفظيعة ، ووجوه الحراس الجهمة الكالحة ،
والجدران الرمادية ، ورائحة النتن والرطوبة التى تملأ دهاليز
السجن ، وصيحات السجناء وأناتهم ، النافذة الصغيرة المنقوبة فى
الجدار السميك ، والوحدة الكثيبة ، أما كل هذا فانه فى ذلك الصباح
لم ينشبه له .

يستطيع الآن أن يفقو . ويرتاح . أن نومه لم يقتل . أن يقضى
لياليه بعد الآن فى أرق معذب . لقد أنقذ . فكر فى الوسائل التى
تتيح له أن يتصل بالخارج . لا يزال فى وسعه أن يساعد رفاقه .
وأحس شيئاً فشيئاً ، احساساً غريباً بأنه يتعلم الحياة من جديد
فى هدوء ورفق . لم يكن فى أول الأمر قد وجدنى نفسه الا عنفاً قاسياً
بعميه . وهذا قلبه الآن ، وقد تكلس كالبحم ، يكشف زوايا مظلمة
طرية . أنه يرتعش . أن هذا المسير لا يزال يتم بكثير من الآلام
والعشرات . وفى حذر وتأن تعرف المكان فى هذه الزنزانة التى تتم
له فيها اليقظة . كان عليه أن ينتصر على كل تعجل . كان عليه أن
ينتظر قليلاً . أنه عائد من جحيم شعر فيه بحضور العدم حضوراً
ملحوساً .

انتشر الامر بالاضراب فى جميع القرى . ففى المنصورة ، وامامة ، وبريا ، وصفصف ، وفى المنطقة كلها ، قرر العمال الزراعيون ان يتوقفوا عن العمل . وهذه جماعات منهم تتناقش فى الموضوع هنا وهناك .

وما لبثت دوريات الدرك والشرطة ان اخذت تطوف فى الحقول . قال أحد المستوطنين الفرنسيين لرجال الدرك :
- يجب ان ندافع عن انفسنا الان .

لقد ضرب الشاب شريف محمد بالدبوس فى مزرعة ماركوس فانشج رأسه ، وجرى الدم غزيراً على وجهه وثيابه ، وسرعان ما نقل الى كوخ من أكواخ الفلاحين يخبأ فيه . وسيبقى أربعة آخرون الى السجن .

ولقد شعر المستوطن الفرنسى ماركوس مسدسه وحمل العمال على العمل . وفى آخر النهار الاول . فى نحو الساعة الخامسة من العصر ، كان جمع من الفلاحين قد احتشد عند حافة الطريق العام . انهم أكثر من خمسمائة فلاح . وقام عدد منهم يتكلم ويؤكد انهم سيمضون فى الاضراب الى النهاية باجماع الراء .

وحين اخذت جماعاتهم تتفرق ، وصل أحد المربعين فقدم للمضربين كيسين من البطاطس ، وتعهد بأن يلبي مطالبهم .

وفى صباح الفد وصل وفدان من عمال المدينة ، أحدهما يمثل عمال البلدية ، والثانى يمثل عمال السكك الحديدية ، جاء هذان الوفدان لتحية المضربين ولإعلان تضامنهم معهم . وقد شفع عمال السكك الحديدية هذه البادرة الطيبة منهم بتقديم مبلغ ثلاثة آلاف فرنك . وبرع واحد بمفرده من النقابيين بخمسمائة فرنك

واجتمعت المنظمات النقابية فى تلمسان فقررت تشكيل لجنة لدعم الفلاحين ، واصدرت نداء الى العمال ، ثم شرع فوراً فى اجمع التبرعات .

وبعد ثلاثة أيام كان ألف عامل ، فى « حنايا » وحدها ، قد توقفوا عن العمل . ونظم عمال تجريه صفوفهم أيضاً واستعد عمال

« عين الحوت » و « طه ماميت » للاقتداء بالمضربين . كان الاضراب يتسع شيئاً فشيئاً .

نحن في الأيام الأخيرة من شهر ايلول . لا يزال الجو صحوا الى الان . الحقول اصطفت بلون كلون الأجر . انها تقسو ، ولوقع الاقدام عليها صوت مشنوم . اينما تتوجه ببصرك لا ترى الا قشياً محمراً . العشب لا ينبت . الشمس الجزائرية الحمراء تقرض هذه الأرض حتى العظام ، وتحيلها تراباً ناعماً . فحط الشتاء بدأ . العمال الذين يعملون بأجر يومي يتركون المزارع وينضمون الى رفاقهم المضربين .

وعلى مقربة من بنى بويلان تألفت في ذلك اليوم جماعة للنجدة بفضل جهود عدد من الفلاحين بينهم على بن رباح قائلاً في ختام المناقشات :

— منذ خمسة عشر يوماً لم نر قطرة من الزيت في بيتنا . اننى مدين للبقال ، وليس معنى ما أدفعه له . اننا نموت شيئاً فشيئاً . اننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا .

وهذا صبي أشقر ، يبدو في الثالثة عشرة من سنه — عيناه خضراوان وشعره أشعث — يأخذ بالكلام فيقول :

— ان طعامنا الشهي ، وفراشنا الأرض العارية . ليس عندنا ملابس . هذا البرنس العتيق هو ردائي الذي استتر به ، وغطائي الذي ألحفه . اننى مضرب أنا أيضاً .

وصمت ثم أضاف :

— أمى لم تمت الى الآن .

وبعد الطفل جاء رجل فقال :

— أنا من دوار « عشبة » ولكننى عملت دائماً هنا ، وأنا واولادى

وزوجتى ، لم يتركنا الجوع في أى يوم من الأيام . .

فلما أخذتمونى الى دكان بائع من بائعي

الطعام لاكلت كل ما عنده . أن أطفالى يموتون جوعاً . لذلك أقول :

امضوا فى الاضراب الى النهاية . لقد بلغنا غاية البؤس . فما الذى

نخشاه ؟ بالامس اقريب جاءنى بيان الضرائب ، فاذا هم قد سجلوا

على ثمانى مواعر ، ولم يكن عندى منها الا اثنتان . والان لا أملك

ماعة واحدة . هذا هو الوضع .

واقترب با دعدوش بدوره . أن بادعدوش كان قد عمل فى مزرعة

فيار ، ثم طرد بعد ذلك من كوخه .

- رموا بنا الى الخارج أنا وزوجتي وأولادى وما لنا من امتعة .
ان ابنتى الكبرى ريم التى كانت تسير فى عامها السادس عشر ، كانت
تعمل خادمة فى منزل مسيو فيار لقاء اطعامها فحسب . ولقد ظلت
تعمل فى منزلهم ست سنين . ثم مرضت ، فما كان من مسيو
فيار الا ان طردها ، غير مكثف بأنه أرهقها بالعمل . وماتت بعد قليل .
وسألنى هل عندى ابنة اخرى اقدمها اليه . اما أنا فقد رفض ان يعهد
الى باى عمل ، قائلا اننى قد هربت .

وتوقف بادعدوش عن الكلام ، وتقدم يقترب من الجمع ، ويهر أمام
كل واحد منهم ، حتى اذا انتهى من ذلك مضى الى طرف من الارض ،
فانحنى عليها ، ثم اذا هو يعود حاملا فوق رأسه كتلة كبيرة من
الصخر ، وجعل يطوذا على الحشد ، متنقلا من فلاح الى فلاح ، وهو
يهز كتلة الصخر بكلتا يديه . وتابع يقول :

- أنا هرم يا مخلوقات الله ؟

لقى هذا السؤال على جميع من كانوا هناك :

- قولوا : أيعد رجل مثلى عجوزا هرما ؟

كان صوته يدوى . وسار الى الصبى الذى يرتدى برنسا عتيقا
من برانس الرجال ، وقال له بصوت رهيب :

- هل يعد رجل مثلى عجوزا هرما ؟ تكلم يابنى . سيعلم الناس
الحقيقة من فمك .

قال الصبى الاشقر بلهجة الموافقة والمصالحة :

لا ، ياغم بادعدوش . لست هرما . لا يمكن أن تكون هرما .

وعاد بادعدوش الى ناحية الارض التى جاء منها بالصخرة ، فردّها
الى مكانها ، ولما رجع قال دون ان ينظر الى أحد :

- ولقد رفضت ان اعطيه ينثا من بناتى . أعلنت له اننى غير
مستعد لاشقاء طفلة بريئة . اننى رجل . أنا رجل أم لا ؟ يجب أن
أعرف !

قال ذلك ثم صمت وهو متملىء تحديا .

وعاد يدمدم قائلا :

- فلما رفضت ، قرر ان يطردنا جميعا من الكوخ الذى سبق ان
اعطانا اياه ، قرر ان يطردنا دون ان يراعى جانبى أنا الذى انققت قواى
كلها فى خدمته ، ودون ان يراعى جانب ابنتى الميتة . والكوخ أنا الذى
بنيت مع ذلك ، بنيت به يدي هاتين .

قال ذلك وهو يرفع راحتيه العريضتين القويتين أمام وجهه ،

فيعرضهما على الجمع . ونظر الى هؤلاء الرجال المحتشدين بعينين
تفيضان بخزن ومرارة . وارتعشت لحيته الموزعة خصلا شعثاء ،
بينما كان الفلاحون ينظرون اليه كالخرس صامتين .
ثم قال :

— ستدور الدنيا أيها الاصحاب . من ذا الذي يعرف ما سيقع غدا؟
ولكن يا دعدوش لم يشرح ما عساه يحدث ، ولا الآخرون سألوه
عن ذلك .



جاء أحد المستوطنين الفرنسيين بفته الى مقهى من مقاهى العرب،
يتبعه أبناءه وبصحبه عشرة من رجال الدرك ، وقد تسلخوا جميعا
بالبنادق ، فانتزعوا من المقهى بالتهديد من كانوا في حاجة اليهم من
الرجال . ومضى رجال الشرطة يوقظون العمال من نومهم في
الليل . وحرقي عمدة إحدى القرى عريضة تقدم بها
الفلاحون بشأن المعتقلين : فعل ذلك بحضور رجال الدرك . فتقدم
الفلاحون الى العمدة بعريضة أخرى .

وفتح أحد المستوطنين الفرنسيين مخزنه ، معلنا أنه سيوزع
على كل أسرة من أسر العمال الزراعيين كيلو من القمح . ولكن جميع
الفلاحين كانوا قد اختفوا . ورفض أن يلبي نداءه أحد حتى الأطفال
الذين لا يكادون يمشون . وعاد الرجال في أثناء ذلك اليوم ، عادوا
وهم يشهرون في هذه المرة قبضات أيديهم . فاقترب منهم رجال
الدرك وهم يخرجون مسدساتهم من أعمادها .
اعتقل اثنا عشر فلاحا على الفور . وأطلق سراح تسعة منهم عند
العصر بعد أن ضربوا بالهراوات .

وفي دوار سيدي موسى هجم رجال الشرطة على الفلاحين
وأوسعوهم ضربا . وصمد هؤلاء للضرب ، فما كان من رجال الشرطة
إلا أن شهروا بنادقهم الرشاشة .

وفي أثناء الاستجابات ، كانت الشرطة تلح في السؤال لمعرفة
المحرضين على الاضراب . فكان الفلاحون يجيبون بقولهم :

— المسئول عن الاضراب ؟ هو البؤس الذي نحن فيه .
وتحدث المستوطنون الفرنسيون عن الاخلال بالسيادة الفرنسية
.. وفي تلك اللحظة أعلن تسعة من صغار اصحاب البساتين أنهم
موافقون من حيث المبدأ على تلبية المطالب المعروضة وان كبار الملاك

من المستوطنين اولى بأن يلبوا مطالب اعمالهم ، وان تعنتهم لاسووغ له .
ان القرويين يوصدون الآن ابواب منازلهم قبل هبوط الليل
ان قلقا كبيرا يحلق فوق الريف .

لا احد في الطرقات . لا فلاح في الحقول . البلاد صامتة .
لكن مزارع المستوطنين الفرنسيين تتلأل انوارها . وفي افضية
البيوت حركة لا تنقطع وضوضاء . ترى ما مآل هذا كله ؟
وقيل في احدى المزارع :

— يستحيل على المرء أن يعيش في بلد لا يعرف ماذا يجري فيه .
فما كان من ربة البيت الا أن أجابت تقول :

— اننى ادخل شقتى ، واغلق بابى ، فشزول الجزائر من الوجود
عندى .

اما لدى سكان بنى بوبلان ، في أعلى الطريق ، فقد كان الضممت
من العمق بحيث يظن المرء انه في قرية مهجورة .
ودوت في ذات ليلة صرخة : النار .

سرعان ما امتلأت السماء القائمة فوق الكروم بأضواء حمراء .
ان الأنوار الأرجوانية تصطدم بضباب الليل ، وتصبغ الهواء الرطب ،
وتجعل السماء أشد ثقلا . أخذت البرية كلها ترتعش . ففي كل
مكان همهمات سريعة واضطراب لا يرى ، ووجود يكشف عنه فجأة
تكسر أغصان . وأخذ جريان العربات يهز الطرقات الصامتة شيئا
بعد شيء . كان هدير البرية هذا في أثناء الليل يصفع الهواء ،
ويفور في الافنية المظلمة ويرجف الابواب الموصدة ، وينقل الى قلوب
الناس بقوة كقوة السيل .

امام صف من الاكواح الصغيرة التي كان يخرج منها لهب كبير ،
كان عدد من المستوطنين الفرنسيين يقفون صامتين : كانت وجوههم
تصطبغ بالحمرة من لحظة الى لحظة امام التمايع النار المهتز . ان
اذرعهم متدللة . وفي ايديهم بنادق كبيرة يقبضون عليها . انهم
واقفون في ترقب وانتظار . ووصل وراهم عدد من الفلاحين .
كانت النار الواسعة قد التهمت المساكن البائسة وأخذت تهضمها .
وكان الرجال مبهورين قد ذهولوا عن انفسهم .

وعلى مسافة بضعة خطوات من النار كان هنالك فريق من الفلاحين
أخذوا ينصتون في كثير من الانتباه لرجل كان يتكلم ، دون أن يحفلوا
بوجود السادة :

- هلموا بنا .

- هلموا .

ان المستوطنين الفرنسيين يلقون على هذا الفريق من الفلاحين
نظرات باهتة كابية . وظلوا جامدين في مكانهم كأنهم كتل من حجر
انصوان . راحت أبصارهم تنتقل على اللهب ثم انتقلت من دهشة الى
الفلاحين . ورفع أحد هؤلاء الفلاحين يده الضخمة ، وحركها يهيب
بالقرويين أن هلموا ، ثم أسبلها .

- اذهبوا الى بيوتكم .

ان ميسو قيار ، الضخم القصير ، هو الذي قال هذا الكلام .
والفلاحون أناس تعودوا الطاعة ، لذلك وقعت هذه الكلمات في

نفوسهم موقع الامر ، فتراجع بعضهم ، غير أنهم لم ينتعدوا ابتعادا تاما .

ووصلت من الحلقة المتراصة عدة اصوات ، اولها صوت الفلاح الذى كان يناقش منذ لحظة بصوت أبج ، قال :

— لا .. لا ..

لم يوجه كلامه الى المستوطنين ، بل وجهه الى الرجال الذين كانوا محيطين به .

وسمعت كذلك دمدعات وهمهمات .

— لا ، لا ..

أن اصواتا كثيرة تدوى معا فى آن واحد ، غير أن الكلام المتقطع الذى قاله الفلاح كان يغطيها جميعا . لقد فرض هذا الفلاح نفسه على الآخرين بسلطته وخطوته . وما هى الا لحظة حتى تعالت النداءات من كل مكان تقول : هيا ، هيا ..

وسرعان ما تفرق الفلاحون فى جميع الجهات . فهم يحملون التراب يبطون جلاليبهم ، وراحات أيديهم ، وبالاكياس المشدودة الى اجسامهم ، ويهرعون الى النار ثم ينتعدون مرة أخرى ، ثم يعودون الى الاكواخ التى تتصاعد منها السنة اللهب ، ثم يستأنفون هذا العمل فى غير هوادة ولا مهادنة . وكان سليمان يركض مترنحا ، وإلى جانبه تسيل ظلال اخرى فى حركة متصلة مضطربة . وكان تأجج النار يزداد ازديادا لا حدود له ، فكلما وثبت السنة اللهب وثبة جديدة انتفض قلب سليمان وقفز من مكانه . كان سليمان يحدث نفسه قائلا وهو يرتعش : « يجب أن ننقل ما يمكن انقاذه . ما اشقى حياة الفلاح ! » . ثم يركض كالمجنون ، كالسكران ، لا يكاد يفهم شيئا مما يقع .

وترك المستوطنون الفرنسيون لهؤلاء الفلاحين أن يعملوا ما يريدون ، وذلك بعد لحظة قصيرة من تردد . فنقل الفلاحون من التراب ما استطاعوا أن ينقلوا .

كلم سليمان مسكين الرجل الذى كان الى جانبه ، فلم يجبه هذا بنىء ، فأمسك بذراعه ، فرأى دموعا غزيرة تسيل على خديه ، وتختفى فى لحيته الصغيرة الشاحبة اللون . قال له سليمان :

— وصل رجال الشرطة يا عزوز .

ولكن الرجل كان لا يرى بعينه الا هذه الاكواخ المكلسة التى أصبحت الآن كومة صغيرة من رماد وفحم . لقد احترق كل شيء .

انه لحريق مطهر نظف المكان كله . ولكنه لم يتجاوز الاكواخ المعزولة
الغائمة في وسط الحقول . وتركت النار مربعات من الارض محترقة .
أن النور الضعيف يضيء هذا المشهد ، ويسبغ على جميع الاشياء
هدوءا مألوفاً .

قال الرجل :

— هل علينا أن نحتمل رجال الشرطة ايضا !

وحدث سليمان مسكين نفسه قائلا : « ما كان للمرء أن يصدق
أبدا أن أكواخ الفلاحين يمكن أن تحدث هذه النار الجميلة » . وعاد
يتصور أعمدة الدخان تنتشر وتتلوى فوق الحريق . أنها أعمدة
لا تنتهي ، تعلو السنة رائعة من اللهب . والحقول التي حول الحريق
تلتهم التماعا قائما . كانت الرايات المشتعلة تصطفق ثم تتمزق تمزق
الصراخ وكان توائب النيران في خفة يغذو قلق الرجال . نعم لقد
رأى سليمان ذلك كله بأم عينيه ، ولقد سمع سليمان صراخا
وصياحا . . انه لم يحلم .

لقد شب حريق ، ولن ينطفىء هذا الحريق في يوم من الايام .
سيظل هذا الحريق يزحف في عماية ، خفيا مستترا ، ولن ينقطع
لهيبه الدامي الا بعد أن يفرق البلاد كلها بلألانه .
كان للمنطقة في ذلك اليوم وجه الايام المشئومة ، واصطبغ ذلك
الصباح بلون قاتم من ألوان الحداد . ولقد قضى الناس ليلتهم في
أرق ، قضى وجوههم يبدو الآن حزن مظلم . كانت رؤوسهم فارغة ،
وكان في أفواههم مذاق مر .

وهنا هم أولاء لا يشتبهون أن يتكلموا ولا أن يتحركوا ، مثلهم في
ذات كمثل من أفاق من كابوس رهيب .

احتل رجال الشرطة الريف الأصم . وتوغلوا في حقول واسعة
فارغة ، وضياح صغيرة مهجورة . والشك والخوف يمتدان أمامهم
امتداد الضباب . أنهم يمضون من مكان إلى آخر فسرعين ، يتوغلون
التعجل الالى . أن كل خطوة من خطواتهم تفرز زاوية مستنونة في
هذه الارض .

البلد هادئ . سليمان يطوف في الحقول . والفلاحون يسرون
على غير هدى إلى أهداف غامضة . يلتقي بعضهم ببعض ، فلا يكادون
يتوقعون . أن عددا منهم يكتفى بأن يهز رأسه . وتفيض قلوبهم عياء ،
فما ينفكون يسرون ويسرون ، صابرين إلى أبعد حدود الصبر ،
ورجال الشرطة يقتربون منهم ، ويدورون حولهم ، ويتفرسون فيهم .

قال سليمان لنفسه : « ان طاقات البلاد لم تستيقظ بعد » .
كان الناس اشبه بمن غرق في حالة من حالات السرمنة . انهم
يمشون وامارات النوم تلوح في وجوههم . وتابع سليمان حديثه
لنفسه قائلا : « غير ان هناك ، في الاعماق ، نزوعا عارضا الى التمرد
والثورة ، نزوعا طافحا فائضا ، يتهاى لى يزعزع النظام باكملة ،
ولكى يزعزع دعائمه الفولاذية . ولعل العناصر الفعالة في البلاد قد
شرعت منذ الان في النضال . »

وهرع سليمان الى الطريق العام ، ترك الدرب الاخير ، درب
مزرعة فيار ، وادرك انه لم يتغير هناك شيء .

ان زرافات صغيرة منعزلة من الفلاحين كانت تتجمع في احد
الدروب الضيقة . ثم ان بعض الشيوخ كانوا يرفعون ايديهم الى
السماء ، وهم يحركونها حركات ويقولون معلقين :

— لم كان هذا يا الله ، ايها القادر على كل شيء ؟ لو انهم ارتضوا
الاجور التي كانت تدفع لهم ، لما وقع شيء مما وقع . أين الخير
الذي جنوه من ذلك ، أين هو ؟ ..

وهذا با دعدوش يتقدم ، وينتقل من جماعة الى جماعة ، قائلا انه
لا يجب ان يناقش مسألة الاجور اليوم . انه ما ينفع يعلن :

— انما يجب الآن ان تكشف عن الجنة .

— فمن هم الجنة في رأيك يا عم ؟

— يجب ان نبحث عنهم !

— حقا يجب ان نبحث عنهم . الناس جميعا يعرفون ذلك .

— اقول لك الحق .

— ولكن ما رأيك انت يا عم ؟ هل الجنة بيننا ام هم ليسوا
بيننا ؟

— هذا ما سنعرفه .

— نعم سنعرفه . ولا تكلف نفسك كثيرا من العناء ، والا تعبت

وانت رجل عجوز .

تابع الشيخ يقول بلا رحمة :

— شعوري ، شعوري انهم ليسوا بيننا ..

— من هم اذن ؟

— يجب ان نبحث عنهم ..

ان الرجل الذي كان يصفى الى كلام با دعدوش ظل فاعرا فاه ،

لا يعرف ما الذي يقوله ، او ما الذي يهاب ان يقوله . واخذ الفلاح

العجوز يلاحظ وينتظر وإذا بتتويع من الشفقة على هذا الرجل الذي لا يزال شابا يغزو قلب با دعدوش . وإذا بعينيه تتقدان اتقادا شديدا ، وتولي با دعدوش اكمال الكلام بصوته المرتج الذي كان تنعكر على الالفاظ .

— لا شك أنك تقدر أننا لن نعرفهم أبدا ما داموا ليسوا معنا . ولعلك على حق في تقديرك . بل أنك حتما على حق . لن نعرف المجرمين . انهم لا يشعرون بشيء من القلق ولن يشعروا . هذا هو الحال . لقد ألفنا هذا واعتدناه ، أليس كذلك ؟ لا شك في أنك قائل أننا ألفنا هذا واعتدناه ، واننا لا حيلة لنا في الأمر ، وليس في وسعنا أن نعمل شيئا . إلا أن المهم يا بني هو أن نعرف نحن من هم الأبرياء ؟ كانت عينا العجوز قد ضاقتا أشد الضيق وهو يقول هذا الكلام . أن وجهه الآن أشبه بوجه رجل آسيوى . تقاحتا خديه تائمتان . ومنهما يخرج حقل من الأخاديد والفضون . . . لكأنه يضحك ! . . ولكنه صامت صمما كاملا . وكأنه مشرور أشد الشرور بما وقع . ولكن ذلك التعبير نفسه لا يزال ملتصقا بقسمات وجهه . وانقضت لحظة طويلة . أن التعبير الملتصق بهذا الوجه المليء بالنسيبات لم يتبدل أى تبدل . أن وجه با دعدوش لا يزال محتفظا بذلك التعبير الفرح . أنه ساكن مسكونا مخيفا . أن لمعانا باردا كلمعان النصل يتلأل بين أحفانه التي لا تكاد تنشق الا قليلا .

وكان الرجل الآخر يتفرس فيه أكثر مما يصغى اليه . وعندئذ استأنف الشيخ يقول . .

— نحن نعرف أين هم الأبرياء . انهم موثقون بالسجن ، والضرب . . والدم ايضا . أن دمنا يسفح ، وسيظل يسفح ما في ذلك ريب وهكذا سوف تتحد صفوفنا . أنه لأمر فظيع أن يكون المرء بريئا في زمان كهذا الزمان .

وانقطع الشيخ عن الكلام ليحدث الى الآخر . أن التعبير الفرح المخيف لا يزال مرتسما على وجهه . ولم يتحرك وجهه . أن رأى با دعدوش كان دائما أشبه برأى فلاح صينى .

— أنه لأمر فظيع أن يكون المرء بريئا . لن نستطيع الافلات من دمنا . لن نقلت منا أحد . سوف تلبى البلاد كلها نداءه . انما نحن الأبرياء . وما يحل بنا اليوم انما هو العدل .

وكرر الشيخ هذه الكلمات الأخيرة وجسمه كله يتنفض . ثم خفض لهجته فجأة ، ودمدم على الرجل بصوت حيادى متعجل

قليلًا ، قال :

— فلنظل متحدين بالدم الذي بيننا . ذلك ما يجب أن يقال للناس كافة . ستصل الشرطة من لحظة إلى أخرى . وايتعد الشيخ دون أن ينتظر من الفلاح جوابًا ، أو تأييدًا . أو مؤالا ، ابتعد وهو يشكلم وحده بكلمات مهمومة غير مفهومة تتخللها أصوات التعجب ، ابتعد وهو يسير بخطا متوازية ، غريبة ، يهتز عصاه بحركة متقطعة .

ومضى با دعدوش بعد ذلك من جماعة إلى جماعة متهملا ، لا يتعجن ولا يياس كان الأبد كله أمامه . كان يتجه بالكلام إلى جماعة من جماعات الفلاحين ، وكأنه يهجم عليهم لاهانة دامية وقعت له . كان يقول في كل مكان بعنف مستبد :

— يجب أن نبحث عن الجناة . هذا ما يجب .

وكان أكثر الفلاحين يسمعون دون أن يبدوا ملاحظة من الملاحظات إلا ما كان أغرب عناد هذا الشيخ كان يتجه اليهم جماعة بعد جماعة ويصر اصرارا لا يلين على أن ينتبهوا له . كان يفعل ذلك دون أن يبدو أنه من رأى أحد . كان جميع الذين يصفون اليه يتحولون عنه وقد انقبضت وجوههم . كانوا يتعدون واحدا بعد واحد ، كأنما هم يحملون سرا من الأسرار . وكان هو يتابع مهمته بلا كلال ولا ملال ، متنقلا من واحد إلى آخر بخطا متوازية كخطا الجراد ، ثم ما ينشك ينثقل وينثقل . إن ارادة اقوى منه تحرك ساقيه اللتين تخرجان من سرواله القروي . وقد يلغا من التحول حدا عجيبا لا مزيد عليه . وكان يتوقف من حين إلى حين ليرتاح قليلا ، وقد أخذ رأسه يهتز . ثم يستأنف سيره لا يتعب ولا ينسى تردد تلك الاقوال نفسها . وفي أثناء ذلك كانت سيارات وطبئة سوداء لها بطن كبطن الشمس قد أخذت تجوب الريف .

إن الوجوه تظهر من خلال الزجاج . انهم رجال الأمن العام . لاحظهم سليمان مسكين . انه يعرف هذه الوجوه . كانت كل عربة من هذه العربات تقف في مكان خاص فيشب جنود الشرطة منها بسرعة ، وينظمون انفسهم وينظر بعضهم إلى ما حوله . لقد سبق أن اتوا إلى هذه المنطقة في أثناء الاضراب . أن لهم وجوها واحدة وملامح واحدة .

واتجهوا أول الامر بخطا سريعة إلى مزرعة فيار . إن الفلاحين الذين كانوا في طريقهم لم يلقوا عليهم نظرة واحدة . حتى اذا

تجاوزوهم ، التفتوا الى الوراء وتابعوا طريقهم دون توقف . قال سليمان مسكين يخاطب نفسه : « أرجو أن تصمد » .

أن فلاحي بنى بوبلان ينتظرون على قلق محمود . ولكنهم يحافظون على هدوئهم . لقد برهنوا برهانا واضحا أثناء هذا الاضراب على أنهم يعرفون كيف يسيطرون على أنفسهم وكيف يسلكون سلوكا واعيا . وقد فوجيء المستوطنون الفرنسيون بذلك ، فقد كانوا يظنون أن الاضراب والفوضى سيذهبان بالباب الفلاحين في لحظة لهذا كانت دهشتهم مما أظهروه الفلاحون من هدوء لا تقل عن دهشتهم من الاضراب نفسه .

وقد استمر هذا الاضراب الجديد بلا تخاذل ، رغم أن عددا من الرجال عادوا الى الحقول . وهؤلاء كانوا بوجه خاص اناسا ممن ارتبطوا بمزرعة من المزارع منذ ولدوا . وقد دعمهم رجال من مراكش اجتازوا الحدود سرا ، ولم يمتنع المستوطنون عن تشجيعهم بأجور أقل ، رغم القوانين ، وذلك ليضربوا بهم عمال الجزائر . على أن هذا كله لم ينفعهم في شيء ، فقد صمد الفلاحون صمودا عنيدا ، ورفضوا العروض الفردية الخداعة ، رفضوا المساومات السرية ، والتساهلات ، والربت على الظهور ، والكلمات المعسولة .

كان المستوطنون يقولون لهم - دون أن يسألهم أحد من الفلاحين شيئا - كلاما كهذا الكلام :

- أنا صديق للعرب يا أحمد . تعال اعمل . أنا اعرفك وانت تعرفنى . تعال . يجب أن تأكل ، ويجب أن تأكل امرأتك وأن يأكل أولادك . أنا لست مثل ..

يقول المستوطن الفرنسى ذلك ويذكر اسم مستوطن فرنسى آخر . - أنا أدفع أجورا طيبة ، وأنا صديق الـ ...

أخذت الزراعة تتلف . ولكن الفلاحين الذين يقاوضون على انفراد كانوا يملصون بفرونة ويتجنبون الاسئلة والعروض ببراعة . كانوا لا يريدون أن يفسدوا أمرا .

وها هم أولاء رجال الشرطة يحتلون الريف ، وها هي ذى مساكن العمال يشب فيها الحريق ..

والمستوطن الفرنسى الذى قال : « يجب أن تأكل امرأتك وأن يأكل أولادك » ، لم يعد فى حاجة الى الاحساس ، فالفلاح الذى قال له المستوطن الفرنسى ذلك الكلام هو الآن فى السجن .

- كيف وقع ذلك ؟ كيف ؟ تسأل كيف وقع ؟ ارادة القدر هذا ما قاله عزوز .

كان يبدو في صوته الازعان والتسليم . واصبح لا ينتبه لمن يحيطون به . انه غارق في التفكير .

وكان كل واحد ممن حوله يتأمل يديه اللتين تستريحان على ركبتيه مبسوطتين مقلوبتين . كان عزوز متربعا على الارض وقد اشتبك ساقيه اشتباك ذراعى المقص .

ان الفلاحين يجدون انفسهم الان امام وقائع جديدة تتوالى من كل صوب وتنتصب بين جدران الطين الاربعة من هذا الكوخ . انها احداث ، ولكن اى احداث هي تلك الهواجس التى لا شكل لها ولا وجه ، ان صح التعبير ، وهذا اليقين الذى لا يختلج فيه اى معنى واضح ؟ لعلها نداءات ؟ ولكن من اين عساها آتية ؟ اهي تنبيهات ولكن من الذى تراه يطلقها ؟ .

ما من احساس نفذ الى جميع القلوب نفاذا اعمق من نفاذ هذا الاحساس بان ثمة قدرا قد مثل الان على حين فجأة . هذا العالم الذى شدوا اليه بجذور عميقة ، هذا العالم الذى كانوا جزءا منه حيا ، صائر الان الى موت نهائى ، ليبحث بعثا جديدا . في هذه الساعة القلقة التى ينهار فيها كل شيء ، وينسد فيها الطريق الذى الفوه دفعة واحدة ، في هذه الساعة يصبح هذا الطريق غير مسلوک ، وينفتح طريق المستقبل .

كان هذا الاحساس ينشأ في تلك الساعة الغريبة التى يحدث فيها الانهيار ، وتلوح فيها الكارثة . قال الفلاح :

- لا يعلم الا الله كيف حدث هذا الامر . ما من مخلوق يستطيع ان يقول كيف حدث . ولكننا كنا نعرف انه واقع لا محالة . وكان الآخرون يفهمون انه لم يبق عليهم الا شيء واحد هو ان يصمدوا . لقد فقد عزوز امرأته في الحريق . يجب ان تصمد مهما يكلف الامر ، يجب ان تصمد لكل شيء .

وانتفض عزوز . ولاح عليه فجأة أنه يتذكر شيئاً ما . قال :
- سامحوني أيها الاخوان . فيم بقائي هنا أتكلم ؟ أو أصمت ؟
لقد أحسنت وقادتي في هذا البيت ، فبارك الله في صاحبه . ولكن
لم يبق ما أفعله هنا . ليس هذا البيت بيتي . يجب أن أذهب .
لا شك أن الله يرى كل شيء ، ولكن سكوته في لحظات كهذه اللحظة
أمر مخيف .
وبدل جهداً من أجل أن ينهض . فقامت الاحتجاجات من كل
صوب .

- ابق يا عزوز ، ابق .
- لم تسترح يا عزوز . استرح قليلاً .
- ابق يا عزوز .
وقال أردني صاحب الكوخ مؤكداً :
- أنت هنا في بيتك .

وهذا سليمان مسكين الذي كان متجمعاً على نفسه عند مدخل
الكوخ ، هذا هو يقترب من عزوز زاحفاً على يديه دون أن يكلف نفسه
عناء النهوض :
- اسمع

الجبال لا تزال صابرة
والأنهار لا تزال صابرة
وسوف تقضي المساء ،
العروس تنسج الغلالة ،
التي يسجل فيها طلوع البشائر ،
- بأى مكوك

تحكيك النسيج ،
الذي تمضي به على مهل ،
من الشباب إلى الكهولة ؟

وفجأة سأل سليمان صاحبه بنظرة بترأى فيها رجاء حار . ولكن
عزوز ظل متلففاً بالصمت . عليه ألا يرفض شيئاً ، وعليه ألا يرفض
صداقة الرجال خاصة ، وهذا سليمان يضم يديه أمام وجهه ،
ويستأنف الآمال في تدفق سريع متصل .
أيتها الخادم ، يا ذات اليدين المبرقتين
والقدمين المبعثتين ،
أيتها الخادم التي تنشر أقمشة جديدة

تقد منها قمصانا ،
لحو الآلام ،
قمصانا تخفف ما تلقى من عناء الحمل ،
اننى انحنى أمام يديك وقدميك .
وأعهد اليك
بحراسة الإنسان والخروف
والفرح والصبر ،
والقربان والقلب ،
بجميع الايدى الماهرة
وبكل ما صنعتوه
أيها العامل الطيب
والفلاح الطيب ، والفزاة الطيبة ،
والام الطيبة
وتجلت الصرامة والقوة في وجه سليمان ، فهو يريد الان جوابا .
وكان الفلاحون ينتظرون أيضا وقد خفضوا رؤوسهم ، ان نظرة تائهة
لا تدرك ، تتموج الان في حدقتى عزول . قال بعد مدة طويلة وهو
يتنهد :
- ان الله لا يبيع لنا ، نحن المسلمين ، أن نقنط .
وأستأنف سليمان .
اننى أعهد اليك
بحراسة ازمان الخير
أنحنى لأقول :
أنك ستعودين
يا أيام الهدوء الكبرى ،
لسوف ننصب منضدنا
في الميدان العام .
اننى انحنى أمامك ،
الجبال صابرة
والأنهار صابرة



حين انتصف النهار اجتاز رجال الشرطة المنطقة كلها عائدين الى
المدينة . لقد جاءوا الى هنا في الصباح ، وما هم أولاء يعودون وقد
ساقوا عددا من الفلاحين . لقد تجمهر الناس في طريقهم . وعند

مداخل الاكواخ وقف عدد من عجائز الفلاحات . واخذت كثرة من الصبايا والنساء ترقبهم . وفيما هن يعلقن على الكوارث كلها ، اذا هن يضمنن دفعة واحدة على حين فجأة . ان الموكب يقترب . اندفعن الى الطريق الذي سيمر به الموكب يردن ان يعرفن من هم الذين اعتقلوا . ان بعضهن يمضين الى الامام أكثر من غيرهن حتى انهن ليختلطن بالرجال في بساطة . وازداد عدد الجمهور ، ولم تلبث الطرق ان امتلات بالفلاحين الذين اصطفوا على حافة الدرب بعد كثير من الذهاب والاياب . وفي بعيد دوت صرخات غير انسانية ، صرخات موت .

ثم انقطعت الصرخات بما يشبه السحر . وانقضت لحظة طويلة . لم يستأنف النحيب . ان الضفط الخائق الذي كان يجثم على الويف منذ اسبوع قد فقد الان ثقله على حين فجأة . حدث ذلك على غير توقع ، دون ان يكون في الحسين ، وقع في هذه اللحظة بالذات ، واحس به جميع من كانوا بالحقول .

ووصل السجناء أخيرا ، فاصبحوا في متناول البصر . ان اصواتهم لا تسمع . قامت في الحشد حركة قصيرة ، وارتفعت صيحات اخذت امرأة من النساء تكي . انها تشحب في رفق وقد وضعت يديها المتشنجتين على وجهها . وتقدم رجال الامن وقد باعدوا اذرعهم ، يدفعون الجمهور الى وراء . فتراجع الناس .

— هؤلاء هم .
لقد اصبح الفلاحون فجأة هناك . فطوقهم صف من رجال الشرطة — ولكن لماذا لا يأخذون غيرهم ؟ لماذا لم يعتقلوا جميع الناس ؟
بهذا دمدم صوت ابح لاهت .

وخيم صمت كأنه صمت الموت . وصاح احدهم ، من آخر الصف ، مهلا .

كان رجال الشرطة والمعتقلون يسرون صفوفهم مرصوصة نخطا سريعة ، فما تنفك تظهر وجوه شهباء كأنها وجوه أشباح . ان احد رجال الشرطة يسير الى جانب الموكب ، وقد وضع يديه في جيبى معطفه ، وراح يصدر اوامره . والفلاحون يسرون متدثرين بجلابيبهم الملطخة بالوحل ، ساترين رموسهم بالقبعات . انهم ينظرون الى الامام كأن هدفا رهيبا قد نومهم . وفي قرارة الحجاج المظلم الفائر في أعينهم كان يبدو أنهم لا يزالون يترصدون

أرضاً شب فيها الحريق . الفضاء أمامهم حر طليق .
وحين تقدم أحد الرجال مرة واحدة ، فيما يشبه التوسل ،
أراد أن يكلمهم رغم أوامر الحظر التي يصدرها رجال الشرطة ،
حرك أحدهم يده بإشارة مبهمه ، وقال بصوت خافت هامساً :
- دعنا . ابتعد .

أنهم يسرون . واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . فضاء . فضاء كبير .
هل الآخرون يتبعون ؟ هل هم جميعاً هنالك ؟

رباه ما أغرب هيئة هؤلاء الرجال ! من يسير هناك ؟ هذه الوجوه
المنانة عظامها الساكنة تحت القبعات ، هذه الجلايبب الخلقة المغبرة
... آه . . . أهذا ممكن ؟ أنهم يسرون . ومن حولهم تحفر منطقة
حرام .

وارتد الجمهور مرة أخرى أمام وثبة رجال الشرطة الفاضية
الخانقة . ولكنه لم يلبث أن تقدم الى الامام متموجاً . الرجال
يوغلون في الطريق كالعميان ، بطرقات خطاهم السريعة ، مؤلفين
كتلة موحدة .

وظل القرويون هناك مرتعشين مرتبكين . ان أحد رجال الشرطة
يهز رشاشه بأطراف يده في اهمال . دمدم أحدهم يقول في اضطراب
بوياء ، بوياء ! ان حلقة يبدو صدثاً . ورجال الدرك الذين قد جاءوا
أيضاً ، مروا امامهم ضخاماً ثقلاً وقد نصبوا اكتافهم واحكموا وضع
خوذهم على جباههم .

ان الفلاحين الذين تركوا حافتي الدرب منذ راوا وصول الشرطة
والمنقلين ، قد تجمعوا كتلة واحدة في طريق الموكب بحركة خفية
لا تدرك . ان اندفاعاً قوية عارمة قد حملتهم الى الامام كأنهم مد
البحر . كان يبدو عليهم أنهم يريدون أن يطوقوا الموكب وان يعانقوه
عناقاً خائفاً .

صاح رجال الشرطة :

- الى الورا ، الى الورا . . .

فتنظر اليهم الفلاحون دون أن يتحركوا ، متجاهلين التهديد .
سألهم الآخرون :

- ماذا تريدون ؟ ان هذا الامر لا يعنيكم .

فلم يجب الفلاحون بنعم أو لا ، وأكتفوا بالنظر الى رجال
الشرطة .

عندئذ أخذ رجال الشرطة والسجناء يتقدمون بخطا بطيئة .

— الى الورااء .. هيا .. الى الورااء .. فهمتم ؟
ولكن الفلاحين لم يتحركوا ، انهم يحدقون الى رجال الشرطة
بأعين من حجارة .

— قولوا ماذا تريدون !
ولكن الفلاحين لم يجيبوا .
— فشهر رجال الشرطة اسلحتهم .

— اذا اقتربتم كثيرا .. فسوف نندمون .
بهذا حذرهم ذلك الذى كان يبدو أنه رئيسهم . ثم التفت الى
رجالها وقال :
— ابعادوهم !

فهجمت طائفة من رجال الشرطة على الفلاحين فدفعتهم فى عنف
وفظاظة .

— حذار ! ان الذين قبضنا عليهم أناس مجرمون . وميكالكم
غاليا جدا ان تفكروا فى مساعدتهم !
وبحركة مضطربة هجم رجال الدرك ايضا على الفلاحين فاسقطوا
عددا منهم ، وبعثروا عددا آخر . ولكن الفلاحين ما لبثوا ان تجمعوا
مرة أخرى . ووصل اشخاص آخرون اجتذبتهم حميا هذه
الحركة .

اخذ احد رجال السلطة يصيح بالناس الذين كانوا يزدادون
توافدا على المركب وازدحاما حوله :

— الى الورااء .. اقول لكم ابتعدوا الى الورااء !

ولكن عدد الفلاحين المتدققين من الحقول كان ماينفك ينضخم
انهم ينظرون ولا يتحركون ، انهم لا يحتجسون ، لا يعملون شيئا
الينة . وانما هم يسمرون فى امكنتهم . كان يبدو انه ما من شيء
ما من قوة يمكن أن تصرفهم .

وكان الصمت فى أثناء ذلك ما ينفك يثقل ويثقل ويزداد اقلاقا .
ليس فى الحقول أناس كثيرون ، ومع ذلك كان الحشد ما ينس يتكاثر
لا يدري احد كيف ! ان طائفة من الفلاحين تحف برجال الشرطة
عن كئيب ، وما تنفك تقترب منها .

ان اكثر هؤلاء الفلاحين شباب ، فبعضهم سليم الجسم شاحب
الوجه ، واضح القسمات ، وبعضهم اميل الى الشدة والقسوة ،
كانما هبت عليهم جميع الرياح ولفحتهم جميع الشمس .
الناس لا يزالون يرقبون ويترصدون . مائة وجه من الوجوه

ثم على اختلاج غامض . انهم جميعا ينظرون في التباه .
وما هي الا لحظة حتى قامت في الحشد همهمة قوية ، لم تلبث ان
انقطعت فجأة .

صمت . ان رجال الشرطة يراقبون الفلاحين .

هذه امرأة تخرج من احدى الطرقات وتلتحق بالحشد . انها
مخلوق صغير مفضل الوجه نائي الاسنان . انها تشق لنفسها
طريقا بين الاجسام المتراسة وتلقى على رجال الشرطة نظرة تائهة .
ثم اذا بهاتقول وكأن صدمة كهربائية قد سرت فيها :
- عرفته ، عرفته .

قالت ذلك وهي تشير بيدها الى أحد رجال الشرطة .

- انه يجيء دائما حين يكون الامر اعتقال عدد من رجالنا .
عرفته . انه هو الذي يجيء دائما .
ومن اواخر الرجال واحدا بعد واحد .

- لماذا اعتقلوا هؤلاء الرجال ياكومندار ؟

- لاننا ، يا ولدي ، مجرمون في نظرهم .
- ولكننا لسنا مجرمين دائما . . فليعاقبوا المجرمين ، وليدعوا
من ليسوا بمجرمين .

- ولكننا جميعا مجرمون يا ولدي ، جميعا . فهم يعاقبون
بعضنا بالرصاص وبعضنا الآخر بالضرب أو السجن . . ويعاقبون
بعضنا بالكلام وبعضنا بالجوع ، انهم يقتلونهم عند أول حركة
يقومون بها . ويطردون ذواتنا من النور ، يطردونهم من الارض التي
يزرعونها . ونحن لا ندرك ذلك . حتى اذا ألقوا امام وجوهنا واحدا
من موتانا فهمنا . اننا نشفق على الرجل الذي قتلوه ، ونشعر
امامه بالخجل والعار . ولكنهم يسوقوننا الى القبر نحن أيضا ،
شيئا بعد شيء . . اننا مستعدون للنزول الى القبر دون أن نطق
بكلمة ، ودون أن نرفع خنصرنا .

- شيء فظيع . .

- أبدا هو الان شيء فظيع ، اما في غدا فلن يكون كذلك . انظر
الى كبار المزارعين الذين هم منا ، انظر الى تجار المدينة الذين هم
منا أيضا ، انهم لا يقولون شيئا . يسقط رجل في هذا النضال ،
فيلتزمون الصمت خلال لحظة . ولكنهم يستأفون ويتأفون . ولا
شك أن رجلا آخر سيمضي في طريقه . وتستأنف الحركة من جديد .

ذلك انه ليس لاحد الا طريق واحد يسلكه . هو طريق ضيق ، نعم .
 - ما الذى يجب ان نعمله حتى نعيش حياة غير هذه الحياة ؟
 - يجب ان نحطم الاستبداد وان ندفعه .. اذا لم نقاوم انواع
 الاستبداد هذه ، فلن يكون ثمة داع الى الشعور بالخجل والعار أمام
 الاحياء اكثر من الشعور بالخجل والعار أمام ... هؤلاء الموتى .
 - أهذا كل شيء ؟
 - هذا كاف فى البداية .
 قال عمر :

- ولكننا العدد الأكبر .
 - صحيح أننا العدد الأكبر .. وفى هذا العدد الأكبر يدخل
 النحاف والسُّمان ، الصغار والكبار ، الذين يخافون والذين
 يستسلمون .. عددنا كبير جدا .. ولكن لابد من صبر طويل لرجالنا
 الشجعان الذين يستعدون للقيام بالخطوة الاولى .
 كان الكلام المحرق الهادى الذى يقوله كومنندار ينفذ فى قلب
 الصبى نفاذ مسمار .
 قال عمر :

- ولكن اذا لم يصرح أحد بأنه مستعد لان يموت فان جميع الناس
 سيطعنون .
 أجاب العجوز :
 - أنا لم أقل شيئا . يجب أن نتحد وان نكون صفا واحدا تشد
 بعضنا الى بعض سلسلة واحدة .
 - الا انهم لبهائم قدرة فيما أرى .
 - لذلك يجب أن نحطم الاشرار .
 - أهذا كل شيء ؟
 - نعم هو كل شيء .

حين دخلت ماما الى الفرفة وجدت زوجها مشغولا بفتح الاجزاء البالية من بردعة . كان جالسا امام الباب تحت المتحنى الذى تبرز منه نواتي ضخمة كأنها رؤوس بشر . ان فى داخل الحجرة ثقبوا عميقة تشكل خزائن صغيرة فى الجدار توضع فيها الاواني وعلب البهار وغير ذلك من الادوات المنزلية . ان رطوبة خفية تخرج من حيطان الحجرة . لم تستطع ماما ان تنظر الى زوجها وجها لوجه . رفع قره رأسه عن عمله وحقق اليها . استغرقت المرأة فى عملها . تناولت طبقا من فخار كانت تريد ان تضع فيه قرص الفطير الذى هباته . خفض قره عينيه دون ان يعبا بها بعد ذلك ، وعاد يستأنف عمله فى هدوء . خرجت ماما من المفارة بغير ضجة .

انقضت ثلاثة ايام على الليلة التى شب الحريق اثناءها فى مساكن عمال مسيو فيار . لقد كان ذلك أشبه بحلم رهيب . كان الناس هنا لا يعرفون ما الذى وقع على وجه الدقة . ومما زاد قلق ماما شدة وارماضا ان قره قد خرج من البيت فى ساعة متأخرة من تلك الليلة . وبقيت امراته فى حجرتها وحيدة تشعر بأن الخطر يحف بها .

فلما عاد قره فى أول الصباح ، سأله ماما وقد يبست اجفانها وتقرحت :
- ماذا هنالك ؟

- عمال أضربوا عن العمل ، واحرقوا مزرعة فيار . يجب ان يتوقع المرء منهم كل شيء . لقد قلت ذلك دائما . يجب أن نتوقع ما هو شر من هذا أيضا . غصت ماما .

هذا ما قاله لها زوجها فى ذلك اليوم . وفى الغد ، فى الغد لا بعده ، علمت من الجيران ان هذا الكلام الذى قاله لها زوجها لا يشتمل على شيء من صدق .

ان الفلاحين لم يضرمو النار . ان أحدا من الناس لا يستحى أن يعترف بالحقيقة فى هذه المنطقة حين يقع أمر من الامور . صحيح

أنهم لا يصرحون بالحقيقة للسلطات . وما من أحد من السكان يقبل
أن يكون حتى شاهدا في قضية من القضايا . فكلما جاء رجال الحكومة
لحصول على بعض المعلومات عن بعض الأفراد قال جميع
الرجال أنهم لا يعرفون شيئا البتة . كان رجال الحكومة يصعدون
في كل يوم جوه خرساء لا تنطق . ولكن التحرز من سوء الظن لم يوجد في
بعض الأيام بين الفلاحين أنفسهم ، وإنما كان هؤلاء الفلاحون يؤثرون
أن يقول بعضهم لبعض كل شيء ، وكان ذلك في بعض الأحيان . أن المنطقة
أنها تعلم بأمر من الأمور دون أن يتسرب شيء من انباء هذا
إلى أذان الشرطة .

فكأنما قال قره اذن ذلك الكلام ؟

إنها لم تفسر هذا الأمر لنفسها . وظل هؤلاء الفلاحين مع
ذلك يقولون المثل : اتهم الناس ظلما يحرق اخوتنا ولكن الذي
يقذف الاتهام يحمل على كتفه عارضة من لهب .
وكانت تسمي زوجها .

اعتاد سكان دار سبيطار شيئا فشيئا على وجود الحرب . كان الوقت ينقضى دون أن يقع شيء مما كانوا يخشونه . أن رجالا يمتون إليهم بقربى كانوا يذهبون إلى القتال في بلاد بعيدة ، ويموتون في تلك البلاد أحيانا . غير أن سكان دار سبيطار كانوا لا يعرفون كيف يقطعون برأى في الخطر الخفى الذى يتكدر فوقهم . لم يحدث أذن شيء . وعادت الحياة تجرى في مجراها . وانقضت شهور لم تحمل إلى الناس ما يبعث على القلق .

كانت الأشياء تتراكم . أن عددا من الرجال يسافرون في كل يوم . وبعض الناس تركوا المدينة . فلو حظ سفرهم وأحدث ضجة خلال فترة من الوقت ، ثم اختفوا وابتلعهم المجهول . وانقضت أشهر أخرى ، والحياة تجرى على تلك الوتيرة نفسها . إنها الحرب السخيفة . غير أن هناك شيئا كان الناس يحسبون أنه آت من بعيد ، وأنه ربما كان ذاهبا إلى بعيد . . . وهو موجة من الأعماق لأعلى كانت تستحيل إلى عباب هائل . . . أن هذه الموجة تقترب شيئا فشيئا . الناس مأخوذون الآن بالمنظر المضحك المبكى ، منظر هؤلاء الرجال المجندين الذين تقنعوا ، فهم أنصاف جنود وأنصاف مشردين . أنهم يتعلمون أحذية بالية ممزقة ، ويرتدون الزى العسكى الصيفى وهم في أوج الشتاء ، وينامون على القش في اللعب الجديد والقنادق . وقد اضطر بعضهم إلى دخول المستشفى مصابا بنزلة رئوية . أنهم يعيشون حياة عجيبة ، لا يفهمون شيئا مما يحملون عليه وما يعهد إليهم به من أعمال .

وكان عمر يقضى أيامه متجولا في أرجاء المدينة . هي أيام جوفاء ملأى في آن واحد . وهي أيام طويلة على كل حال . أيام ساطعة حارة تجتل مركزها تلك المشكلة القديمة ، مشكلة الخبز . أن الأمر الذى كان يفكر فيه عمر ، أو قل بالأحرى الأمر الذى كان يقلق في غموضه ، يمكن أن يعبر عنه على هذا النحو : أنا جائع ، جائع دائما ، لم أذق طعاما أسكت به جوعى . وكان السؤال الذى يلقيه على نفسه بغير هوادة هو : أترانى آكل بعد قليل ؟ أترانى آكل غدا ؟ وكان لا يستطيع

طبعا ان يجيب عن هذا السؤال . انه ليصعب على المرء ان يتصور
بخياله الشعور الذي كان يولده في نفسه هذا الشك الذي يتجدد
الى غير نهاية ، ويبدو باقيا لا يزول . أية معجزة كان يمكن ان تنقذ
عمر .

النس تشوى المدينة وتجعلها كالحديد المصفح الحامى . وكان
ينفق المصبي في كثير من الاحيان ان يقع على جماعات من الفلاحات
أخذن ينتجن بأصوات عالية وصرخات حادة ، متحلقات عند حوافي
« الملعب » ، بينما كان أزواجهن أو أبنائهن في داخل الملعب يمثلون
امام مجلس التجنيد . انه لمنظر حزين ، أصبح مأوفا عاديا في أيام
الحرب هذه .

وكانت عطلة الصيف تشارف على نهايتها رغم كل شيء . وأبنا
عمر امه بأن العودة الى المدرسة قريبة . انه في حاجة الى ملابس
نظيفة والى كتب ... ان مطلبها من هذا النوع هو دائما تمهيد لمشاجرة
بينه وبين عيني .
صاحت عيني تقول :

— دعنا أخيرا من هذه المدرسة ! لقد ضقت بها ذرعا ! اترك تأمل
ان تصبح وزيرا ؟

كان العالم يعيش تلك الفترة من التاريخ ، حين جاء أروع فصل
من فصول السنة . ان شتاء تلمسان ، القاسى المظلم ، الكاوى كقطعة
من جليد ، لا يوافق المدينة الا في أواخر شهر كانون الثانى أو بعده
بقليل . وقبل ذلك كان ضرام مسعود لا يزال يتابع سيره المظفر من
شجرة الى شجرة . فكل شجرة من الأشجار الآن مشعل نهتز
ويتموج . ثم ذابت النار في احتدامها وهبطت . فكل شيء قد تظاهر
فى ذلك التوهج ، وملامح البلد ترسم منذ الآن فى جو ناعم من وضوح
مضى ، ولون ساج .

كان يساعد عيني أناس من أهل الخير يكتمون أسماءهم في كثير من الأحيان . لقد مات زوجها منذ مدة طويلة . . وأصبحت الآن تقبل بؤادر الكرم هذه في غير مراة ، بل أصبحت تقبلها في شكر واعتراف بالجميل . كانت بهذه المساعدات تدبر أمورها يوما أو يومين ولكن لابد من الحياة في جميع الأيام ، وكان لابد من الأكل في جميع الأيام . وتلك مشكلة من المشكلات . كانت عيني تعمل وتجهد نفسها بالعمل ، الظروف قد علمتها قيمة ماتقوم به من عمل .

لذلك كانت تعرض على ابنائها ما تتقاضاه في آخر الأسبوع اجرا على عملها . كانت تريد أن يروا هذا الأجر بأعينهم . انه أجر قليل . فكان الأطفال يعرفون بذلك ثمن مائنفقه أمهم من قوة وصحة وحياة . كانت تسألهم :

— لعلكم تظنون أن هذا الأجر قليل ؟ ذلكم مايجنيه المرء بعد أن يكون قد هدم حياته بالعمل . . نعم ، هذا مايجنيه ، ولا شيء غيره . وكان الأطفال ينظرون الى المال ، ثم ينظرون الى أمهم ، ولا ينسون بكلمة واحدة .

وإردفت عيني تقول :

— هأنتم ترون أن مبلغا كهذا المبلغ لا يمكن أن يفيد في شيء ! هأنتم ترون أننا إذا اشترينا خبزا فلن نستطيع أن نشترى زيتا ، وإذا اشترينا زيتا فلن نستطيع أن نشترى خبزا ، وإذا اشترينا خبزا فلن نستطيع أن نشترى بنا ! نعم ، هذه حياتنا ، هل رأيتم بأعينكم ؟

ويغض الأطفال أبصارهم لا يريدون أن ينظروا الى هذه «الدراهم» بعد أن صاحوا صياحا كثيرا مطالبين برؤيتها . لقد استقبلوا أمهم بفرح عظيم وتهليل كبير .

ما كان أشد احتفالهم بمقدمها ، وما كان أروع فرحتهم برؤيتها ! غير أنهم الآن يشيخون بوجوههم متعبين ، لا يعرفون ماذا يعملون ! كانت عيني قد صرت هذه الدراهم ، على عاداتها ، في عقدة من متديلبها القطنى الواسع .

ولم يكن قد بقي منها الى اليوم شيء ، او قل انه لم يبق منها الى اليوم الا قليل لا يقنى ، فكأنه ليس شيئا البتة . لقد وصلوا منها الى آخر قطرة . لم يعد في وسعهم ان يحصوا على ريال واحد ! ذلك انه لم يبق في المدينة عمل . نعم ، لم يبق في المدينة عمل . وعينا يصدع المرء راسه باحثا عن عمل . أصبح الرجل الاسباني لا يكلف أحدا بدرر نعاله ، وأصبح الحائكون لا يعهدون الى احد بفزل صوفهم . . الامر بسيط . لم يبق هنالك عمل .

الحجة اذن واضحة ، وانما ينبغي أن تجد سبيلا الى زعوس هؤلاء الاطفال .

قررت عيني عندئذ ان تقوم برحلة من تلك الرحلات الفريية ! لماذا لا تحاول التهريب مرة أخرى ؟ انها لا تستطيع ان تعمل شيئا آخر . لقد استنفدت جميع الوسائل ، وأصبحت الان على شفا الهاوية . فكروا في هذا الامر قليلا ، انتم ايضا ! انه لابد لنا من طعام ، اليس كذلك ؟ اذن لم يبق الا هذا الأمل : ان أسافر الى مراكش ، وان أعود من هنالك ببعض قطع القماش ، فأبيعها هنا . تذكروا ان ذلك ليس بالامر السهل . أنا لا أسافر حبا بالسفر . الرحلة اولا طويلة . وهي ثانيا تكلف مالا ! ينبغي أن أمكث بضعة أيام في عوجا . من هذه الناحية ، أنا مطمئنة . لنا هنالك اقرباء . سأنزل عندهم رأسا . مساكين ! لقد أحسنوا معاملتى دائما . كانوا في كل مرة ينزلوننى في بؤبؤ أعينهم ! والحق أنهم أناس ميسورون . ان لهم عدة مخازن . تجارتهم مزدهرة دائما . وهم يكرمون وفادتى . أجزل الله عطاءهم ، وزادهم خيرا على خير . المهم اننى لن أنفق اذن شيئا . حتى لقد حدث مرة أن دفعوا عني ثمن تذكرة العودة . ولكنكم لا تستطيعون أن تتصوروا بخيالكم ما هو الجمر . يقال ان الصراط ادق من حد السيف وأرق من شعرة . الا ان الجمر كالحال كالصراط يا أولادى . ادعوا الله لأمكم . ولكن الله يعرف الحال التى نحن فيها ، انه يعرف أنكم يتامى ، وان أمكم تعمل ما فى وسعها أن تعمله . سيعيننى الله على اجتياز الجمر . لا شيء يدفعنى الى هذا الا اليأس . ستكتب لى الملائكة هذا فى كتاب الحسنات . . أرجو ذلك . أما انتم ، يا أولاد ، فساعدكم بعض الدراهم قبل أن أذهب سأترك لكم ما انتم فى حاجة اليه .

وكانت عبوشة ، وهى تعرف هذه الاحاديث ، تصفى فى الذعان . وسألها فجأة :

— ما هو المبلغ الذى ستركينه لنا ؟
ان عيوشة ، أكبر اولاد عيني ، هى التى تتولى امر العائلة فى
غياب عيني .
— المبلغ الذى ساتركه لكم ؟ هل تريدون أن اترك لكم ملايين ؟
— لم أقل ذلك ! ولكن يجب ان تتركى لنا ما يكفى لطعامنا اثناء
غيابك .

— خذى ! هذا كل ما معى ؟
قالت عيني ذلك وحلت منديلها وأعطت ابنتها قليلا من الدراهم
فقعدت البنت على الارض ، وعدت الدراهم فى راحة يدها ، ثم
رفعت رأسها نحو عيني .
— هذا لا يكفى الا للخبز بل لست ادرى هل يكفى للخبز ؟ فأين
ما نشتري به الاشياء الاخرى ؟
قالت عيني :

— هذا كل ما معى .
— الانك تسافرين يجب علينا ان لا نرم الا خبزا .
قصفتها امها بنظرة شرراء ، دون ان تقول شيئا . قالت عيوشة
زاشجة .

— ان هذا لن يكفى ابدا .
فقالت عيني :
هذا كل ما معى .
— ولكنك ستمكثين فى عوجا ثلاثة أيام أو أربعة .
فعادت الام تقول :
— هذا كل ما معى . لا زيادة .
فقالت الفتاة متشكية :
كيف يمكن هذا ؟

كان هذا المشهد يقوم كلما تهيأت عيني للسفر .
ان عيوشة ممسكة بالدراهم فى يدها ، وهى ذى تنفرس فى
وجه أمها ، ثم تتراجع الى البواب . ان المشهد يمكن أن ينتهى
باطمات .

وقالت الفتاة :
— آه .. آه .. انها لحياة تحطم القلب ، هذه الحياة التى
نعيشها !
كانت عيوشة قد أصبحت تلك الفتاة الطويلة النحيلة المتكسرة ،

التي يعرفها الناس في دار سيطار وفي غير دار سيطار من بيوت
الحى . ان لباسها ثوب يتهدل من أعلى الكتفين الى أخمص القدمين ،
فيغطيها كلها . وان لها وجها رثا أشهب ، وقسمات مهذمة فقدت
كل ما للصبا من نضارة الصحة . غير ان ثمة فتنة حزينة مقلقة ،
لا يدري المرء كنهها ، كانت تفنى في وجهها عن فتنة الصحة . لعل
صباها وذبولها المبكر ان يكونا مصدر هذه الفتنة . مسكين هذا
الوجه الذي يجب عليه أن يجيب عن كل هذه الاسئلة المقلقة ! لم
يكن لعيوشة غير هذا الوجه . ولم يكن لعيوشة الا هذا الوجه . انه
هو بعينه دائما ، بثناياه الصغيرة المثيرة للشفقة التي تولدها فيه
الابتسامة .

انهم الان جميعا ، ومن بينهم الجدة ، رهن بالسجير الذي ستجنيه
عيني من التهريب . وكان مما يدهش عمر أن أمه لم تقع حتى الآن
بين يدي الشرطة وجمال الجمـرك وجنود الدرك الذين يخفرون
الحدود . وهو من أجل هذا السبب وحده مستعد كل الاستعداد
للأعجاب بها .

لم تحتج عيني الى وقت طويل حتى تعد قفتها التي تصحبها في
أسفارها ، وودعت عيني جميع النساء (لقد أصبحت لاتخفى عنهن
أسفارها) ، ومضت .



صاحت إحدى الجارات فجأة :

— هه ! عيني . .

فما ان رأى النساء جارتهم عيني التي كن يعتقدن انها وصلت
الى عوجا أو أوشكت ، حتى أخذن يصرخن ويصحن متعجبات .
وانهمرت الاسئلة على عيني من كل حذب وضوب .

— ماذا حدث لك يا عيني ؟

وهرع أولادها اليها يعوون ويرددون :

— ياما ، ياما . . يا أميمة .

واستبد ببعض الجارات شعور جنة بالفرح والمرح ، وأخسذن
يسألن عيني وهن يضحكن ضحكا شديدا تتساقط له دموعهن :

— أهلا وسهلا بعيني . لم نرك منذ زمن طويل . كيف حالك الآن ؟
ورحن يغمرنها بوابل من العبارات التي تقال عادة عند استئصال
صديقة عزيزة بعد غياب طويل .

وقلن متهكمات :

- كيف حال أهل عوجا ؟
 واستطاعت عيني أخيرا أن تقول :
 - يا اخواتي لقد وصلنا الى نهاية الزمان ، وصلنا الى مايسمى
 يوم الساعة ..
 فصاحت بعض النساء مدعورات :
 - يا لطيف ، يا حفيظ ..
 - أحلف لكن بأعز ما عندي ،
 ووضعت عيني يدها على عمر ، دون أن تثبته له ، وعادت تقول
 مؤكدة :
 - هي الساعة ، مافي ذلك شك . ان ما قيل هو الحق .
 قالت عيوشة متوسلة :
 - هوه ! ماما ! قولي لنا ما حدث . لا تدعينا في هذه الحيرة . الا
 ترين ؟ البيت كله يريد ان يعرف ما حدث .
 قالت عيني مترجبة :
 - دعيني أنفقس قليلا يا بنتي .
 حتى اذا قررت ان تتكلم ، كانت النساء قد استعدت للاصغاء
 اليها ، لم تثبس واحدة منهن بحرف . ان ما سمعته في ذلك اليوم
 يفوق كل ما كان في وسعهن ان يتصورنه بالخيال .
 قالت عيني :
 - لقد بدلت الدنيا غير الدنيا ، يا اخواتي . ان هنالك أمورا
 تحدث وليس لنا بها عهد من قبل . هل تعلمن ماذا قيل لي في
 المحطة ؟ اقتربت من الرجل الذي يقطع التذاكر أريد شراء تذكرة
 السفر ، فقال لي : « يا خالة انه لا يسمح لاحد بالسفر بعد الان
 دون ترخيص خاص » ، ولكنني أجبتة : « انني اذهب دائما الى
 عوجا دون حاجة الى ترخيص » ، فقال لي عندئذ : « هذا تغير
 يا خالة » . لماذا تغير ؟ هل يجب ان نعتقد ان الدنيا قد تغيرت
 أيضا ؟ قال لي الرجل : « نعم يا خالة ، لقد تغيرت الدنيا ، تغيرت
 منذ ان قامت الحرب » . قلت له : هكذا اذن . . تغيرت الدنيا حين
 أردت أنا ان أسافر الى عوجا ! فقال لي : « لم تتخذ هذا التدابير
 من اجلك خاصة » . فقلت له : اذا لم تتخذ من اجلي خاصة فما هو
 السبب ؟ قال : ما هو السبب ؟ السبب هو الحرب . قلت له :
 ان لي في عوجا أسرة . وأريد ان أزور أهلي . أوكد لك انني لا اذهب
 الى عوجا لامر آخر . قال : لا بد لك من ترخيص ، وبدون ذلك

لا أستطيع ان اعطيك تذكرة سقر . ترخيص . ترخيص . هذا ما قاله الرجل قاطع التذاكر . قلت له : ويلي من مسكينة . اذن لا أستطيع الحصول على تذكرة سفر ؟ ولكنني أؤكد لك أن هذه آخر مرة أسافر فيها ، لن أضع قدمي في القطار بعد اليوم . دعني أسافر هذه المرة الأخيرة . انظر ! لقد أعددت كل شيء . هذه سلتى . وقد ودعت جميع من في البيت . ليس يليق أن أعود الآن ادراجي . ولكن الرجل قال لي : لا بد من ترخيص ياخالة . أنا أتمنى أن اعطيك تذكرة ولكنهم سيوقفونك في الطريق . هذه هي المسألة . قلت له : ولماذا يكون قيام الحرب سببا في منع الناس من السفر الى غوجا ؟ قال : هذه اوامر السلطة العليا ياخالة . لا يمكن أن يسافر احد بعد الآن بدون ترخيص . جميع المسافرين مطالبون بالحصول على ترخيص . قلت بيني وبين نفسي « ألا ليتهم يموتون هم وهذه الاوامر التي يصدرونها ، وهذه الحرب نفسها فوق ذلك »

وعندئذ أخذ الناس الذين كانوا ورائي ، والذين كانوا يريدون هم أن يسافروا أيضا ، أخذوا يصيحون سائلين : « هل يجب أن نحصل على ترخيص أيضا » فأجابهم الرجل : « لا بد من ترخيص لكل مسافر ، لا بد من ترخيص لجميع من يريدون السفر » . فجعل الأشخاص الذين يقفون ورائي ، جعلوا يصيحون . آ . . . أو . . . أي . . . عندئذ قلت للرجل قاطع التذاكر : هل رأيت ؟ فقال لي : « هل رأيت ؟ انهم يريدون جميعا أن يسافروا بالقطار دون أن يحملوا ترخيصا ، وهم لذلك لن يسافروا » . وعاد كثير منهم الى بيوتهم وانتظرت أنا في ركن بالمحطة . ثم مضى جميع الناس ولم يبق منهم احد . عندئذ عدت الى قاطع التذاكر ، فقلت له : ها قد ذهبوا جميعا ولم يبق منهم احد ، ألا تستطيع والحالة هذه أن تعطيني تذكرة يا عم . وشفعت طلبى بأنواع من الرجاء والتوسل ، قلت له : انعم الله عليك ، وامتلك بزيارة قبر النبي ، وجعل الجنة مأوى روحك بعد الموت . وقلت له : لعلك لم تعرفني . أن أمك لآلا خديجة هي بنت أخت عمتي زاذا التي تمت أيضا بقرابة قريبة الى أبيك من جهة جدته . نحن اذن قريبان كما ترى . فقال : « كل ما تقولينه قد يكون صحيحا . لست أعارض في هذا . ولكن لا بد لك من ترخيص ياخالة . ليس الامر بيدي ، لا يجوز لاحد أن يسافر بعد اليوم بدون ترخيص . انها الحرب ! » وهأتين أولاء تربيتني في البيت بينكن . من ذا الذي كان يمكن أن يصدق ذلك في هذا الزمان ؟

هل كان يمكنك أن تصدقته أنش ؟ . لقد قال قاطع التذاكر : « أنها الحرب ، فلا بد لك من ترخيص بإخالة » . نحن نعلم أنها الحرب . ولكن هل تمنعنا الحرب من الذهاب الى عوجا ؟ لقد كان الموظف لطيفا دمثا ، ولكنه لم يسمح لى آخر الامر أن اركب القطار . ان المرء يتساءل : أتراهم يطالبوننا بعد الان بترخيص من أجل كل شيء .. من أجل التجول في مدينتنا نفسها ، من أجل الخروج من البيوت .. من أجل الذهاب الى البقال .. من أجل حمل العجين الى الفرن ؟

ان عيني مرهقة ، وها هي ذى تنبأ لنساء دار سبيطار المتحلقات حولها باقتراب أيام يختلط فيها الحابل بالنابل . والنساء يتصايحن ذعرا من هذه العلام التي تنذر بوقوع أحداث غريبة . كان عمر يصفى الى حديث أمه هو أيضا ، فأحس فجأة ان عداوة لا يعرف كنتها ولا يستطيع تحديدها تحقيق به . ان قوى مجهولة تحف به من كل صوب ، قوى تخفى عن الابصار ولكنها توغل في العالم أيضا عميقا . من أى ليل داج تتبع هذه القوى ؟ ان عمر يحس انه محمول هو نفسه على ظهر امواجها العالية . ان هذه القوى تقتتل دون ان يصبح الظل ظلما دامسا ودون ان يصبح الضياء لهيبا ساطعا .. انها تقتتل دون ان تنتصر احداها على الاخرى . لا راحة ولا هدنة . الحياة . الحياة .



لا يزال القلق يرين على الناس صاحيا يقظا . ان جوا ينذر بسقوط العاصفة يخيم على تلمسان . تجسدت فجأة جميع المخاوف المتفرقة وامتلات سماء المدينة بأنباء حزينة وصلت اليها على اجنحة سريعة .

لم يتخلص عمر وذووه بعد ذلك من الشعور بأنهم يعيشون في عالم محرم . لقد هبط الليل على هذا العالم على حين غرة ، فما يدري أحد متى هبط ولا كيف هبط . والليل يتراكم الان فوق الليل . وهذا الخدر الكبير يبيت الان كل من يتطلع الى الحياة .

وأحس عمر بأنه يعيش بين أناس قاوموا المصير المشترك وحدهم ، فلم يموتوا وعاشوا بعده . هل يتهيأ سكان دار سبيطار ، وأهل تلمسان أنفسهم لخوض معركتهم الأخيرة ، هل يخرجون بعد قليل الى الفجر الذي يتجهون اليه مفتونين به منجذبين اليه فيما يشبه الهذيان ؟ أم أنهم سيظلون آخر الامر على ما هم عليه ، سكانا من

سكان هذا العالم الذى فرض عليه الصمت ، ومات فى الهواء الطلق ،
وأخذت الشمس والرياح تفرغه شيئاً بعد شيء ؟
كانت دار سبيطار تعيش مأساة شعب ممزق .

وصل النبا ذات يوم . جاء فيه ان حميد سراج نقل مع اشخاص
آخرين الى معسكر من معسكرات الاعتقال بالصحراء . قالت فاطمة
أخت حميد سراج :

— أرايت كيف كان هذا الرجل ؟ لا يتوقف عن الركض من مكان
الى مكان . حتى ولو ذعب الى خارج البلاد . كان يسافر من مدينة
الى مدينة ، ويطوف البلاد قرية قرية ، ويتجول فى الريف لا يدع
منه ركناً ، ويتحدث الى الناس اثناء ذلك كله . ان هذا الرجل لم
يكن يسعى الى ربح . ولم يكن ينشد نفعا . لم يكن يهدف من أعماله
الى مصلحة لنفسه . انه لم يكن يجن فى يوم من الايام قرشاً واحداً .
ولو شاء ، مع ذلك ، لاثرى ، ولجمع الملايين الى الملايين ، ولحظى
بكثير من الاعتبار والجاه . وصمتت فاطمة . ان صمتها يثبها
لاستقبال التعليقات ، غير ان النساء اللاتى كن يصغين اليها لم تفتح
أحداهن فاهاً بكلمة واحدة .
فتابعت تقول :

— ما الذى جناه بدلاً من ذلك ؟ السجن .
قالت ذلك بصوت هزته نبرة من نبرات الانتصار هزاً غريباً

— اليس مثقفاً من كبار المثقفين ؟ ان الناس جميعاً يعرفون ذلك
كان ينصر الضعيف دائماً . وكان يعين الناس بما يسدى اليهم من
نصائح . بث فى الرجال شجاعة الحياة . كان دائماً الى جانب الفقراء ،
وتحدى السلطات من أجل ان يساعد أقرانه . . . ما الذى يمكن ان
يؤخذ عليه ؟ ماذا يمكن ان يقال عن رجل مثله ؟ وهما هو الآن فى
السجن .

قالت زينة :

— لماذا كان يريد ، يا عزيزتى فاطمة ، لماذا كان يريد هو ايضاً
ان ينشر السلام فى مملكة فاس ؟ ماذا يريد هؤلاء القوميون . . .
وغيرهم ؟ ان الحاج مصالى قد قضى حياته فى السجن ، قبل أخيك ؟
دعوا لابس القبعة يحكم ! أى بأس فى هذا ؟
قالت إحدى الجارات :

— أنظروا الى احوالنا نحن المسلمين . كنت مارة فى الشارع
منذ مدة ، فسمعت بائعاً من بائعى السكر يؤنب رجلاً آخر بقوله :

« حين تتعلم أكل الشيكولاته تعال الى . سأبيعك عندئذ شيكولاته
.. سأبيعك الشيكولاته حين تتعلم أكلها ، أما قبل ذلك فلا . . »
مساكين نحن ! لم نتعلم أكل الشيكولاته ومع ذلك نريد أن نحكم .
سمع النساء هذا الكلام ، فسرى بينهن مرح شديد .
وقالت مالكة البيت محتجة :

— اسمعي يا جارة . خير لهؤلاء أن يعملوا أولا ، خير لهم أن
يصلحوا وأن يحرقوا الحقول التي تركها لهم آبائهم وأجدادهم .
ليست تجديهم في شيء هذه الحركات كلها . حين كان العربي يتمدد
على الوسائد ويشرب الشاي ، كان الفرنسيون يعملون ، ولا يضيعون
لحظة من الوقت سدى ، ولا يرضون بشيء من جهودهم ومن قواهم .
وها أن رجالنا يريدون اليوم أن يستردوا هذه الأرض قائلين : أنها
لنا . ما كان ينبغي لهم أن يشركوا الفرنسيين يعملون بدلا عنهم ،
ولو فعلوا ذلك لما أخذ الفرنسيون منهم شيئا . هم الذي تركوا
أرضهم ، فما يحق لهم أن يطالبوا اليوم بشيء .

وقالت امرأة أخرى من قاع المطبخ المشترك :
— كيف كنا ؟ تذكرون ذلك الرجل الذي كان يتلو الادعية على
القبور ، ذلك الشيخ الصالح الذي كان أعمى فوق هذا كله . لقد
قتل وهو في المقبرة . انتن جميعا تعرفن ذلك ، ومن الذي قتله ؟
قتله المسلمون ، أخوانه . هل رأينا مسيحيين يقتلون مسيحيين ،
أو يهودا يقتلون يهودا ؟ طبعاً لا . . فانظرن إذن الى هؤلاء الرجال
الذين يريدون أن يحكموا ! . .

قالت المرأة هذه الكلمات ثم اجتازت باب المطبخ الواسع وهي
ترفع يدها بحركة بذيئة دون تخرج على مرأى من سائر النساء .
وفي هذه اللحظة دخل بن ساري الى فناء البيت فرآها . فما كان من
النساء جميعا إلا أن تصايحن دفعة واحدة مذعورات . آه . . . آه . .
وعدادت السفهية فاعتصمت في قاع المطبخ .

قالت فاطمة في وسط هذا الاضطراب :
— كل ما قارفه أخي من شر هو أنه هب يساعد الناس .
قالت عيني :

— كلامك حق !

وقالت عائشة العجوز :

— كلامك صحيح يا بنتي .

— فشعرت فاطمة عند ذلك برهو كبير .

— وما هو الآن ؟ رجل في السجن لا أكثر . ولكن ليس فيه ذرة من شر .

توقف بن ساري . وهو يصفى الى كلمات فاطمة . فقال بصوت عال دون ان يتجه اليها خاصة :

— المسجونون هم الذين كان نزاعهم مع السلطات أشد من نزاع سائر السكان . لابد ان يكون هناك مجرمون . ونحن جميعا مجرمون نعم نحن جميعا مجرمون ، لا يستثنى منا أحد . ولن يغير من الامر شيئا ان يسجنونا او يطلقوا سراحنا . ثمة قوانين موضوعة . وقد وضعت على صورة عددنا معها بمجرد وجودنا مجرمين . نحن أناس خارجون على القانون . نحن أناس مخالفون للقانون نتأمر عليه بغير انقطاع . ان هؤلاء الذين يسجنون رجال متأمرون . هم انفسهم لا يستطيعون ان ينكروا ذلك . وسيظل حكم القانون محترما .

انقضى اسبوع على محاولة عيني السفر بالقطار دون ان تظفر بذلك . واصبح من غير المؤكد ان تستطيع السفر بالقطار الان . كان يبدو ان عصر الرحلات قد انتهى . واصبحت تعاني من جرائه امرين : فأولا أصبحت لا تجد غير الخبز طعاما ، ولا تجد سبيلها الى هذا الخبز في جميع الايام . وثانيا اصبح بعض النساء يأتين الى دار سبيطار يطلبن عيني ، واصبح ترددن على دار سبيطار يزداد يوما بعد يوم ، فكانت عيني تكلف اولادها او جارائها بأن يقولوا لهن انها غائبة . كانت عيني تختبئ عن أعين هذه النسوة . كان هؤلاء المجهولات يجئن الى دار سبيطار حاملات مطالب رهيبة . واصبح صياحهن يزداد عنفا وحدة أمام باب الدار كلما انقضت الايام تلو الايام . ذلك انهن كن قد أسلفن عيني أموالا لتشتري لهن الأشياء التي كانت تنوي ان تحملها اليهن من مراكش . اتراهن علمن بأنها لن تستطيع ان تغادر تلمسان بعد الان ، فجئن جميعا يطالبن بأن نرد اليهن ما لهن ؟

وفي ذلك الصباح جاءت زائرتان منهن ، فلم تكتفيا بالنداء أمام الدار الكبيرة بل مضتا الى غرفة عيني فدخلتاها . كان عمر لا يزال نائما . انها ساعة مبكرة جدا من الصباح . استيقظ عمر فجأة على أصوات صياحهما .

امراتان دميمتان ضخمتان ، متسربلتان بحايكين ناصعي البياض ، افتحمتا الغرفة وانتصبتا فيها شديدتين كأنهما برجان . . انهما تملكان الثراء . ان هاتين المرأتين تلوئتان بصحتهما الباهرة القاسية جذران هذه الغرفة العارية . لم تزيذا في اول الامر على ان أزاحتا الستار المسدل على المدخل ، ولم تتوغلا أكثر من خطوة واحدة وكانت عيني جالسة على الارض أمام طبق مشقق ، فبدت كالطلل المتداعي إزاء هاتين المرأتين اللتين تجسدان المال الحائق المهين ، واللتين خطرنا وفي عينييهما وفمهما السب واللعن ، والتهديد والوعيد . ان جسميهما الضخمين اللذين يسدان عتبة الباب يحجبان النور عن الغرفة حجبا تاما . . وتقدمت المرأتان أخيرا ، فوقفتا في وسط الغرفة ،

وعسكرتا امام عيني وأولادها المحطمين الذين أخذ تقبضهم يزداد شيئاً فشيئاً .

فنهضت عيني كالضربور بحركة مفاجئة ، وأخذت النساء الثلاث يتعانقن . آه . . ان هذه المعانقات والقبلات لم تكن الا تصنعاً وزيفاً . انها كذب وخدمة . انها تقليد للمودة والعواطف الصادقة . ولكنها كانت محكمة مرتبة . كان واضحاً من ذلك ان المرأتين انما جاءتا للمشاجرة والمطالبة والتهديد . فيكفى ان ينظر المرء الى وجهيهما المتصنعين حين يدرك ذلك .

دعتهما عيني الى الجلوس وهي تشير بيدها الى جلود الخراف المفروشة على الارض . فهزت المرأتان رأسيهما ترفضان الدعوة . - لم تجيء لنقعد وانما جئنا للحظة ثم نمضي .

فحلفت عيني ان تقعدا ، وحركت يديها تريد ان تجرهما من أذيال الحايك .

- لحظة قصيرة ! لن تبقياً هكذا واقفتين .

فأقسمت المرأتان لا تقعدان .

- قعودكما يشرفني كثيراً .

وصاحت احدهما أخيراً - وهي ذات خدين ضخمين مهتزتين -

صاحت تقول بصوت كصوت البوق :

أختي عيني . لعن الله الشيطان . لعن الله الشيطان ! متى نحصل أخيراً على أثوابنا ؟ لقد جئنا أنتى عشرة مرة . فهل نحصل عليها آخر الامر ؟

وقالت المرأة الثانية وهي امرأة مترهلة ، تلتمع عيناها التماعاً غريباً في وجه شاحب ، قالت بصوت كصوت الرجال مقنع :

- لا تستشيطي عليها غضباً يا زهرا . دعيني أتكلم .

ثم التفتت الى عيني وقالت :

- ما عساك صانعة حين لا يبقى لك قرش مما أعطيناك من مال ؟

ثم قالت بمزيد من الرفق أيضاً :

- فكرى في هذا يا عيني ، يا عزيزتى ، ما عساك صانعة حين يكون

هليك ان تودى اليها مالنا ؟

- صحيح . كلامك حق . ولكن لا تخشياً شيئاً . فلن يضيع

من مالكما قرش واحد .

عندئذ استأنفت المرأة الثانية عواءها :

- كان عليك ان تسافرى الى مراکش منذ أكثر من عشرة أيام

فمتى تأتينا بهذه الاثواب ؟ انظنين اننا سننتظرك الى أن يشاء لك هوالك ان تسافري ؟ اجيبيني عن هذا السؤال . متى تأتينا بهذه الاثواب ؟ أنا في حاجة اليها لعرس ابنتي ! ولكن لعل المال تبسدد منذ مدة طويلة ؟ لن يدهشني منك ان يقع هذا . لا أعرف كيف سأصرف حين أعلم أنك أكلت مالي . لا تثيرنها عندئذ فضيحة . تأكدي من ذلك ! مستغلة ! نعم . ما أنت الا مستغلة !

واخذ النساء الثلاث يتكلمن فجأة في آن واحد معا . اصواتهن المتفجرة المتكررة تهدم عدوبة الصباح الساجي . ترى هل كان يسمع بعضهن بعضا ؟ أصبح عمر لا يفهم شيئا مما يقلنه . كان لا يعرف الا شيئا واحدا ، هو أن هاتين المرأتين تطالبان أمه ببرد مالهما اليهما ، وأمهم تحتج احتجاجا شديدا . وليس يهمهن اذن أن يفهم بعضهن بعضا فلقد كن يعرفن ماذا يردن ، وهذا هو الامر الاساسي . ان المرأتين تريدان اذن أن تجهزا بناتهما لأعراسهن . القضية اذن قضية جهاز ! هذه هي القضية الكبرى في حياة نساء تلمسان ، وهذا هو الهم الاكبر الذي يملأ رؤوسهن .

في هذه اللحظة ألقت المرأة التي اسمها زهرا نظرة على الاطفال ، وقالت ساخطة شامة :

— لا تقولي انك اطعمت بمالي هؤلاء الخنازير ..

قدممت الثانية قائلة :

— تمهلي قليلا يازهرا .

فأجابتها عيني

— لا تحاولي ان تكوني معي كصاحبك كبير ! (هكذا كانت عيني

تسمى هتلى) . لن يجديك هذا ، أقول لك ذلك بصراحة .

وأضافت الى كلمة الصراحة ترجمتها الفرنسية *franchement* من أجل أن تأخذها صاحبها مأخذ الجد ..

وكانت عيني تهز يديها في الهواء هزا مرتعشا وهي تقول تلك الكلمات ، فلما لاحظت ذلك نظرت اليهما في ذهول وخفضتهما ، ثم استأنفت تقول بصوت لا هت قليلا :

— أنت تعلمين مع ذلك يازهرا أنني لست كما تظنين . أنا

لا أستطيع أن آخذ مالك لأعيش به .

فقالت المرأة الثانية مرة أخرى :

— أنا أؤثر حديث التفاهم والمصالحة . أنا امرأة شريفة تفهم

الامور . ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنه لا سبيل الى المزيد من الصبر على كل حال ، أنا أؤثر حديث التفاهم والمصالحة .

فانبهرت المرأة التي تسمى زهرا قائلة :
— الله نفسه لا يمكن أن يقبل هذا .

أحسن عمر ، وهو مهتاج أشد الاهتياج ، بأن عددا كبيرا من النساء ،
هن الجارات ما في ذلك شك ، قد وقفن على باب الغرفة ، أن هؤلاء
النساء قد اجتذبهن أمل الاستمتاع بشهود فضيحة من الفضائح ،
فجئن ينصتن للحديث وراء الباب . استند عمر إلى أحد كوعيه ومال
يحاول أن يستشقه من خلال شق الستارة . كن واقفات هناك
يصفين إلى المناقشة في ارتياح وجلد .

والثقت عيني نفسها إلى مدخل الغرفة ونادت النسوة اللاتي
كن يقفن وراء الباب .

فما هي الا لحظات حتى كانت نساء دار سيطار جميعا ، اللاتي
توافدن واحدة واحدة في أول الأمر وزيارات بعد ذلك ، قد
تجمعن في غرفة عيني وأمامها ، تجمعن هنالك ، وأخذن يشهدن ،
صامتات ، المناقشة التي تدور على مرأى منهن ، وينتظرن اللحظة
المناسبة للتدخل في الأمر .

اتجهت المرأتان القريبتان اليهن ، وقالت احداهما :
— يشهد الله يا أخواتي أننا أسلفنا مالا ..

وأخذتا تعيدان على الجارات قصتهما منذ البداية .. فكانت
الجارات يصفين اليهما أصفاء عميقا ، وهن ساكنات لا يتحركن .
وكن في أثناء ذلك قد اتخذن لانفسهن أماكن جلوس فيها . ان عيني
مضطربة ، ومن حين إلى حين كانت احداهن تهز رأسها بإشارات
عريضة متكلفة . وفجأة صاح عمر بصوت يفيض بالحنق قائلا لهن :

— اذهبن يا .. ما انتن جميعا الا بنات كلب ..

فكانت هذه الكلمات تدير هرج ومرج . وأخذ النساء يشتمن
عمر . قالت احداهن :

— ينفك حنكك ان شاء الله يا مشوه .

أصبح عمر لا يفهم شيئا مما يحدث . كانت النساء ساكنات
صامتات فإذا هن ينقلبن فجأة إلى هائجات متحديات . وأخذت
عيني تلهث بينهن . انهن يتكلمن جميعا في آن واحد مزبدات
مرغيات . لكن فما ثانيا قد انشق في وجه كل واحدة منهن .

حين قال عمر — مشيرا إلى المرأتين القريبتين اللتين جاءتا هذا

الصباح - « ينبغي للمرء ألا يسرق » ، قالت الخالة حسناء
سائلة :

- يارب ! كيف تستطيعين أن تدبري أمورك في هذه الحياة ؟
كانت لالا تزور في ذلك اليوم عيني وأولادها ، بعد أن انتظروا هذه
الزيارة منذ بضعة أيام تمنوها من أعماق قلوبهم . أن الخالة حسناء
هي الآن في بيتهم ، أمامهم ، وأنهم لا يستطيعون في هذه اللحظة أن
يزيدوا على أن يظلوا صامتين يصغون إليها في خشوع .
أن لالا مندهشة . كيف أمكن أن يملأ رأس هذا الطرح بأفكار
كهذه الأفكار ؟ أتراه وضع هذه الأمور في دماغه منذ خرج من بطن
أمه ؟ قالت مرددة ، وهي تشير إلى الصبي بأصبعها : أن هذا
الصبي لا يطمئني . يا عيني كوني على حذر منه .

ورفعت لالا ذقنها إلى فوق . أن هيئتها تعكس ماتحملة من
احتقار كبير للنظريات السخيفة التي يدلي بها عمر . ونطقت بحكمها
في جد ووقار قائلة :

- ستكون نهاية هذا الصبي نهاية سيئة . لسوف يتسول طوال
حياته !

كانت أحكامها القاطعة كأحكام القدر ، لا تدع مجالاً لاستشفاف
آمال فرحة في يوم من الأيام .
وأحس عمر بمدى ما تولده حقائق لالا في النفس من حزن ممض .
كانت لالا تقول لهم :

- أن عنثيل قد نهب وسرق ، ولكنه جمع ثروة .
وكان شعورها المخلص هو أن هذه النتيجة تمحو ما كانت تشتمل
عليه الوسائل من ازعاج . وأضافت تقول :

- والآن لم يبق على عنثيل إلا أن يفعل الخير ، وأن يتصدق على
الفقراء ، وأن يحج إلى مكة ، فبذلك يكفل لنفسه الجنة .
أذن لا بد للمرء حتى يمارس الفضيلة ممارسة مجدبة من أن يبني
في أول الأمر ثروة ؟ كلام واضح .

أن كلام الخالة يثبت القلق في نفس عمر ، رغم أنه لا يستطيع أن
يقول لماذا . ومع ذلك أحب عمر أن يسمعها تتكلم . أنها فطنة
حصيفة . أن في أقوالها حزماً وحزماً . أنها تقطع أسئلتك بقوة .
وهي تدهشك بما تملكه من موهبة النفاذ إلى أخفى أفكارك . وهي
بطبيعة الحال ، تعلن لك بصراحة ما ليس في وسعك حتى أن تدبره
في خلدك وأن تفكر فيه . صحيح أن ما تكشفه لهم عن أنفسهم وعن

غيرهم ليس جميلا . فهي تنسب الى الناس نوايا تبعث على الدهشة
في اقل تقدير ، نوايا لا تشرف اصحابها البتة . ان ما تقوله يشير في
نفس عمر شيئا من الانزعاج دائما .

وقالت له مرة اخرى في صراخ قوى :

— كيف تراك تدبر امورك في هذه الحياة ، انت يامن لا تريد ان
تسرق ؟ قل لي : ما عساك تفعل ؟ ان على المرء ان يعرف كيف
يختطف خبزه من فم الكلب حين ينبح الكلب .

اخذوا يتبنون نظراتها اخيرا ، دون ان يعرفوا كيف حدث هذا ،
سابعونها دون ان يكون لهم حيلة في دفع ذلك عن انفسهم . لاحظ
عمر انه قد استبدت به آراء ما كان ليتمنى في حياته ان تكون آراءه
ود عمر لو يوميء الى خالته ان تسكت ! ولكنه لم يامل كثيرا ان
تحفل خالته بايماءاته .

ومع ذلك كان الصبي يحس ان خالته بريئة . لو سأله ان يقول
لك كيف عرف ذلك ، لما استطاع ان يجيب . ومهما يكن من امر فانه
لا يشعر بأى فرح حين يسمعها تتكلم على هذا النحو . انه لامر
سهل كل السهولة ان يهاجم المرء الناس على اساس من الظلم
، التخمين كما تعمل هي الان . ولكن عمر امتنع عن ان يقول هذا ،
لما كانوا يكونون لها من اعتبار ، سواء بسبب سننها او بسبب خطورة
شأنها وعلو منزلتها . ثم انه كان يكفي الصبي ان ينظر الى اضطراب
شاربيها حين تهتاج حتى يقتنع انه لا يستطيع ان يأخذ عليها شيئا .

ليست هذه اول مرة يلاحظ فيها عمر من حوله فكرة اختراق
القوانين على وعى وعمد . وكان عمر يحس دائما ان كل انسان
يستطيع بالذكاء والحدق والحماسة ان يصل الى جميع المراكز التي
يطمح اليها ويحرص عليها ، فكان لا يستطيع ان يتصور ان على
الانسان ان يسرق وان يخدع الناس وان يستغل الآخرين من اجل
ان يحقق غاياته .

قال لنفسه : « حتى الجوع لن يدفعني الى استلاب ما ليس لي » .

كان يكفي ان يتصور ضرورة السرقة حتى يشمئز . صحيح انه
لم يصل الى معنى الشرف والامانة بتفكير مقصود ، لكنه لم يخطر
بباله في يوم من الايام ان يسلك سلوكا غير شريف . الخير والشرف
عنده صنوان . وكان يعرف مع ذلك ان كثيرا من الناس يسرقون ،
وان الذين يسرقون ليسوا اعدى الناس شأنا . وأولئك الذين لا يتورعون

عن انتهاز أية فرصة من الفرص لزيادة ثرائهم الشخصي أولئك
انفسهم ينظرون الى العالم الذي حولهم نظرة تعال وتكبر . وضحاياهم
الاولى التي لا يشعرون نحوها الا بالاحتقار والتنازل هي من هذا
الشعب الذي يحيط بهم . وكان عمر يتخيل مائدة أولئك الناس
على انها شيء رهيب فاتن كمنضدة الذبائح ، وليست تذبح على هذه
المنضدة حيوانات شائعة كالخرفان والحملان والابقار فحسب ، بل
تذبح عليها كذلك النباتات البريئة ، والاشجار ، وأعشاب الارض ،
وحتى الانسان نفسه ، يذبح عليها جميع البشر الذين تظل أيديهم
وارجلهم تتخبط الى أن يشبع السفاح الذي لاوجه له ، يذبح عليها
جميع الناس واقدس ما في الانسان : كرمه ، وأخوته ، وشرفه ،
وشهامته ، وشوقه الى الحياة والبناء والتفكير ، يذبح عليها هذا
كله ، ويوضع على مائدة الشيطان طعاما يقطر منه الدم .

ومع ذلك فان بعض الناس ، وهم من أشرف الناس ، قد سيطرت
عليهم الحالة النفسية التي كانت شائعة في ذلك الوقت . كانوا يقبضون
الشيطان ويتمنون أن يكونوا مثله .

ان لا تزورهم في احيان كثيرة . فكلما جاءت حملت اليهم كسرا
من خبز يابس ، تكون قد صرتها خفية في قطعة من قماش . وكانت
تخشى أن يفاجئها « الآخر » (ان حسناء تطلق اسم « الآخر » على
زوجها) فكانت تدس الصرة تحت حايكها . وكان زوجها العجوز
لا يطيق أن تخرج من البيت فتبتة .

وكانت عيني تعرف كيف تضيف على لقم الخبز هذه منظرا شهيا .
أن الطعام يعوز الاسرة ، فلا بد من الاكتفاء بهذه اللقم . ومن الحرافة
أن ينفروا منها أو أن يزهدوا فيها . ولو خطر ببالهم أن يفعلوا لبدا
ذلك منهم شذوذا لا محل له في نظر حسناء . اتذكرون نعم الله عليكم
أيها اليتامى ؟ اسجدوا شكرا لله الذي يفرقكم بخيراته ! انهم سعداء
الحظ ، أنهم اسعد الاطفال حظا . وكيف لا يكونون كذلك ؟ أنهم ان
لم يفرحوا بهذا الطعام الذي تتفضل به عليهم الخالة حسناء ، كانوا
كمن يجحد النعمة ويهين العالم . فلا بد من أن يكونوا اذن سعداء .

وهذه القطع من الخبز التي كان يصعب تكسيرها بمطرقة كانت
عيني تنديها بالبخار ، فتلين ، ويصبح لها مظهر طري كمظهر
الفطير . وكان ينبغي التهام هذه القطع من الخبز المندى بالبخار
ساخنة قبل أن تبرد ، والا أصبحت عجينا لزجا لا اكثر . فكان

الأطفال يزدردونها لقما كبيرة بعد أن يغمسوها في مصالة اللبن التي كانت أهمهم تشتري منها قدرا كاملا بفرنكين . وكان هذا الخبز وهذه المصالة طعامهم المألوف خلال عدة أيام من الأسبوع . وكانت الأم ، في أحيان أخرى ، تنقع كسر الخبز في الماء فتشرب الكسر الماء شيئا فشيئا وتنتفخ ، وتتضخم ، وتصيح قابلة لأن تنفث . أنها بعد أن تنقع في الماء مدة طويلة تكتسب مظهرا جميلا كمظهر الثلج . على أن هذه الطريقة كانت لها مساوئها أيضا . فإن النقطع المسرفة في القدم لم يكن يصل الماء إلى قلبها ، فيظل قلبها يابسنا كالحمى .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الأولاد راضين بالتهام هذا الطعام . وكانت عمتهم تلقى في روعهم أثناء وجودها أن مجرد ذوق هذا الطعام بركة ، وأن هذه السعادة لا ينعم بها جميع الناس ، فكان الله يخصصهم بها وحدهم دون سائر البشر . وكانت لا تنسى أن تقول أن جزءا من هذه الكسر قد أخذ من الفئات الذي ترميه للدجاج وما كان ليزعجهم هذا الخبز على كل حال ، لو عرفوا أنه مسروق من طعام الدجاج .

لا يعرف المرء إلى أي حد كانت لالا واعية مكرها ، لا يعرف المرء إلى أي حد كانت واعية هذه الحيل التي يحملها عليها كرمها . ويجب أن نعترف بأنها كانت تبلغ من براهرتها أنها تأخذ تأكل معهم من هذا الخبز ، مقبلة عليه راضية عنه ، كما يجب أن يقبلوا هم عليه وأن يرضوا عنه .

وكانت عيني تنظر إليها وهي تفعل ذلك ، قائلة لنفسها : أن لالا هي التي تملك القدرة على جعل هذه البقايا مقبولة في أفواههم . وكان الأطفال يأكلون ولا يقولون شيئا ، فتقدر عيني أنها فهمت .

وفي بعض الأحيان ، وهي أحيان نادرة ، كانت الخالة تضيف إلى صرتها قليلا من الدقيق ، فتعجنه عيني وتخبزه في اليوم نفسه . وكانت تقتصد في هذا الخبز الجديد فما تعطي أطفالها منه إلا قطعة صغيرة مع قطعة كبيرة من الخبز الآخر . وفي أحيان أخرى كانت لالا تحيئهم بقليل من اللبن أيضا ، أو بشطيتين كبيرتين من السكر ، أو بحلة فيها بقايا وجبة (وأن تكن والحق يقال متخمرة قليلا) . وكانت في بعض الأحيان تحمل إليهم بعض الفاكهة ، أو قليلا من الفحم ...

ومهما يكن من أمر فإن عمر كان يؤثر أن يأكل هذا الطعام على أن

يفعل كما يفعل بعض الاطفال الذين يمشون يمشون براميل الزبالة
وينحلمون الى أفواجمهم منها ما يجدونه فيها من بقايا . انه لا يود أن
يحتقر هؤلاء الاولاد أبدا ، وقد يفعل ما يفعلون عند الاقتضاء ،
ولكن الخجل هو الذى يصد عنه ذلك ويفضيه اليه . على أن كثيرا
من الصبية ، ومن الرجال أيضا ، كانوا يستخرجون أكثر قوتهم من
زبالة المدينة .

ان ارهاطا من الناس تقوم بغزوات حق الى الاماكن التى تفرغ
فيها « طنابير » البلدية حمولتها ، وهناك على حوافى هذه المستودعات
التي تشبه الروابي ، يرى المرء قرى عجيبة تزدهر ازدهار النباتات
السامة على الفضلات . ان سكان هذه القرى يبحثون بين الزبالة
عما يقيمون به أودهم ، فلهم من كل ما تحمله « الطنابير » البواكير
الاولى . وهناك يلتصقون كذلك ما هم فى حاجة اليه من أثاث .

خرج عمر من البيت حاملا قطعة من الخبز . هذه عادته . انه كلما خرج ، فى أية لحظة من لحظات النهار ، دبر أمره بحيث يحمل قطعة من الخبز ، فيأكلها خارج البيت ، فى الشارع ، نقرة نقرة من داخل جيبه . ولقد اشتبهت فيه عيني منذ مدة طويلة ، وأدركته انه ينقص خبز الاسرة ، فكانت تمطره بوابل من اللوم والتقريع كلما عاد . كانت تلاحظ ان الخبز ينقص ، رغم انها تقفل بالمفتاح الصندوق الخشبي المدهون الذى تحفظ فيه كسر الخبز .

وكان عمر يطوف فى شوارع المدينة وقد جعل خبزه قسمين ، قسما هو اللب بعده خبزا ، وقسما آخر هو القشر يسميه بالاسم الذى يريد ، فتارة يسميه لحما ، وتارة شيكولاته ، الخ . . . ويأخذ يأكل خبزه بالادام الذى آثره .

ان كل لقمة من هذه اللقم التى يأكلها انما يأخذها من الاخرين ، من أخته ، من الطعام الذى يسكتون به جوعهم ، من تعب أمه وعنائها . ولكن ما العمل ؟ انه جائع . وكان يخرج الى الشارع حتى لا يرينه وكان يقف على عين من العيون هنا وهناك ، فيضع وجهه تحت الماء ، فيشرب ، ثم يستأنف طوافه فى الشوارع .

كان لابد ان يبقى فى البيت . وكان اكثر السكان لا يتظاهرون بانهم يأكلون الا ليوهموا الجيران بانهم فى بحوكة ليس يعوزهم شيء .

وهناك صبية آخرون فى الشوارع مثله ، فرادى أو عصابات ، متهيئون فى كل لحظة لان يفروا من رجال الشرطة الذين يطاردونهم ، انهم ينظرون الى الناس والاشياء نظرات غريبة ، وقد تسربلوا بأردية عتيقة مشمورة الاكمام عند القبضتين ، وانتعلوا أحذية ضخمة واسعة من أحذية الرجال ، وشحبت وجوههم شحوبا شديدا ، واتقدت عيونهم السوداء . انهم من فرط نشاطهم لا يكفون عن قتال بعضهم بعضا ، وعن مطاردة بعضهم بعضا . وأهل المدينة يحتقرونهم ويسبئون معاملتهم ، فلا بد لهم من أن يفروا فى كل لحظة من ضيق الناس بهم وأنزعاجهم منهم . وهم يسولون ويستجدون الأكف فى صراحة قليلة أو كثيرة ، وبعضهم يتعاطى السرقة . انهم ينظرون

الى الرجال والنساء والاطفال من الاوربيين نظرات ثابتة ، ويتأملونهم في انتباه مركز شديد ، فيظهرون أكبر مبنا من أعمارهم . أنهم يفرزتهم يحدقون الى هذه الملابس الجديدة التي يرتديها الاوربيون ويحدقون الى اجسامهم النظيفة الصحيحة ، ويتفرسون في هيئاتهم التي تدل على أنهم اناس لم يعرفوا الجوع ، وأنهم يشعرون جميعا بسعادة الحياة وبحسبون بأنهم في مأمن من الاخطار ، ويتحلون بالادب واللفظ والتهذيب والرهافة تحليهم بشباب العيد . واطفال الاوربيين عامة يخافون بعض الخوف من العرب . حتى ان أهلهم اذا أرادوا ان يهدئوهم قالوا لهم في كثير من الاحيان : أتسكتون أم ننادى العربى ؟

ولاحظ عمر اخيرا انه اصبح هو ايضا ينظر الى الاوربيين كما ينظر اليهم رفاقه . وكانت نظرتهم بالصراخ في وجوههم قائمة لهم شيئا . وكان الاوربيون يشعرون دائما بأن هذه النظرات الصارخة تلاحقهم في كل مكان .

ان جميع هؤلاء الاطفال الذين تحركهم حياة مبكرة ، قد ينطفئون شيئا فشيئا مع تقدم السنين ، من طول حمل البؤس ، والجهل ، والتعب المتراكم . . والسكر والسجون . ولكن لعل الامر لن يكون كذلك بالنسبة لهؤلاء . .

انهم ينظرون الان يقظين صامتين الى هذا العالم من القيود والموانع التي تحيط بهم في غير رحمة والتي يشعرون بقوتها أكثر ممما يفهمونها . أنهم ينبجسون من كل ركن من أركان المدينة تحركهم حماسة وشهوات لايعبر عنها . وكانت الاشياء التافهة التي يرمونها اليهم ، كالعلب الفارغة وحطام اللعب والاعلانات المطبوعة تسكرهم بنشوة من الاعجاب ، فيتنافسون عليها في حلق يضفى على هذه الاشياء التي لا شأن لها قيمة عظيمة ، فكانها مثل أعلى . فكان من يحتفظ بها منهم في آخر الصراع لا يخطيء اذا هو أخذ يلوح بها تلويحه بقيمة حرب خرج منها ظافرا .

كان يسمح لعمر بأن يلعب هذا اللعب ما استطاع ، وان يتفق قواه على هذا النحو حرا طليقا . لقد أصبحت حياة عمر تحديا صرفا . ان غريزة حاقدة لاتنام كانت تشبه بسرعة على كل شيء وعلى كل انسان . كان لايقبل الحياة على حالتها التي تعرض له ، وكان يحس ، لسبب من الأسباب لايمكن التعبير عنه ، ان هناك شيئا أخطر شأنا وأعمق قيمة . وكان مقتنعا بأنه لا يستطيع ان يصل الى هذا الشيء وهو بين ذويه ، ولكنه كان يرفض مع ذلك أن يصل

الى هذا الشيء من دون ذويه . لم يكن يدخل في نيافته أن يتبعه بل كان يدرك أنه يكون غريبا حيث لا يكون . لذلك كان عمر اذا طاش صوابه غضبا أو ياسا ، ولجا الى أحضان دار سبيطار ، يحس أنه يدخل روحا كبيرة خافضة هي روح بلد بأسره . كانت طفولته تفارقه . وما هو الا ثورة وصيحة بين سائر الثورات والصيحات .

وقد اتفق له غير مرة ان ابتعد عن عصابة اطفال الحى مدفوعا بحب الاستطلاع . ترك رفاقه ذات يوم وعصى يتجول في نواحي السوق المسقوفة ، حتى اذا انهى جولته ذهب يجلس على مقعد في « ميدان البلدية » . ان عددا كبيرا من المارة يجتازون في جميع الاتجاهات هذا الميدان الذى تظله أشجار الدلب . ورأى عمر رجلا يقترب منه . ان الرجل اوربى يصحبه صبي صغير . دهش عمر حين رأى هذا الفرنسى وابنه يقفان أمامه ، ثم شعر بشيء من الحرف ، وداخل نفسه شيء من الخشية ، فأراد ان يقوم ويمضى ولكن الرجل سأل ان يصحبه الى السوق من اجل ان يحمل له بعض المتاع .

لقد سبق كثيرا لعمر ان تودى بصغير على تلك الطريقة الخاصة التى يستعملها الاوربيون حين يريدون ان ينادوا احدا من سكان البلاد الاصليين : بست ، بست ، وكان فى مثل هذه الاحوال يلتفت الى الزراه فيرى انهم ينادونه . انه رجل فرنسى هذا الذى أوما اليه قائلا :
- تعال احمل .

نظر الفرنسى الى عمر نظرة طويلة ، وهو يتردد ، ممسكا ابنته بيده . فسرعان ما شعر عمر بنار تحرق جسمه حرقا لا يطاق . ان احساسا بالعار والمذلة يسرى فيه سريان التمزق على حين فجأة . شعر عمر بأن وجهه يحمر . كان عمر قد تعلم الكلام بالفرنسية . فكان فى وسعه ان يقول انه ليس حمالا ، أو انه يجب ألا ينظر الناس اليه نظرتهم الى حمال . ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة . لقد فقد معرفته بالفرنسية دفعة واحدة . وقال أخيرا بصوت مختنق :
- نعم يا سيدى .

ولكن الرجل كان قد بدأ يتفرس فيه مرتابا . وسأله كم يطلب على الحمل اجرا . فقال الصبي :

- ما تشاء يا سيدى .

فبدأ على الرجل عندئذ أنه اطمأن . فأمره أن يتبعهما هو وابنه قائلا :
- تعال اذن .

مشى عمر في أثرهما . حتى اذا وصلوا الى السوق التي يدخلها الفرنسيون خاصة ملاء الرجل الشبكة التي يحملها عمر ، بالخضار والفاكهة . انها خضار وفاكهة لا وجود لها في السوق الاخرى التي يشترى منها المسلمون .

ساعد الرجل عمر على رفع الشبكة الى كتفه وأمره أن يمشى أمامه . سار عمر لا ينطق بكلمة ولا يفكر الا في جعل الشبكة متوازنة فوق كتفه . انه الآن يخشى ان يلقي رفيقا من رفاقه ، فيفاجئه وهو يتعاطى الحمالة . لو رآه رفاقه على هذه الحال لامطروه بوابل من السخر وشتم عمر بحزن شديد .

ووصل الثلاثة امام احدى الفيلات بعد أن داروا دورة لدخول دكان يقال من البقالين . دخل الرجل وابنه أولا الفيللا ، ثم اشاروا الى عمر أن ادخل . كان الرجل يراقب عمر ، وهو قائم على ساقيه القصيرتين في خراقة ، وأخرج من جيبه قطعة من النقد دسها في يد عمر كأنه يدفع اليه صدقة . فرنك . . ان الطفل لا يدري اقبله أم يرفضه . لم يحرك ساكنا . بدا على الرجل الارتياح . وخاطب عمر في تلك اللحظة قائلا :

— ما اسمك ؟ ما عمل ابيك ؟

قال ذلك في غموض وذهول . انه لم يلق هذا السؤال الا ليقول

شيئا ما .

أجاب عمر بأن أباه ميت .

فأرذف الرجل يسأله :

— ما عمرك ؟

— احدى عشرة سنة .

ولج الرجل ابنه في الدهليز يحمل كتابا كبيرا من كتب الصور .

فهتف يقول له :

— هل رأيت يا جان بيير ! ان هذا الصبي في مثل عمرك تقريبا .

ثم التفت الى عمر وقال :

— أين تعلمت الكلام بالفرنسية ؟

— في المدرسة يا سيدي .

— ها . . أنت تذهب الى المدرسة .

— أقصد . . كنت أذهب الى المدرسة . . .

وتابع عمر يقول دون أى انفعال الآن :

— ولكنى اضطررت الى تركها .

فقال الرجل في وقار :

- نعم ، لأبد للهرم أن يعيش .

ثم قال لابنه :

- هل رأيت ؟ أن هذا الصبي لا يستطيع أن يذهب إلى المدرسة لأن

عليه أن يعيش .

وتابع الرجل القاء أسئلته بتلك الطريقة الداهلة نفسها ، كأنه يلقبها على مضض :

- كم تكسب في اليوم ؟

- هذا يختلف من يوم إلى يوم . حين يكون الزبائن كثيرين يصل

كسبي إلى عشرين أو ثلاثين فرنكا .

تخير الرجل . شعر بضيق . بدا عليه أنه يتساءل عما عسى أن

يقوله فيه هذا العربي الصغير .

- وطبعاً .. أنت تحمل كل ما تكسبه إلى أمك ، لا تنفق منه شيئاً

فأجاب عمر بغير تردد :

- طبعاً .. إلا حين يعطيني أحد « بقشيشاً » .

ومرة أخرى صدم الرجل . ونظر إلى ابنه وهو يهز له رأسه هذا

رصيناً علامة الاستحسان . بدأ الآن يضجر .

أراد عمر أن يسحق هذا الرجل بثقل إرادته . قامت في نفسه

قوة غامضة غارية خالية من كل عاطفة ومن كل انفعال . إنها حماسة

غربية وحشية .

كان الابن صامتاً ، وهو يمسك كتابه بذراعيه ، ويحدق إلى عمر

بعينية الشاحبتين .

وخطرت للرجل فكرة . قال لعمر وهو يشير إلى الكتاب الذي

يمسكه ابنه :

- هل تحب أيها الصغير أن يكون لك كتاب من كتب الصور

كهذا الكتاب ؟

لم يكن لعمر كتب في يوم من الأيام ، ولا خطر بباله في حياته أن

يكون له كتب . وكانت الرغبة في الكتب لا تراوده لأن الكتب لم

تكن تعنيه كثيراً .

غير أنه أدرك الجواب الذي ينتظره منه الرجل فقال :

- طبعاً .. أريد .. ولكن كيف السبيل إلى هذا ؟

فالتفت الرجل إلى ابنه ، ونظر إليه صامتاً ، ثم قال :

- اسمع يا جان بيير . هب هذا العربي الصغير سألك أن تعطيه

كتابك ، فهل تهديه إليه ؟

فنظر الصبي الى أبيه ، ونظر الى عمر : ثم ما كان منه الا أن عانق كتابه في عنف شديد يضحك أن يصدر من طفل مثله نحيل هذا التحول منطقي ، هذا الانطفاء .

— هيه سألك أن تعطيه هذا الكتاب . . هو الذي ليس عنده كتاب . . أفما تهديه إليه ؟

فقال الصبي في أنين :

— هو لي .

وجعد وجهه وهم بالبكاء .

فقال له أبوه :

— نعم نعم ، هو لك . أنا ما قلت ان عليك أن تعطيه الكتاب .

هذا الصبي ليس في حاجة إليه .

ولكن هيئة الابن ظلت تعبر عن القلق .

— أنا ما قلت ان عليك أن تعطيه الكتاب .

قال الابن مصرا :

الكتاب لي .

— طبعاً هو لك . ما من احد يفكر في أخذه منك .

قال عمر يقطع الحديث .

— على كل حال لن يتسع وقتي لقراءته ، أما هو . .

فابتسم الأب راضياً . ولكن الابن لم يطمئن الا شبه اطمئنان ،

فلا يزال وجهه متجهماً ولا يزال يبدو على أهبة البكاء .

قال الأب :

— هل رأيت ؟ ان هذا الصبي أطيب قلباً منك . هو فقير ، ومع

ذلك لا يريد أخذ كتابك . . ولكن عليك ، كلما نازت نزواتك وكلما

تشكيت ، أن تتذكر أن هناك أطفالاً يعملون ، وما حصلوا يوماً على

كتاب ولا على أية لعبة أخرى .

فردد الصبي يقول في عناد :

— الكتاب لي .

فقال الأب متنهدا :

— نعم نعم ، هو لك .

ونظر الى ساعته ، فقال لعمر :

— اذهب أيها الصغير .

فتح له الباب ، فاجتاز عمر العتبة ومضى .

كانت ماما تنظف البيت وترتبه ، ذاهبة من غرفة الى غرفة ، محدثة نفسها بغير انقطاع . وكانت في بعض اللحظات تخرج الى فناء البيت فجأة دون أن تتوقف عن الكلام ، فتستشهد أختها الصغيرة زهور ، ثم تعود تلاحق دمدمتها في أعماق حجرة من الحجرات . ان زهور صامتة لا تقول شيئا . وكانت تسمعها تقول : « الشرف عندنا هو كل شيء ، هو فوق سعادتنا . هذه هي الحقيقة » .

ان طبقة ثقيلة من السحب تغطي السماء . وهذه طيور سوداء تدور في الجو ثم تدور في غير كلال ولا ملال ، وماتنك تزعق . وثمة أصوات أخرى تأتي من الشاطئ الصخري المنخفض أمام المزرعة ، وتتردد اصداؤها في الهواء . وفجأة غمرت الشمس فناء البيت . هذا أول شعاع من أشعة الصباح .

ما الذي يحملها على أن تقول هذا الكلام ؟ ان زهور لم تصنع اليها حتى الآن . انه ليس يعنيهها هي أن يكون الشرف غاية الحياة . انها لا تفهم من هذا الكلام شيئا . أليس هذا ألفاظا فحسب ؟ ان المرء يسمع هذه اللفاظ كل يوم ، ولا شك ان الصمت خير من هذا الكلام كله . ومع ذلك فان خوفا مضطربا كان يتسلل الى نفسها ، ولا تملك ان تسيطر عليه . ان اقوال أختها الكبرى قد بعثت في نفسها الفلق ، كأنما هي تعبر عن خطر غامض يترصد بها . أليس وراء هذا أمر من الأمور ؟

كانت زهور تعرف اللبن الرائب من دن كبير أزرق بآنية من الاواني ، وتنقله الى المخضنة ، حتى اذا ملأت باللبن ثلاثة ارباع المخضنة علققتها بشجرة التين التي في الفناء .

وفي هذه اللحظة دخل قره واقترب من ماما .

— أنت تظنين أنني رجل لا ألاحظ شيئا ، أليس كذلك ؟ انني أرى زهور دائما ، فأدرك انها على كونها طفلة ، تصبح امرأة يوما بعد يوم . ما عمرها ؟

— لم تكن قد بلغت من العمر الا خمس سنين وشهرين حين توفي المرحوم ابي . وقد مات ابي منذ تسعة اعوام . انني أرى هذا كأنه

وقع بالأمس . سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاما وشهرين
أو ثلاثة .

- حقا لقد أصبحت امرأة ، امرأة جميلة .
وكان لابد من تقديم طعامه اليه فتولت زهور ذلك . انه الآن يلتهم
الخبز الاسود الذي يمشي به فمه مع جرعة كبيرة من مصالة اللبن تدفع
الحبز وتفرقر في قاع حلقه . فلما فرغت زهور من حمل كل طعامه
اليه ظلت واقفة على مسافة غير بعيدة ، تنتظر أن يطلبها ، بينما هو
ماض في ازدياد طعامه . ألقت ماما نظرة سريعة على اختها الصغيرة
التي كان قد اسمر وجهها . هكذا أصبح قره يتكلم عليها كل مرة
بهذه الصورة . وشيء صغير في قلب ماما كان يبكي كسيرا ذليلا .
ماذا كان يريد زوجها في واقع الامر ؟ أتراه كان يظن أن الصغيرة
تستطيع هذا الكلام الذي يقوله ؟ انه مخطيء على كل حال . كانت
أحاديث قره تنهش روح ماما نهشا . ولكن ما الذي يمكن ان تأخذه
عليه في الحقيقة ؟ هل كان على الاقل يعرف ما يقول ؟ ياله من فلاح
شقي ، شقي ، بائس ! بهذا كانت ماما تهنف بينها وبين نفسها .
قال قره يتابع كلامه :

- جاءني اليوم من يخطبها .
فقالت الزوجة لائمة :
- هو ! لم تقول هذا الكلام أمامها ؟ زهور ، لا تبقى هنا ، أخرجي
فلما خرجت زهور من الغرفة خافضة رأسها ، سألت ماما زوجها :
- من الذي جاء يخطبها ؟
هكذا شأن النساء . انهن دائما متعجلات . يردن ان يعرفن كل
شيء في لحظة .
- لماذا لا تريد أن تذكر اسم من جاء يخطبها ؟ أهذا ممكن يارب ؟
نظر الرجل أمامه وهو يهرس خبزه بين فكيه في بطة .
- سمأري .



زهور قاعدة على صندوق صغير في وسط فناء المزرعة تخض اللبن
في غير توقف . ذهبت ماما لتجيء الى البيت بماء . الجو في الخارج
ثقيل ، لكنه لا يبشر بهطول المطر . السحب التي فوق الجبال تحك
السماء في هدوء ورفق . . العالم راقد على هدوء الارض كدولاب
المخزل . ورمدة اشجار الزيتون المحاطة بأخاديد الحرارة السوداء ،
وهي زمنة معدنية اللون ، تغطي شهب الاودية . الماء الذي ينبع من

مكان بأعلى القرية ، ويسمع خريره هنا ، يجري غير بعيد عن البيت ، على مسافة خمسين خطوة . ان هذا الماء ينبع بين أشجار التين المعوجة ويجرى في الحقول قدما نحو المزرعة ، فكان هذه الارض كلها راقدة بين يديه المتلويحين .

ظلمت زهور في البيت ، تدفع الممخضة عنها وتجذبها اليها كأنها نواص ، فتقرقر ويخرج منها صوت كاب ، فكلما قامت بحركة من هذه الحركات احتك ذراعها بديبجها اللذين يظهر تهودها تحت غلايتها . ان لها وركين عريضين ، وجسما مكثرا قويا . لم تكن زهور قبل بضعة أشهر الا طفلة صغيرة . وهذا نسج قوى يجري في جسمها دفعة واحدة ، فاذا بجسمها يتفجر في كل جهة ! وهي بيضاء بياضا يثير الدهشة . وشعرها كتلة سوداء ناعمة . ان الرجال تنقبض حلوقهم متى رأوها . وفجأة حكمت زهور جسمها من فوق ثيابها ، ثم شمعت جميع ملابسها وأخذت تحرث بطنها بأظفارها . كانت رائحة خفيفة من رائحة اللبن الحائر تتموج في الهواء الرطب فتختلط برائحة أخرى أكنف منها هي رائحة الزيل وبول البهائم الآتية من الحظيرة الفاجر بابها أمام زهور .

وأخرج الفتاة من زهولها ظل خفيف ضخم كان يسير اليها . كان هذا الظل يشبه في أول الامر ظل لفلان نحيل الى أقصى النحول ، ثم لم يلبث أن بدا كظل سلحفاة ضخمة . وتحول الظل على صور أخرى أيضا . انها خطوات قره ، البطيئة الصامتة . كان قره آتيا الى الفتاة من وراء . ان اليواييج ذات النعال القوية تحدث شي بعض الاحيان هذا الصوت الذي يحدثه وقع قدميه العاريتين . وقف قره الى يسار زهور . وعندئذ أدركت زهور أنه كان متجها اليها . تحدث قره عن الزبدة ، وعن طعام الفطور ، وعن المقبرة ، وعما لا تدري أيضا من أمور ليست تعنيها . وكانت الفتاة لا تصغي اليه ، ولاحظت ان الكلمات التي يقولها تترجع في داخلها ترجعا ضعيفا .

كان قره يتكلم ، مائلا عليها ، وكانت هي لا تحاول ان تفهم ما يقول ، شاعرة بأن رجلا هو الذي يحيط بها الآن . وشمس الشتاء التي ظهرت في تلك اللحظة كانت شهباء لا نور لها ولا ثقل . ان زهور باردة منقبضة النفس ، يبدو عليها أنها تنصت في احتراء هادئ ، بينما الكلام البطيء الذي يخرج من فم الرجل يصطخب عليها دون أن ينفذ معينه . فلما رفعت رأسها أخيرا والتفتت الى قره لاحظت انه كان لا يحول نظراته عن ساقيهما العاريتين . فأسرعت تضم

ساقياها تحتها • سألها قره :

- ثم ماذا ؟

ولكن الفتاة ليس لديها ما تقوله • قال :

- لا أستطيع أن أتصور أنك ستظنين أنك ستظنين أبد الدهر • يجب أن تزوجك •

- ليس لي من الأمر شيء •

وغيضت طرفها • أدركت فجأة لماذا جاء إليها ووقف قريبا • ومالبت أن رفعت رأسها بحركة عنيفة متحدية • • وأخذت تحقق إلى هذا الوجه الكبير الزخرف الأخرس ، وجه قره • كانت هيئة الرجل تعبر عن البعد والاكتمال • وومضت في نفس الطفلة شعلة من كره • وسمعا كلاهما وقع خطوات ماما آتية من خارج البيت • ياله من كلب قذر !

وابتعد قره متأرجحا • ان هذا الرجل ، رغم أنه لا يبدو شابا ، يشعر من يراه بأن قوة شيطانية عمياء تسكن جسمه الكفيف • كانت ماما قادمة بقادوسيتها المليئين اللذين كادا يملخان يديها ملخا • فلما وصلت ألقتهما على الأرض في عنف ، مرتعشة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة • ألقتهما على الأرض في عنف كأنها ترميهما رميا ، فاندلق شيء من مائهما • فلما عادت تحملهما لتدخل بهما ، بقي منهما على الأرض دائرتان مبللتان سرعان ما شربهما الشراب • وبخطوتين اجتازت ماما المسافة التي تفصلها عن الغرفة المشتركة • ونظرت إلى الطفلة الجامدة الساكنة في وسط الفناء ، فما كان أشد دهشتها حين لاح لها معنى غريب في طريقة ترصد زهور •

قالت ماما لنفسها : « لا أستطيع أن أقول إلى أي حد تجرني زهور إلى الاعتقاد ان هناك أشياء خطيرة • يجب أن أوضح لنفسي كل شيء • في هذا المساء نفسه سأفاتيح زوجي • رباه ان هذه الطفلة تسبب لي قلقا كثيرا • ان وجودها يهلكني ! »

لم تستطع ماما أن تدرك بوضوح إلى أي حد كانت أختها بريئة • حتى أن ما يلوح على زهور من صفاء يقلقها ولا يدخل الهدوء والسكينة إلى قلبها • غير أن هناك أشياء يخشى المرء أن يكشفها • وكان من شأن هذا الانحسار الخفي الذي أصاب عاطفة الأخت نحو أختها بسبب ما يبدو على زهور من وضع غريب ، أن ماما تمت في سرها أن تموت أختها ولكنها ما لبثت أن تمانست •

كانت ماما نهبا لهذه الأفكار حين رأت الصبية تنهض وتدرك باب الدار • لماذا تراها تذهب تاركة البيت ؟ كانت غلاتها التي تلف

أنوثتها المراهقة تلطم ساقها أثناء ذهابها بخطا سريعة . سلكت
زهور طريق النبع . أن فيما تلقيه على ما حولها من نظرات حائرة
شيئا من نغاد الصبر الذي يرى في الأطفال .

وأصيبت زهور خارج البيت بذعر . أن مذاقا كمذاق التراب يملأ
فمها . بصقت . أنها تشعر بهذا التشوش في هدوء وفي نوع من
فقدان الاحساس مؤلم ممزوج بانتباه شديد . فلما وصلت إلى النبع
بعد أن سلكت إليه ممرا ضيقا ، جثت أمام البركة التي يتجمع فيها
الماء قبل أن يجري إلى الحقول ويضيع فيها . ليس هذا النبع إلا تقعا
صغيرا في الأرض ، يشبه صدغا مشقوقا . أنه كعصفور يختلج على
غير هدي ، دون أن يستطيع استرداد أنفاسه ، لأن يدين قد أمسكتا
بخناقته . قالت زهور لنفسها : حين تتنازل الطيور في الجو تسقط
على الأرض كأن صاعقة أصابتها . هكذا سقط العصفور . اننى أرى
حلقه ، وأسمع قرقرة شرايينه ، وهذا الحيط الناحل من الماء هو بلاشك
شعاع من دم .

كانت زهور تصعد أحيانا من الأعماق التي تستكشفها .
وكانها مغمضة عينيها . أن حولها شيئا لا تعرفه يهمهم في
قلب الجبال والأودية . ليس هو الريح ، أنه يتحرك في
الداخل ، ثم يصفع السهول ، ويصعد نحو الذرى . الأرض تهتز منه
وكل شيء يرتعش ، والحقول العارية تختلج ، ويسمع المرء حتى في
آخر الأفق رنين هذا السيل من القوى الأسيرة التي ستفرق البلد
في يوم من الأيام .

الجبل والسهل ، والفجاج ، ترتسم في الأفق قاسية . الهواء
حاد ، حتى أن المرء ليحس في بعض اللحظات أن جذرات نلسمه .
والبدور لا تزال تنتفض تحت قشرة الأرض الباردة . صحيح أن
أشجار الزيتون لا تزال مكسوة بالأوراق ، غير أن جميع الأشجار
الأخرى هي الآن سوداء ، كان أخشابها العارية النظيفة منتصبة
كالجدور .

وفجأة سمعت زهور اسمها يترجع في الفضاء : زهور . زهور !
فما أن يغيب واحد من هذه النداءات الطويلة في الهواء ، حتى ينشأ
نداء آخر في جميع الجهات يفمر النداءات السابقة . ظلت الفتاة
ساكنة لا تتحرك . أنها ترتعد . أن هذه الصيحات التي توجهها
أسوار السماء تنفذ إليها في بطن . وارتفع الصوت من جديد .
سمعت زهور النداء الأخير . وارتفع الصوت مرة أخرى في نداء

متصل . ان الحقول ترتفع حتى تصل الى عقبة من الارض يرى
ترايبها الاسمر . وفوق هذا تبدأ السماء . كانت ماما تركض على
القمة التي يمكن ان يطل المرء منها على السهل كله .

كانت تصيح من بعيد :

— زهور ! زهور !

— انا آتية .

— لا تستعجلي . ولكن يجب الا تبقى وحدك هناك . تعالى .



الارض التي تقضمها شمس كانون الثاني تستسلم للموت ببطء
شيئا فشيئا . الانتظار يفرغ هذه الايام الطويلة . ان الناس ينتظرون
ان يهطل المطر لينقذهم . ان في المراعى منذ الآن ، خرافا قد رقدت
على الارض ومدت اعناقها . يا له من لعنة رهيبة ، هذا القحط في
فصل الشتاء !

وانطلقت الرياح . انها في عتوها وهذيانها تهز الجبال . اسقطت
الرياح اواخر اوراق الاشجار ، وعصفت بشمار البلوط المتراكمة على
الارض فأخذت تخشخش . ان منطقة بنى بوبلان تطلق كانها
خشب يابس . رياح كانون الثاني ما تنفك تجفف رطوبة الاعماق ،
واصبحت الارض خفيفة ذات مسام . يهبط الليل فينام الناس
مغمورين بهذا الجو ، جو سيء يموت ، حتى اذا استيقظوا في
الصباح تشوقوا الى هطول المطر ، ولكنهم ما يلبثون ان يحسوا
حتى قبل ان يلقوا نظرة على الخارج ، بذلك الخدر الذي تولده
الشمس الساطعة ، ويظنون انهم يسمعون صوت رذاذ المطر يتساقط
على الارض دقيقا ، وصوت سيلان الماء على احجار افنية البيوت ،
ولكنهم ما يلبثون ان يعرفوا انها الارض تطلق من التشقق ، وانها
الريح تجرى في الحقول الخربة .

ايام الشتاء الحزين الذي تسطع فيه الشمس تدور فوق الارض
الصفراء الحمراء في ببطء لا يطاق . وفي انتظار حاله سادر ، تهتز
الاغصان الميتة ، وتتأرجح ظلال الاشجار المتصلبة .

وكانت الريح في ذلك الصباح تدفع الفيوم فوق المزارع المقفرة .
حتى اذا جاء الظهر صفت السماء دفعة واحدة ، فكان اشعة
الشمس التي بدأت تظهر قد غسلتها غسلا . ان الحقول اليابسة
مشوكة بأعشاب مشوية . حين اكفهر الجو انفعل الناس انفعالا
مفاجئا . ولكن النهار لم يلبث ان اخذ يثلج رقيقا كأنه زغب

لا يلمس . وأخذت الأصوات البعيدة تخترق هذا العالم من الشقوق .
وانتشر الصمت . ان البيوت تبدو في الايام التي أعقبت الحريق
مقفرة لا حياة فيها . الصمت وحده يرين ، الصمت وحده . انه
يخترق حياة الناس من طرف الى طرف ، ويوحف عبر تأملاتهم ،
ويلبد حركاتهم . أى فقر ! لا شيء . لا أحد . صمت ووحدة !
وهناك اجانب يجتازون الطرق . وفي بعض الاحيان يصفر قطار .
الحياة غير بعيدة عن هذا المكان .

عمر هذا الصمت حتى الان بضعة أيام . لقد شاح اذن . نفسه
هؤلاء القرويون . ترى متى يخرجون عن هذا الصمت ؟ متى
يرفضون ان يمضوا فيه الى ابعد من ذلك ؟
افترضت السلطات - وهذا من عملها - ان ثمة استعدادات
اخرى ، ان ثمة خططا اخرى تدبر في ليل . فاستؤنفت الاعتقالات ،
وعاد رجال الدرك . انهم يسوقون الرجال الى المدينة جماعات
جماعات ، ولكنهم لن يحتجزوهم مدة طويلة في هذه المرة .

ان اعمال الاستجواب التي تقوم بها السلطات تتم في غرفة سرية .
والفلاحون يحتفظون بآثار هذه الاستجوابات على اجسامهم مدة
طويلة . النساء والاطفال يقضون هذه الايام في قلق وخوف ، وهم
اقرب الى الموت منهم الى الحياة . وضع بعضهم ، منذ ذلك الحين ،
حرصه على الحياة .

غير ان هذا كله لم يثمر . ماذا تريد السلطات . ان الفلاحين
لا يقهمون ماذا تريد السلطات . انهم لا يخفون شيئا ، وليس لديهم
ما يترقبون به . كان الاستجواب يبدأ هكذا :

- هيه ... انت ... لماذا اضربت عن العمل ؟

- كنت لا أستطيع ان اعيش ، أنا وأسرتي ، بالاجر الذي كنت
أنتقأه .

- ها ... كنت لا تستطيع ان تعيش .

وعندئذ تدخل طريقة عنيفة في النقاش .

- لعلك تريد أحيانا ان تملك فيلا ، وان تملك سيارة ؟ ولكن
هلا نظرت الى نفسك ؟

- ليس هذا ما قلته ...

- ليس هذا كل شيء . لقد تأمرت أنت ورفاقك على فرنسا .

انت من حزب الشعب الجزائري ام أنت شيوعي ؟ اعترف حالا .
والا ...

وينقطع الاستجواب لأن حججا أخرى تبدأ عملها ...
 - قل من هم الذين ينتمون من بينكم الى حزب « الشعب
 الجزائري » او الى الحزب الشيوعي ، فما يصيبك أنت اذى .
 وكان المستجوبون ينظرون الى المحقق محاولين أن يحذروا ما يريد
 ان يعرفه ، ولكنهم لا يفهمون شيئا . كانوا يقلبون السؤال على
 الف وجه ووجه ، ثم يظلون صامتين ، لانهم لا يعرفون ماذا يقولون .
 ويأخذ الجنود يضربونهم ، ولكن الضرب لا يزيدهم فهما .
 وتنتهى الحفلة دون أن تسفر عن نتيجة . تطلق السلطات سراح
 الفلاحين ، معلنة لهم ان اسماءهم قد كتبت بالحبر الاحمر ، وان
 الامر لن يقف عند هذا الحد ، وانها ستعنى بهم ...
 ذلك ما قطعوه للفلاحين من وعود الايام المقبلة .



ان قره وامراته يعملان في البيت منذ الساعة السادسة من
 الصباح ، كسائر الناس في منازل بنى بوبلان ، وينامان بعد صلاة
 العشاء راسا .

التفكير ، التفكير دائما . والايام يتراكم بعضها فوق بعض . لعنة
 من السماء حلت بالارض . وقع اقدام على الارض ، تباح كلب ،
 طقطقة شجرة .. والناس يشفقون عند سماع ايسر جلبة . ساعات
 وساعات . الريف مقفر حولهم . وماما لا تفرغ من ترتيب الاشياء
 في البيت . انها ذاهبة آتية بغير انقطاع . وهى وحيدة . انها تخاف
 ان تتكلم وهى وحيدة .

حتى اذا رجع زوجها الى البيت ، اخذت تقول ما يجب ودب من
 كلام ، في كل امر من الامور ، بغير كلفة ، لا تنتظر أن يؤيدها ،
 ولا أن يوافقها . اما هو ، فانه اذا تكلم لا يقول أشياء كثيرة . وهو
 يتحدث ، طبعاً ، عن الحقول ، والبذار ، والنباتات ، أو يتحدث
 عن الجو .

ان قره على يطلب في هذا الاوان هطول المطر ، لقد كان الجرد
 قارسا ولكن السماء لم تمطر . ان الشتاء في هذا العام اشبه باناء
 فارغ ظل ملقى على الارض اياما وليالى برمتها . ان امر الخضار
 هو الذى يصدع رأس قره على . هذه سحب كثيرة ترقد على الارض
 منذ عدة ايام وتحتضن الحقول بين جنباتها التى تخرج منها
 التماعات قصدير سوداء .

قلت السحب معلقة في الجو مدة طويلة ، ثم اخذ المطر الغزير

يهطل على الأرض .
لم يذهب قره بعد ذلك إلى الحقول إلا مرات نادرة . ليس له
الآن في الحقول عمل . أن الأرض والماء يتكفلان بكل شيء . وأصبح
قره يعمل في البيت ، فهو ينقى البذار ، ويرقع الأكياس والبرادع
والألحمة ، ويقدم العلف للبهائم .

أن بقرة من أبقاره قد وضعت حملها في هذه الفترة . أقلقه ذلك
كثيرا . لقد كان البرد شديدا كل الشدة . خاف قره على الحظيرة
التي كانت معرضة لأن تفرقها مياه الأمطار . أن الحظيرة كهف تحت
الأرض . دفأت ماما الحظيرة . وساعد الرجل العجل على الخروج
من بطن أمه ، والعرق يتصبب من جبينه . أخرجه من بطن البقرة ،
وهي ما تنفك تجار ، حتى أخذت بعد ذلك تزار زئير حيوان كاسر .
خاف قره على البقرة أيضا .

لم تستطع ماما أن تنظر إلى هذا كله ، بل ظلت بعيدة تنتظر أن
ينتهي كل شيء ، وقد قام في نفسها قلق خفيف .
وفي الليل أخذ الحيوان الصغير ليرقد في غرفتهما . أن الجليد في
خارج الغرفة يجمد الهواء .

انتهت فترة الأمطار الأولى . تجول قره كثيرا في الحقول .
تلبث طويلا عند محمد ، وعند عيسى ، ثم عند بن أيوب .
كان يدرك أن الوقت لا يستحته . كان يقول حين يصل :

— السلام عليكم . عافاكم الله . كيف الحال ؟

— وعليكم السلام . الحال كما ترى . الحمد لله .

انهم لا يرتاحون لوصوله كثيرا . ولكنهم يقولون بضع كلمات حتى
لا يظهروا بمظهر خشن غير مؤدب . انهم يحرسون على ألا يرى
فيهم الناس رأيا سيئا . غير أنه يزعمهم أن يتوقفوا عن العمل وأن
يكلموه خاصة . يزعمهم أن يضطروا إلى التحدث إليه ، بينما هم
يدركون أنه ليس يجدي أن يكلموه كما كانوا يكلمونه في الماضي ،
ويعلمون أن ذلك لم يكن حقا ، وأن الأمور الآن ليست على ما كانت
عليه من قبل .

ولاحظ قره عند اقترابه خطاطيف خضراء ساكنة على مربعات
الحقول الشهباء والسوداء :

هو الفول ، هل نبت الفول إذن ؟

قال قره يحدث نفسه سكون لهم البواكير ، ولكن فولهم هذه
كثيرا ، فربما ساء الجو ، وحصل الضيق .

وأدرك قره انزعاج الجيران . فقال لمجرد القول فقط .
- لقد رأيت أنا أن هذا خير . واعتقد أن آخرين غيري فعلوا
ما فعلت . لم يبق إلا أنتم . . سيعرف الفلاحون بعد الآن كيف
يحافظون على السكينة والهدوء . . إن نخشى بعد اليوم شيئاً .

- طبعاً

قال قره أيضاً :

- طبعاً

- وكرر هذه الكلمة عدة مرات ، دون أن يبدو عليه أنه يقيم
لها أي وزن .

كان يعرف مصدر صمت جيرانه . لقد باع قره نفسه . أنه يرى
هذا في ملاحظتهم الجامدة وفي حركاتهم . هو عميل السلطة . لا شيء
إلا لأنه قاوم ذلك الاضطراب الذي قام به العمال الزراعيون . أن
قره يكره موقف الاستنكار الآخرس الذي يقفونه منه ، ويكره أيضاً
ما يلوح في وجوههم من أنهم يريدون أن يلقنوه درساً . فليفكروا
كما يشاءون . أنهم على ضلال . لقد أيد هو القانون وليس يخفى
ذلك . هذا هو الوضع العادل فيما يرى . أما هم فأنهم لم يزيدوا
على أن عطفوا على الفلاحين وأيدوهم .

أراد مع ذلك أن يظهر ، من جهته ، أنه يستطيع أن ينسى كل
شيء . اهتم مرة أخرى بأمر الفول :

- بداية طيبة .

- صحيح ، من هذه الناحية ، صحيح .

وصمت قره . وليث لحظة أخرى يلاحظ هؤلاء الرجال وقد
استأنفوا عملهم الذي قطعته وصوله إليهم ، ليث لحظة أخرى
يلاحظهم دون أن يضيف إلى ما قال كلمة واحدة .
ثم انصرف . كان مروره أشبه بالقاء حجر في غدير . أن المزارعي
بنى بوبلان رأيهم في هذه الزيارة .

لقد أضرب العمال الزراعيون عن العمل ، فنشأ عن ذلك لغط
كثير ، وتعطلت المزارع . وكان هذا كافياً لفقدان هؤلاء المستوطنين
الفرنسيين صوابهم مع أنهم كانوا واثقين بقوتهم ثقة كبيرة ، ظانين
أن سلطتهم وطيدة لا تتزعزع .

في هذا الفصل من السنة لا يبدأ النهار حقا الا في الساعة الثامنة من الصباح ولا يمتد الى أكثر من الخامسة بعد الظهر .
وسكان بنى بوبلان ينهضون في الساعة التي يقدرّون أن الشمس تطلع فيها ، وهي الساعة السادسة . إن الضباب ، والمطر ، وهو مطر رقيق يهطل على وثيرة واحدة ، يسدان الجو . والبيوت في وسط هذا النهار الازغب تبدو ضائعة . وقد اضطر الناس في الصباح الى اشعال القناديل أو المصابيح . والطرقات في خارج البيوت غارقة في وحل لزج أسود .

ثم تبدل المشهد في الساعة الثامنة ، إن ضياء أشهب يزيل المسافات أخذ يتقدم شيئا فشيئا . هذا نهار من الأنهر الأسبانية ، المحملة بالضباب الكثيف والأضواء المنتشرة ، فالأشجار العارية ، والمنازل الضيقة ، والرجال الشهب الذين يسرون في الحقول البعيدة ، كل ذلك يبدو في هذا النهار مترابطا آخذا بعضه برقاب بعض . وفي بعض الأحيان تبرز الأفاق البعيدة العميقة الزرقاء ، وكأن لها في بعض ساعات النهار ولاسيما في المساء مشهدا غريبا . إن شمسا شاحبة تضيء البلاد عندئذ على حين فجأة ، فتبدد جميع الساعات بالبيضاء الرطبة التي تنهزم مدحورة ، وتظهر المنطقة في تلك الدقيقة بكل قوتها ، مرتسمة في قمم بارزة مضيئة يعززها هبوط الفسق .

في بيوت الفلاحين الصغيرة ، يعيش الناس في جو خائق لا ناقدة له ولا أفق ، ويخبون في غم وهم ، مالتئين الوقت باضطراب وسنان . أناس لا يعرفون الفرح ، لكنهم مع ذلك ليسوا بالجزائي . إن ذلك الضوء القاتم الدقيق ، ذلك الضوء الذي يضم أصوات الريف ، يظل منتشرا الى أن يائي الليل .

والعمل في داخل البيوت يستمر أكثر من ذلك ، وتصبح حياة الرجال سيرا بطيئا للملاقة الليل . وفي خارج الجدران تغيب الحقول شيئا بعد شيء في مقاعد الضباب ، وتمتد مقفرة لا ترى ، ندية تحت فروعها المائية . وتغيم حواشي المنطقة .

على أن صوتا من أصوات البشر يجيء أحيانا من تلك المساحات
الفارقة ، فيقول المرء لنفسه أن المزارع لم تهجر إذن هجرا تاما كما
يظن . أن هناك رجالا لا يزالون يعملون في ذلك البحر من الضباب
والطر ، لم يتركوا حقولهم .



كان عليها أن تسرع ، وأن تملأ قواديسها ، لقد ارتفع النهار
ولم تهيب لزوجها طعاما . أنه يصل في الساعة الخادية عشرة
والنصف . وما أن يصل حتى يطلب طعامه . أنه لا يعرف شيئا
آخر . كانت ماما ، متى ذكرت ذلك توقفت فجأة عن كل عمل .
ولسكن التفكير مرض . أن إبليس يحمل الناس على رعي أبقاره .
ومن حسن الحظ أن لها عملا تقوم به ، وأنها تظل تعمل في جميع
الأيام إلى أن تنفذ قواها وترهق .

كانت زهور جالسة أمام رتاج الباب ، فحسّت ماما أمامها . أن
زهور قد صعدت إلى بنى بوبلان أثناء هذا الشتاء عدة مرات
متتالية . ولو جاء عمر معها في هذه المرة لاختلف الأمر ، ولتسلينا
معا .

قالت ماما لأختها :

- أن هذا الرجل لقاتلي آخر الأمر .

وكانت تقول : من حسن الحظ أن زهور معها . لقد ساعدتها زهور
أشيرا في هذه الأيام الماضية . مسكينة زهور . وقصت ماما على أختها
ب وقع في الليلة البارحة بينها وبين زوجها . ارتها شفتها الممزقة .
وبكت بكاء مرا واستمطرت السماء وابلا من اللعنات على رأس قره .
- أود لو تبقى الوقت كله معي يا أختي . أنه يخيفني ، وهذا
الرجل . ابقى بضعة أيام فحسب . أن أمنا ليست في حاجة إليك .
لا تتركيني وحيدة .

ولم يكن ليفرى الفتاة أن تمكث في بنى بوبلان خمسة أيام أو
سنة . قالت زهور لأختها :

- لن أستطيع يا أختي

فتوسلت إليها ماما قائلة :

- أرجوك ! بضعة أيام . .

وقطعت لها هذا الوعد قائلة :

- لأجعلن جهاز عرسك أجمل من جهاز كل فتاة في هذه البلاد .
وذكرت لها كيف أنها تدخر لها شيئا من المال ستنفقه على جهازها

- سوف ترين بعد بضعة أشهر ما تجتنيه من هذا . .
ان قره قد عامل ماما هذه المعاملة منذ أصبحت تعيش في هذا
البيت . بدأ ذلك بعد زواجها بمدة يسيرة ، ثم تقام حين فقد
زوجها كل امل في أن يكون له أولاد في يوم من الايام . وكانت ماما
لا تشعر بفرح الا في صحبة اختها حين تجيء اليها من وقت الى وقت .
أما قره فانها لا تشعر نحوه الا بالشك والحذر ، حتى اذا قاربها لم
تحس الا بالعذاب

ان مزاجا كمزاج قره المزعج ، يمكن أن يوصف بأنه مزاج خبيث
مالت زهور الى الامام ولطمت ريلة ساقها براحة يدها . ان الذباب
شره لجوج . هذه هي الذبابات الاولى تبشر بقدوم الربيع . ان دندنتها
تختلط بهذا الصمت الثقيل الذي يزين على الريف . كانت الفتاة
تنصت لشكاوى اختها هادئة لا تهتز . ما من لحظة من اللحظات
ارتسم فيها على وجهها الصلب ظل من قلق او شيء يشبه القلق .
وقررت أن تمكث عند اختها بضعة أيام . ولكنها لم تكلمها في ذلك
بل انها لا تدري على وجه اليقين هل كانت تصفى الى اختها حقاً .
كانت زهور تفكر في المصير الذي كتب على اختها

رأت بخيالها اختها العروس وهي تمتطي ظهر حمار حين أوشك
الركب أن ينحرف عن الطريق الكبير ، ورأتها وسط النساء اللاتي
كن يرافقن الموكب تصعد في الدرب الوعر الصعب الذي يؤدي الى
منى بوبلان . لقد انفجرت ماما باكية في تلك اللحظة . لماذا حزنت
اختها ذلك الحزن كله ؟ لقد كان على ماما أن تبسم . وقد ابتسمت
حقاً بعد ذلك . ولكنها ابتسمت ابتسامة مرة .

طاغوا بها ، أول يوم ، في حجرات المزرعة ، وكان عليها أن تحثو
على جميع القدور والجرار والخوابى التي تودع فيها المؤونة ، لتنظر
ما فيها

ان شيئاً من هذه الجبال قد انتقل الى ماما منذ تزوجت ، أعنى
شيئاً ثقيلاً خانقاً

ان ظل الكرمة يسقط على أرض الفناء شيئاً بعد شيء ، ثم لا يلبث
ان يمحي ، فتسترد الأرض الممهدة لونها الضارب الى سمرة .

حين فرغ الثلاثة من تناول طعام العشاء ، اختفت أواخر آثار
النهار التي كانت تجري بطيئة في الهواء ، ونصب الليل شراعه في كل
جهة من الجهات . الليل ههنا كامل لا شقوق فيه ، ولا يشبه الليل

الذي يخيم على المدينة . الليل ههنا يلف العالم متوحشا ساكنا ، فلا حياة إلا الصيحات الغامضة التي تطلقها البهائم ، والأخمصة الأرض ان مصباح الزيت الذي أشعلوه يحميهم وراء ستور واهن من الضياء ، ولكنه ضياؤهم الذي يبدد الليل ولما فرغوا من الطعام ، أنهضت ماما أختها وأرسلتها تنام ، فذهبت زهور دون أن تنبس بكلمة . وأنه ليندر على كل حال ان يطيل أحد منهم سهرته الى ما بعد صلاة العشاء . ومن عادة زهور خاصة انها تكون في مثل هذه الساعة نائمة نوما عميقا

ظلت ماما وحيدة مع زوجها ، ثم أخذت تتكلم بعد صمت طويل . ان الرجل معتصم بالصمت لا يقول شيئا . وأدركت زوجته شيئا بعد شيء ان كلماتها تتزلج عليه ولا تلامسه . ان الضياء الاصم الذي يصدر عن المصباح ، ويبسط خطوط جسمه الضخم يجعله أشبه بأنسان من صخر . وأحسّت ماما بهذا الاحساس المضحك وهو أنها تتكلم وحدها في مكان خال ليس فيه انسان ، فبدت لها أقوالها غثا لا طائل تحته

قالت فجأة بصوت مرتعش :

— أنت تريد ان تنشأ بيتنا مشاكل ، اليس هذا ما تريده ؟
فأجاب قره قائلا :

— لست أحرص على ذلك

— لا يليق بأسرة كآسرتنا ان تحدث فيها مشاكل . لقد كان الناس يحترمونا دائما الى الان . واني لاوتر ان يدق عنقي وأن يهقر بطني على أن أسمع الناس يقولون عنا أمورا غير نظيفة . انت تعرف الناس وتعرف ماذا يمكن أن يقولوا . ما من شيء يوقف السنتهم متى أخذت تتحرك . لا أعرف ما الذي تجتره من أفكار . ولكنني لاحظتك وأستطيع أن أقول ان ما فعلته شرا

قدقت ماما هذه الكلمات الأخيرة في وجه زوجها قدفا . فقال زوجها مؤنبا :

— كفى . لا أريد ان أسمع مزيدا من الكلام

كان قره غارقا في أفكاره

انه يتهيأ لوضع مشروعات تبقى بعد الامتحان والتجربة ، مشروعات من تلك التي يعدها المرء أعبادا طويلا ، يرى تحقيقها يقبل من بعيد في بلاء وهي المشروعات الوحيدة التي تلائم مزاجه المنطوي ورغباته الجامحة على برودتها ..

ومن أجل ذلك كان رجل الزمن هو ما يجب أن يحمله على عاتقه .
لقد سبق له أن عزم على ذلك ولم يجد حاجة إلى أن يفكر في الأمر
تفكيراً طويلاً . لقد أرسى لمشروعاته أسساً وطيدة راسخة ، كما يضع
المرء الحجر الأول في العمارة التي سيقيمها . أنه ماض إلى تشييد
مدينة بأسرها ، وسيكون هو سيدها والمسيطر عليها . وقد أقام
(الورش) أمام المكان الذي سيرتفع فيه البناء . غير أنه كان يكتسم
أمر هذه الإعدادات الأولى . فإن حذره يمنعه من البوح بما ينتويه .
كان يوصي نفسه قائلاً : « حذار حذار ، فإن المتعجل يضيع حتى
أسنان فمه » .

كذلك كانت تجري الحياة . وفي حياة قره على لا تفلت لحظة من
الحساب ، لا تفلت لحظة واحدة من الخطة التي تعدها نفسه المربعة .
لذلك كانت ترى فيه كما ترى الآن ، هذه العين الكالحة الشابة ذات
النظرة الشرهة . لكنه يفسد كل ما قد يقع بين يديه . أنه لا ينظر
إلى العالم إلا ويستولي عليه جنون التملك . أنه لا يدير في رأسه إلا
مسائل الثراء

وهو في بعض الأحيان لا يستطيع أن يقاوم شهواته . تشور به
الحمى في مثل هذه الأحوال فإذا العقل يتخلى عن مكانه فجأة لأفكار
طائشة ، ثم أنه لا يخرج بعد ذلك من هذا الليل المبهم ليعود إلى
الواقع شيئاً فشيئاً ، إلا في غناء . أنه يقول لنفسه في هذه اللحظات
« حذار يا قره ! أباك أن تضل عن الصواب » ، ثم يستأنف نظره في
خططه التي يراقبها مراقبة دقيقة

ماذا ؟ أمراته تتحدث عن الحريق ؟ عن العمال الزراعيين ؟ ارتعش
قره . وصعد في نفسه تيار من الكره يعمى . أتراها علمت بشيء عنه ؟
أم أن هناك إشاعات تروج ؟
إن أيسر ما كان يقال هو أن قره على يعرف من أضرَم النار في أكواخ
الفلاحين .

وعاد الرجل إلى تأمله الكئيب الرهيب
« منذ مدة أشارت إلى محصول الزيتون الذي اشتترته من
المستوطنين الفرنسيين ، فهل أتراها عرفت شئوني وثقتني إلى
أسراري ؟ انها لشيطانة . لا ، لا ، هنا حذار ، حذار »

لا يزال قره يبدو وسنان ، غير خائف ، مع أن التأمل في فكرة
حائقة كان يلطم شيطان ذاكرته بغير انقطاع . وفي هذه اللحظة كانت
الأسفة الأولى من الحمى التي تصعد إلى عينيه توسع حدقيه شيئاً

فشيئا . وفي ثانية واجهت ماما نظرتة ..

— ما الذى تريده من زهور ؟ من الدوران حولها دائما ، ما الذى يحملك على أن تنظر اليها ؟ ما الذى يحملك على أن تنظر اليها ؟ أهذا كل ما يهملك عمله ؟ لماذا لا تمضى فى طريقك حين تلقاها ؟ لماذا لا تدعها وشأنها ؟ ان من الافضل ألا تدور هذه الافكار فى رأس المرء . اذا كنت تريد شيئا ، فانا لن اخلى لك الطريق

— قلت كفى

— سيعلم الناس جميعا بما رأيته أنا ، وسيكون أهلك أول من يعلم به . سيعرفون قيمتك . يشهد الله أنه ما من شيء يصدنى عن اعلان ما رأيته .

فما ان قالت المرأة هذا الكلام ، حتى هوت على وجهها يد قره الضخمة المحشوة بالعضلات . فاخذت الدموع تسيل على خديها ، منتزعة من عينيها انزعاجا بقوة اللطمة . قالت له :

— أنت تنوى خلق المشاكل

كان صوتها قبل ذلك مكظوما ، ولكن المرء أصبح يستطيع أن يكتشف فيه اختلاجا يسيرا

— لئن شوهدت حول اكواخ الفلاحين ، لقد كنت تريد أن تخلق لهم مشكلات . انا لأسألك ألا أن تمنع النظر . اذا كنت تفكر فى هذا ، فأنك تريد أحداث متاعب

فبعد ذراعه حول عنقها يخنقها . عقف فى أول الامر قبضة يدها . فكفت عن الصياح ، ولكنها ما لبثت أن تملصت منه فجأة بحركة مباغتة . لم تحاول بعد ذلك أن تتخلص ولا أن تتقى لطماته . أصبحت تداعى الصفعات على وجهها بغير اكتراث . وقبض قره على يدها مرة أخرى فخنقها ، فسقطت ماما على ركبتيها ، واخذت قبضة الرجل تهوى على وجهها عدة مرات واستطاعت ماما عندئذ أن تتنفس ، أن تتنفس ببطء شديد . كانت شفتها السفلى مشقوقة متدللة دامية .

قالت :

— هل رأيته ؟ انك لا تستطيع الإنكار . معنى هذا انك كنت تنوى ذلك حقا .

وسحب قره يده التى كانت ممدوسة فى جيب سرواله ، وراح بضرب امراته . لقد أصبح وجهه احمر قاسيا . وكان يكتفى بالضرب . أن يده تهوى على زوجته بحركات طويلة جامدة ، كأنها تحركها ارادة خاصة . وبسرعة ومرونة ليستا فى الحسيان ، كان يضرب ويضرب .

كتابك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

M. Miguel Maccul Cury
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

البرازيل

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 19
ENGLAND.

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

«تجريق» هي القسم الثاني من ثلاثية الكاتب الجزائري المعروف محمد ديب ، أما القسم الأول فهو : الدار الكبيرة فقد أصدرته سلسلة روايات الهلال في الشهر الماضي . وسوف يصدر القسم الثالث وهو « النول » في الشهر القادم . وبذلك تكون روايات الهلال قد أكملت في ثلاثة أشهر متتالية نشر الترجمة العربية لثلاثية محمد ديب . وهذه الثلاثية تتألف من الأعمال الروائية البارزة في الأدب الحديث ، العربية للادب المكتوب باللغة العربية فقط ولكن بالأسلوب للادب المكتوب باللغات الأوروبية المعروفة أيضا . وقد كتب محمد ديب هذه الثلاثية باللغة الفرنسية ، ولكنه كان في كل سطر منها يعبر بوجدانه لواقع الإنسان العربي في الجزائر . ويقول محمد ديب نفسه في رسالة كتبها إلى مترجم الرواية : « كان لا بد للستين المائة والثلاثين التي قضتها غرنا في « تهمدين » جزائريا من أن تؤتي ثمرات ، ولتحقق أنها قدأت هذه الثمرات فيالها ان ثمرات » ستعرفون هذه الثمرات : ان وصفها هو موضوع هذه الروايات الثلاث . وما يقوله محمد ديب في سخرية واحساس بالمرارة - هو أمر صحت وحقي ، حيث تجد الجزائر بكل أحلامها وآلامها من سطور هذه الثلاثية العميقة الممتعة . الترجمة فقد قام بها الاديب العربي المعروف الدكتور سامي الدروبي سفير سوريا في القاهرة . وقد جلت الترجمة دقيقة أمينة محتفظة بكل ما في الأصل من جمال ونضارة ومثقة . وسامي الدروبي هو أحد كبار المثقفين الذين أضافوا إلى المكتبة العربية زاداً عظيماً من الترجمات الرفيعة اختارها بفرقة وحساسية وثقافته الواسعة كما اعتمد في نقلها على معرفة دقيقة بأسرار اللغتين العربية والفرنسية . وقد انعكس هذا كله في اختياره لهذه الرواية التي تشتهر بالفن والجمال والصدق والتي كتبها فنان عربي أصيل هو محمد ديب . سرق منه الاستعماريون لغته الأصلية وهي العربية فكتبها بلغة اجنبة ولكن روحه في كل سطر من سطور الرواية استطاعت ان تحتفظ بكل ما فيها من عروبة أصيلة .